سر النجاح

الفصل الاول

في الاعتماد على النفس

قال يوحنا ستورت مل . قيمة المملكة تتوقف على قيمة افرادها
وقال دزرائيلي . اننا نعتمد على الشرائع اكثر مما يجب وعلى الانسان
اقل مما يجب

اعتماد الانسان على نفسهِ اصل لكل نجاح حقيقي واذا
اتصف بهِ كثيرون من افراد امةٍ من الامم ارتقت وتقوَّت وكان
هو سر ارتقائها وتقويها وما ذلك الا لان الانسان يقوى عزمهُ
باعتمادهِ على نفسهِ ويضعف باعتمادهِ على غيرهِ . ألا ترى ان

المساعدات الخارجية كثيرًا ما تذهب بنشاط الانسان لانها لا تدع موجبًا لسعيهِ في خير نفسهِ فتغادرهُ ضعيفًا عاجزًا ولا سيما اذا فاقت حدّ الاقتضاء . وما احسن ما قالهُ الطغرائي في هذا المعنى

مَنْ لا يعوّلُ في الدنيا على رجُلٍ وانما رَجُلُ الدنيا وأَوحدها

وافضل الشرائع لا يجدي الانسان نفعًا اكثر من جعلهِ حرًّا ليعتمد على نفسهِ وينكبَّ على اصلاح شأنهِ . غير ان البشر قد اعتقدوا في كل اينٍ وآنٍ ان خيرهم وراحتهم منوطان بشرائع بلادهم لا بسلوكهم فاعتبروا الشرائع علّة لتقدمهم وبالغوا في الاعتقاد عليها وايّ مبالغة . الاّ انهُ قد كاد يتقرّر عند اهل هذا العصر ان ليس للشرائع من فائدة سوى حفظ الحياة والحرية والمال او التأمين على الدم والعرض والمال . فالشرائع التي يتولاّها حكّام امناء تمكّن الانسان من اجتناء ثمار اتعابهِ العقلية والجسدية ولكن ما كانت لتصيّر البليد نجيبًا والكسلان مجتهدًا والسكّير نزهًا مهما كانت عادلة وصارمة لان هذا منوط بالاصلاح الشخصي اي بالاجتهاد والاقتصاد ونكران الذات وما اشبه

وما حكومة شعبٍ سوى صورة افرادهِ فاذا فاقت الشعبَ حكومتهُ لا تلبث ان تنقهقر اليهِ واذا انحطّت عنهُ لا تلبث ان ترقى اليهِ . ومهما تكن اخلاق الشعب فنتائجها في حكومتهِ فاذا كان الشعب مستقيمًا حُكِم بالاستقامة واذا كان معوجًّا حُكِم بالاعوجاج . والاختبار يدلنا ان قوة الشعوب ودرجتها لا تتوقفان على حكومتها

كتوقفهما على اخلاق افرادها اذ ليس الشعب سوى مجموع افرادهِ
وليس تمدنهُ سوى تمدن افرادهِ كبارًا وصغارًا ذكورًا واناثًا. فتقدُّم
شعب هو مجموع علم افرادهِ واجتهادهم واستقامتهم وتأخرهُ هو
جهل افرادهِ وكسلهم والتواؤُهم . واذا دققنا النظر وجدنا ان
اكثر الشرور التي اعتدنا على نسبتها الى الشعب اجمالاً هي
شوائب نامية في حياة افرادهِ واذا استُؤصِلَت بواسطة الشرائع
تعود تنمو من ناحية اخرى بهيئة اخرى ما لم يتغيَّر طبع الانسان
وصفاتهُ . ويترتَّب على ما تقدَّم ان الغيرة الوطنية لاصلاح شأن
الوطن يجب ان لا تصرف في اصلاح سياستهِ وشرائعهِ بل في
انهاض اهلهِ لكي يصلحوا شانهم بيدهم

اذا كان كل التقدم موقوفًا على كيفية حكم الانسان على نفسهِ
فلا اهمية كبيرة للحكام المتسلطين عليهِ لان ليس العبد مَنْ يستعبدهُ
غيرهُ بل مَنْ يستعبد لجهلهِ وكبريائهِ وهواهُ هذا هو العبد الذليل
والشعب المتعبد على هذا النمط لا يحرّرهُ تغيير الشرائع والمسلّطين
ولا سيما اذا ظلَّ يتوهم ان حريتهُ متوقفة على كيفية حكومتهِ . لان
اساس الحرية الثابت قائمٌ على حسن شان الافراد الذي هو
السند الوحيد لنظام الهيئة الاجتماعية والتقدم الوطني. ولقد اجاد
العلاَّمة يوحنا ستورت مِلْ اذ قال ان الاستبداد لا يضر كثيرًا ما
دام كل شخص مستقلاً بنفسهِ ولكن كل ما يحطم الاستقلال الشخصي
هو استبداد مهما اختلفت اسماؤُهُ اه. وما احسن ما قالهُ وليم دركن

احد مشاهير المحامين عن استقلالية ارلندا في معرض دبلن الاوّل قال انني لم اسمع قط لفظة الاستقلال الاّ خطر على بالي وطني واهلهُ وكثيرًا ما سمعت عن الاستقلال الذي سنفوز بهِ بمساعدة الغير ولا يسعني ان انكر كم كنتُ اتمنى مساعدة الغير واعتبرها على انهُ لم يبرح من بالي قط ان استقلالنا الادبي والمادي يتوقف بالكلية علينا. وعندي لننا بانعكافنا على العلم والصناعة واستخدام ما لنا من الوسائط قد بلغنا درجة من التقدم لم نبلغها من قبل والفاعل الاكبر لنجاحنا مثابرتنا على ما بهِ خيرنا. واني لمتيقّن انّا اذا واظبنا على ما نحن عليهِ من الغيرة والاجتهاد وصلنا قريبًا الى درجة من السعادة والحرية لا يفوقنا فيها احد. اه

ان جميع الشعوب قد اتصلوا الى ما اتصلوا اليهِ من التقدم بواسطة اجتهاد الف من رجالهم. فالفعلة وحارثو الارض ومستخرجو المعادن وارباب الصنائع والمخترعون والمكتشفون والمصنفون والشعراء والفلاسفة ورجال السياسة جميعهم سعوا في تطلب تلك الغاية المجيدة التي هي ترقية شان بلادهم وازدياد عمرانها. هولاء هم الذين اوجدوا التمدن ورفعوا شان النوع الانساني بثباتهم على العلم والعمل. وكل جيل بنى على اتعاب سلفهِ في هذا البناء العظيم. ونحن ورثنا العمران كما تركهُ لنا اسلافنا وعلينا ان لا نتركهُ لخلفائنا كما تُرِك لنا بل ان نجدّ ونتعب في تهذيبهِ وزيادتهِ كما فعل من تقدّمنا

الاعتماد على النفس من اخص ما يوصف به الشعب الانكليزي وعليه تتوقف قوتهم كامتةٍ. فاذا التفتنا الى الخاصة منهم رأينا انهُ قلم من بينهم اناس فاقوا مَنْ سواهم فاستحقوا الاكرام من الجميع لكن لم يتوقف تقدم البلاد الانكليزية على هولاء الافراد القلائل بل على اناس دونهم رتبةً اي على اشخاص من العامّة قلما يُعرَف عنهم . ألا ترى ان من يذكر خبر انتصار جيش في واقعة من وقائع الحرب يقتصر على ذكر قواد الجيش مع ان النصر تمَّ بواسطة افرادهِ فكذلك في هذه الحياة التي هي اشبه شيء بدار حرب دائمة الاسمُ لاولي المقام السامي ولكنَّ في زوايا النسيان رجالاً لا يُحصَى عددهم كانوا وسائط فعّالة في ادخال العمران ورفع شان الشعوب وربما انهم اكثر عددًا من الذين انصف التاريخ فذكرهم . بل يمكننا ان نقول ان كل شخص كان قدوةً لغيرهِ في الاجتهاد والنزاهة والاستقامة لهُ يد في خير البلاد الحاضر والمستقبل وحياتهُ مثال يقتدي بهِ معاصروهُ وخلفاؤهم جيلاً بعد جيل. لاننا نرى بالاختبار اليومي ان قدوة المجتهدين تؤثر تاثيرًا قويًّا يفوق تاثير العلوم بل ما من علمٍ يؤثر في حياة الانسان مثل العلم الذي يراهُ يوميًّا في البيوت والشوارع وفي الحقول والمعامل . هذه هي العلوم الانتهائية التي على كل احدٍ ان يتقنها لكي يحق لهُ الدخول في الهيئة الاجتماعية هذه هي العلوم التي سمّاها شلر علوم الجنس البشري وهي تقوم بالعمل والسلوك والتهذيب والانقياد او بكل ما يؤهّل الانسان لمعاطاة

مصالح الحياة . وهذه العلوم لا تُحصَّل من المدارس ولا ترى في الكتب وما احسن ما قالهُ الشهير باكون ان جل فائدة العلوم ان ترشد الانسان الى حكمة فوقها لا تكتسب بالدرس بل بالملاحظة اه . والاختبار يعلمنا ان الانسان يصير كاملاً بالعمل اكثر مما بالعلم . اي ان شان الانسان يُصلَح بالعمل والاجتهاد والاستقامة لا بالعلم والدرس والشهرة

ولما كانت القدوة من الامور الفعَّالة في شؤُون البشر كانت كتب ترجمات المشاهير من اكثر الكتب فائدةً حتى ان بعضهم قد اعطاها المنزلة الاولى بعد الكتب الالهية لان فيها امثلة كثيرة للاعتماد على النفس وثبات العزم وعلو الهمة والنشاط والاستقامة وغير ذلك من المحامد التي تعلن بكلام صريح ما يستطيعهُ الانسان من الارتقاء في ذروات المجد وتبين ببلاغة عظيمة ان من يعتبر نفسهُ ويعتمد عليها ينل اسمًا حسنًا وشهرةً لا تُنسَى . لان رجال العلوم والفنون والآداب ارباب الافكار واهل الحصافة لم ينحصروا في فئة من البشر ولم يختصوا باهل المراتب بل نبغوا من المدارس والمعامل ومن الدكاكين والمزارع من اكواخ الفقراء الحقيرة وقصور الاغنياء الرفيعة وكم من اناس ارتقوا من ادنى الدرجات الى اعلى المراتب ولم تصدهم الصعوبات عن نوال ما شمروا لهُ الذيل بل كثيرًا ما كانت تستحيل الى اكبر مساعديهم بتحريكها قوتهم ونشاطهم وايقاظها ما ربما كان يخمل من قواهم لو لم

تكن الحال كذلك . وامثلة هذا كثيرة جدًّا لا يسعنا تعدادها وجميعها تثبت قول المثل القائل كُلُّ مَنْ جَدَّ وَجَد . ألا ترى ان جرمي نيلر شاعر عصرهِ والسر (١) رتشرد اركريت مخترع آلة الغزل وموَّسس معامل القطن واللورد (٢) تنتردن قاضي القضاة وترنر المصوّر الشهير وغيرهم نبغوا من حانوت الحلاق. اننا لا نعلم بالتاكيد اصل شكسبير راس شعراء الانكليز ولكن الجميع متفقون على ان اباهُ كان قصّابًا وانهُ هو نفسهُ كان يعمل في صباهُ على ممشطة الصوف . ومن الناس من يقول انهُ كان مساعدًا في احدى المدارس ثم صار كاتبًا . لكن قد اجتمعت في هذا الرجل الشهير كل اختبارات بني البشر كانهُ تعاطى كل مصالحهم مع انهُ لم يفعل ذلك بل كان كثير الدرس والاجتهاد ذا قريحة وقّادة وذكاء مفرط حتى انهُ فاق من سواهُ في سرعة الخاطر بانيًا كل كتاباتهِ على الملاحظة والاختبار فخدم بها جيلهُ ولم تزل لها سلطة قوية على افكار الشعب الانكليزي

وقام من بين الفعلة اناس يستحقون الذكر الجميل منهم برندلي المهندس وكوك الخبير بسلك البحر وبرْنس الشاعر . ومن بين البنائين وصانعي القرميد بن جنصن الذي عمل في بناء خان لنكلن وفي يدهِ ملعقة البناء وفي جيبهِ الكتاب وأدْوَرْدس وتلفُرْد

(١) سر (Sir) لقب شرف عند الانكليز

(٢) لورد (Lord) لقب شرف ايضًا

المهندسان وهيوملر الجيولوجي الشهير وألن كنتهام المؤلف والنقّاش ومن بين النجارين انيغو جونس وهريسن صانع الخرونومتر ويوحنا هنتر الفزيولوجي ورُمني واوبي المصوّران والاستاذ لي البارع في اللغات الشرقية ويوحنا جبسن النقّاش ومن بين الحاكة سِمسن الرياضي وباكُن النقاش وملنر وآدم ولكر ويوحنا فستر وولسن العارف بالطيور والدكتور لڤنستُن السائح الشهير وتناهِل الشاعر ومن بين الاساكفة السر كلودسلي شوڤل الاديرال العظيم وسترجيون الكهربائي وصوئيل درو المؤلف وجيفُرْد منشئ جريدة كورترلي رڤيو وبلُفيد الشاعر ووليم كاري وموريسن المبشران وموريسن لم يكن اسكافًا بل صانع قوالب للاساكفة . ومن برهة يسيرة قام من بينهم الرجل الشهير توما ادوردس فهذا الرجل درس جميع العلوم الطبيعية وهو آخذ في حرفتهِ وقد اكتشف على نوع جديد بين المتحجرات سماهُ الطبيعيون پرانيزا ادوردسي Praniza Edwardsii نسبةً اليهِ . وقام من بين الخياطين يوحنا ستو المؤرّخ وجكسن المصوّر والبطل السر يوحنا هُكسود الذي اعطاهُ الملك ادورد الثالث لقب النبيط جزاءً على شجاعتهِ والاديرال هبصن وكان هذا صانعًا عند خياط بالقرب من بُن تشرتش في جزيرة وَيْط فحدث ان عمارة بحرية اجتازت ذات يوم امام تلك الجزيرة فركض مع بعض الفتيان الى الشاطئ ليتفرج عليها ولما رآها تحرك فيهِ ميل شديد

الى سفر البحر فنزل في قارب كان هناك واخذ يجذف الى ان وصل الى سفينة الادميرال فصعد اليها وعرض نفسهُ تطوعًا فقُبل ولم يمضِ عليهِ الّا سنوات قلائل حتى صار ادميرالاً ونال اعلى مراتب الشرف

واشهر الذين قاموا من بين الخياطين بالاجماع اندرو جُنسن رئيس الولايات المتحدة الاميركانية المشهور بذكاء العقل . قيل انهُ القى خطابًا في مدينة وشنطون واخذ يراجع فيهِ تاريخ حياتهِ وكيف انهُ ارتقى من درجة الى اخرى الى ان صار رئيسًا للولايات المتحدة فضجَّ المحفل الحاضر بصوتٍ عظيم قائلين من الخياط فصاعدًا . وكان من عادتهِ ان يحوّل تهكم اخصامهِ الى حوادث تاريخية مفيدة . قال ذات مرة يعيّرني البعض بانني كنت خياطًا ولكنني لا ارى في ذلك شيئًا من العار لانني وانا خياط كنت مشهورًا بالامانة والمهارة في صناعتي وكنت دائمًا اخيط الثياب واعطيها لاصحابها في الاجل المعين هذا فضلاً عن انني كنت اعملها عملاً جيدًا متينًا اه . والكردينال ولسي العظيم كان ابن قصاب وكذلك كان ده فو واكنسيد وكرك هوَيت . وبنْين كان سنكريًّا ويوسف لنكستر كان سلّالاً . ومن الذين لهم يد في اختراع الآلة البخارية نيوكمن ووط وستفنسن فالاوّل كان حدّادًا والثاني نجارًا او صانع آلات تعليمية والثالث وقّادًا وكذلك هنتِندُن المبشّر كان يعمل في تكويم الفحم وبيوك ابو النقاشين في الخشب كان يعمل في

معادن الفحم وددسلي كان خادمًا وهلكرُفت سائسًا وبفن الشهير بسلك البحر كان خادمًا في سفينة وكذلك كان السر كلودسلي شغل . وهرشل الفلكي الشهير كان يلعب على المزمار وكنتري كان نقاشًا وإتي مصورًا والسر توما لورنس كان ابوهُ صاحب خان . وميخائيل فَرَداي كان ابوهُ حدَّادًا وهو تعلم صناعة تجليد الكتب وعمل فيها الى ان بلغ الثانية والعشرين من عمرهِ ولكنهُ الآن يعَد من الطبقة الاولى بين الفلاسفة الطبيعيين حتى انهُ يُفضَّل على معلمهِ السر همفري داڤي . وبين الذين لهم اليد الطولى في تقدم علم الهيئة كوبرنيكس وهو ابن خباز من بولونيا وكبلر وهو ابن صاحب خان من جرمانيا ودالمبر كان طفلاً منبوذًا وُجِدَ ليلاً على درج كنيسة مار يوحنا في باريز ورُبِّي عند امرأة زجَّاج . ونيوتن ابن رجل متوسط الحال من كرنتهام ولابلاس ابن فلَّاح فقير ومع ان احوال هذين الشهيرين كانت في صباهما متعسِّرة الى الغاية قد حصَّلا شهرة لا تساويها كنوز العالم باجتهادهما . والارجح انهما لو كانا من ذوي الثروة ما اتصلا الى ما اتصلا ويؤيِّد ذلك القصة الآتية وهي : ان ابا لكرنج الفلكي والرياضي الشهير كان مستلمًا خزينة الحرب في تورين فحدث انهُ اشترى بضائع كثيرة مؤمِّلاً الربح فخسر بها خسارة جسيمة اوصلت اهل بيتهِ الى حالة الفقر الشديد وصار ذلك سببًا لافتخار لكرنج لانهُ كان يقول لو كنت غنيًّا ما صرت رياضيًّا

ومن الذين اشتهروا في بلادنا (بلاد الانكليز) اكثر من غيرهم اولاد القسوس وخدمة الدين لاننا نرى بينهم دراك ونلسن الشهيرين بين رجال البحر وولستن وبَن وبليفير وبل المشهورين بالعلوم. ورن ورنيلدُس وولسن وولكي في التصوير. وثرلو وكيبل في الشريعة. واديسن وغُسن وكُلدسمث وكلردج وتنيسن في الانشاء . واللورد هردنج والكرنال ادوردس والماجور هدصن الذين اشتهروا في حروب الهند . وحقًّا ان الدولة الانكليزية استولت على بلاد الهند بواسطة اناس متوسطي الحال مثل كليف وورن وهستنس وخلفائهم رجال تربوا في المعامل واعتادوا على التعب

ونجد بين اولاد المحامين والصناع والباعة ادمند بُرك وسميتن المهندس وسكوت ووردزورث الشاعرين والسر وليم بلاكستن واللورد جيفُرد وهو ابن سمّان واللورد دَنمن ابن طبيب والقاضي تلفرد ابن خمّار واللورد بُلُك ابن سرّاج (صانع سروج). وملتن وهو ابن كاتب وبوب وسوزي ابنا بائعي اقمشة واللورد ماكولي ابن تاجر افريقي اما لَيَرْد مكتشف خرائب نينوى فكان كاتبًا والسر وليم ارمسترُن مخترع الآلة الهدروليكية والمدفع المسمّى باسمهِ درس الفقه في صغرهِ ومارس المحاماة مدة . وكتس كان صيدليًا والسر همفري داڤي صانعًا عند صيدلي وقد قال من فمهِ اني وصلت الى هذه الدرجة بسعيي ولا اقول ذلك بعُجب بل ببساطة قلب. ورتشرد اوِن نيوتن التاريخ الطبيعي كان في احدى

السفن ولم ينتظم في سلك طلبة العلم الا بعد ان تقدم في السن. ويظهر انه وضع اساس معارفهِ لما كان يرتب مجموع التحف الذي جمعهُ يوحنا هنتر

واذا التفتنا الى تواريخ الامم المختلفة غير الامة الانكليزية رأيناها مفعمة بذكر اشخاص قد شرّفوا الفقر الذي كان نصيبهم من الدنيا باجتهادهم وحذاقتهم . فمن الذين اشتهروا في الفنون كلود وهو ابن حلواني وجيفس وهو ابن خباز وليوبلد روبرت ابن صائغ ساعات وهيدن وهو ابن صانع دواليب والبابا غريغوريوس السابع وهو ابن نجار وسكستوس الخامس وهو ابن راعٍ وادريانوس السادس وهو ابن بحري ويُروى انهُ لما كان صغيرًا لم يكن بمكنتهِ ان يبتاع مصباحًا ليدرس على ضوءهِ في الليل فكان يدرس دروسهُ في ضوء المصابيح المعلقة في الازقة (١) ومن الذين نبغوا من اصل حقير ايضًا هوي المعدني وهو ابن حائك وهتن المكانيكي وهو ابن خبّاز ويوسف فُرير الرياضي وهو ابن خياط ودنورند وهو ابن اسكاف وجسنر الطبيعي وهو ابن دبّاغ قيل انهُ خطا اوّل خطوة في سلم الحياة محاطًا بكل ما

---

(١) وهذا يماثل ما قيل عن ابي نصر محمد الفارابي الفيلسوف الشهير الذي اتبع الفلسفة اقصاها وادناها وألف فيها كتبًا لا تعد لكثرتها مع ما كان عليهِ من العوز فكان يسهر الليل للمطالعة والتصنيف ويستضيء بقنديل الحراس وبقي على ذلك الى ان عظم شانهُ وظهر فضلهُ واشتهرت تصانيفهُ وكثرت تلاميذهُ وصار اوحد زمانهِ (كتاب عيون الانباء).

يضعف العزم كالفقر والمرض وقلق الفكر ولكن لم تكن هذه المصائب لتوهن عن عزمهِ وتصدهُ عن النجاح. وممَّن كانت احوالهم مثل احوال جسنر بطرس رامس وهو ابن رجل مسكين من بيكردي وكان عملهُ في حداثتهِ رعاية الغنم ولكنهُ لم يرضَ بها حرفةً ففر هاربًا الى باريز وبعد معاناة اتعاب جزيلة دخل المدرسة الكلية في نافار خادمًا ولكنهُ انتهز كل فرصة للدرس والمطالعة ولم يمضِ عليهِ وقت طويل حتى صار يُعدُّ اشهر رجال عصرهِ. وڤوكولين الكيماوي وهو ابن فلاَّح رُوي انهُ لما كان يتعلم في المدرسة وهو بعدُ فتًى حديث السن لم يكن لهُ من الثياب ما يستر عريتهُ لكن كانت تلوح على وجههِ امارات النباهة والحذاقة فكان يقول لهُ معلمهُ عند ما يريد مدحهُ لاجل اجتهادهِ نعمًا يا ولدي واظب على ما انت فيهِ من الاجتهاد فتلبس يومًا ما ثيابًا حسنة مثل ثياب وكيل الكنيسة. وذات يومٍ زار تلك المدرسة احد الصيادلة فاعجبهُ هذا الفتى فاخذهُ الى صيدليتهِ واستخدمهُ في سحق العقاقير ولكنهُ منعهُ من الذهاب الى المدرسة فتركهُ ڤوكولين وتوجه الى باريز ولما وصل اليها اخذ يعرض نفسهُ على الصيادلة خادمًا فلم يجد مَنْ يستخدمهُ ولكثرة ما المَّ بهِ من التعب والجوع أُصيب بمرضٍ فاخذهُ بعض اهل الشفقة الى احدى المستشفيات حيثما ظن انهُ يقضي نحبهُ ولكنَّ العناية كانت معدةً لهُ شيئًا آخر فلم يمضِ عليهِ الَّا وقت قصير حتى شُفِي من مرضهِ فرجع الى ما كان

عليهِ من التفتيش عن مكان يخدم فيهِ فوجد مكانًا عند احد الصيادلة . وبعد برهة يسيرة عرف بهِ فُركروي الكيماوي الشهير فضمهُ اليهِ وبالغ في اكرامهِ حتى جعلهُ كاتبًا لهُ ثم لما مات ذلك الفيلسوف خلفهُ ڤوكولين في تدريس الكيمياء . وسنة ١٨٢٩ انتخبتهُ مقاطعة كاڤادوس نائبًا لها في مجلس النواب

ليس في البلاد الانكليزية اناس ارتقوا من ادنى مراتب الجند الى اعلاها كما وُجِد في فرانسا بعد الثورة فمَنْ هو هش وامبر وبشكر وليسوا سوى من عامة افراد الجند . اما هش فكان يطرز الصدرات ويبتاع بما يكسبهُ كتبًا في علم الحرب . وامبر هرب من بيت ابيهِ وهو في السادسة عشرة ودخل في خدمة تاجر ثم في خدمة عاملٍ ثم في خدمة صائد ارانب ثم تطوَّع جنديًّا ولم تمضِ عليهِ سنة من الزمان حتى صار قائد كتيبة . ومَنْ هو كلابر ولفاڤر وسوشي وڤكتور ولان وسُلت وماسنا وصن سير ودرلون ومورات واوجرو وبسيَر وناي وغيرهم ممَّن نشأُوا من ادنى الرتب وارتقوا الى اسماها . ومنهم مَنْ كان ارتقاؤُهُ سريعًا ومنهم كان بطيئًا لان صن سير كان ابن دباغ فانتظم في سلك الفرسان ولم يلبث سنة حتى صار قبطانًا . وڤكتوردوك بلونو دخل في الطبجية سنة ١٧٨١ ثم رُفض من خدمتهِ في الحوادث السابقة الثورة ورجع اليها عند افتتاح الحرب وفي برهة قصيرة صار معاون ماجور ورئيس فرقة . اما مورات وهو ابن صاحب خان في بريكورد

فانتظم اولاً في سلك الفرسان ورُفض لعدم طاعتهِ ثم انتظم ثانيةً فارتقى بوقت قصير الى رتبة كورونل . وناي انتظم في سلك كتيبة من الفرسان ولهُ من العمر ثماني عشرة سنة ولما راى الجنرال كلابر اقدامهُ رقاهُ درجة بعد درجة الى ان صار في رتبة معاون جنرال وهو ابن خمس وعشرين سنة فقط . هذا من جهة الذين تقدموا بسرعة اما الذين تقدموا ببطء فمنهم سُلت الذي مضى عليهِ اكثر من ست سنوات قبلما ارتقى الى رتبة ملازم وهي الاولى فوق الجندي ومع انهُ ارتقى اخيرًا بالتوالي الى منصب كورونل وجنرال ومرشال قال ان رتبة ملازم كلفتهُ تعبًا اكثر من كل هذه الرتب . ولما صار وزير الخارجية اخذ يدرس الجغرافيا لانهُ لم يكن يعرف شيئًا من العلوم فوجد فيها لذَّة كثيرة . ولم يزل هذا الارتقاء بين رجال فرنسا الى يومنا هذا لان المرشال رندون الذي صار وزير الحرب دخل في الخدمة ولدًا يضرب بالطبل ولم تزل صورتهُ في فرساليا ويدهُ على طبلٍ وقد صُوّرت كذلك بطلبهِ . فامور مثل هذه تضرم الجنود الفرنساوية غيرةً املاً بان كل فردٍ يمكنهُ ان يصير مرشالاً ان لم نقل امبراطورًا

وهولاء الرجال ليسوا الاَّ عددًا لا يُذكَر بالنسبة الى الذين ضربنا صفحًا عن ذكرهم فليس ارتقاؤُهم من الامور النادرة التي لا يبنَى عليها حكم بل من الامور الشائعة جدًّا حتى يمكننا ان نقول ان كل من سعى في طلب المجد بهمة قوية وواظب على السعي نال

مبتغاهُ . واذا نظرنا الى كثيرين من الذين نجحوا بسعيهم رأينا ان الصعوبات والمتاعب التي صادفوها في اوّل سعيهم كانت شروطًا لازمة لنجاحهم

ان مجلس نواب العامة في بلاد الانكليز لم يخلُ من رجال كثيرين من هذا النوع رجال نشأوا من بين اصحاب الصنائع والحرف . يُروَى انهُ في احدى مباحثات هذا المجلس اخذ يوسف برذَرْتُن نائب مقاطعة سلفُرد يعدد المتاعب التي اصابتهُ وهو صانع في معمل قطن قال ومن ثمَّ صممت على انهُ اذا ساعدتني التقادير ابذل غاية جهدي في اصلاح شأن العاملين الذين كنت اعمل بينهم . فما اتمَّ كلامهُ حتى وقف السر يعقوب كرِيَهم وقال اني لم أعرف قط بان اصل مستر برذرتن وضيع بهذا المقدار ولكن الآن قد زاد افتخاري بمجلس النواب اذ رأيت فيهِ انسانًا ارتقى من رتبة وضيعة الى ان تساوى مع عظماء الارض . ويماثل ذلك قول مستر فُكس نائب أُلدهام الذي كان يردده كثيرًا وهو قولهُ لما كنتُ صانعًا عند حائك في نوروك . ولم يزل في مجلس نواب الامة اعضاء اصلهم حقير مثل هذين وربما احقر . اخبر مستر لندساي نائب سَندَرْلَند سيرة حياتهِ لمنتخبي ويموث جوابًا لاضداد لهُ في امور سياسية فقال توفي والدي ولي من العمر اربع عشرة سنة فتركتُ كلاسكو وقصدتُ ليڤربول ولكن بما اني لم اكن قادرًا على دفع اجرة السفر ارتضى ربان السفينة ان اخدمهُ

بما يقوم باجرة سفري فاستخدمني في سفينة الفحم فوصلتُ الى ليفربول واقمت فيها سبعة اسابيع قبل ان وجدتُ عملاً اعمل فيهِ وكنت انام في الخلاء ولم اكد احصّل ما يسدّ رمقي. ثم استخدمت في احدى السفن ولكنني لم ابلغ التاسعة عشرة حتى ارتقيت الى رتبة امارة مركب بجدي واستقامتي ولما بلغت الثالثة والعشرين تركت البحر ومن ثمَّ اخذتُ في التقدم السريع واوكّد لكم ان السبب الحقيقي لتقدمي اجتهادي وتعبي وجريي بموجب تلك القاعدة الذهبية التي جعلتها دستورًا لكل تصرفاتي فكنت افعل بالغير كما اريد ان يفعل بي

وممّا يقارب ذلك تقدم مستر وليم جكسن من بركنهد عضو نورث دربيشير فهذا كان ابن جرّاح في لنكستر فتوفي ابوهُ عن احد عشر ولدًا وهو سابعهم فأُخرِج من المدرسة قبل ان بلغ الثانية عشرة ووُضِع في عملٍ شاق كان مضطرًا ان يعمل فيهِ اربع عشرة ساعة كل يوم اي من قبل الظهر بست ساعات الى ثمانٍ بعدهُ . وبعد وقت قصير مرض معلمهُ فأُخرِج من عندهِ ووُضِع في بيت المحاسبات حيثما كان لهُ شيءٌ من الحرية فانكبَّ على الدرس وحينئذٍ تمكن من كتاب الانسيكلوبيذيا البريطانية فقرأ ذلك الكتاب الذي يحتوي عشرين مجلدًا ضخمًا وكان اكثر قراءتهِ فيهِ ليلاً . ثم انكبَّ على التجارة فافلح فيها ايَّ افلاح والآن لهُ سفن في كل البحار وعلاقة تجارية مع كل بلادٍ على وجه الارض

وممّا يماثل ذلك تقدم رنشرد كبدن وهو ابن فلاّح من مدهرست في سسكس ففي حداثته أُرسِل الى لندن ودخل خادمًا في بعض المخازن وكان حاذقًا فهيمًا حسن السيرة كثير المطالعة وكثيرًا ما كان ينهاهُ معلمهُ عن كثرة الدرس الّا انهُ لم يمتثل امرهُ بل واظب على ما كان عليهِ مالئًا عقلهُ بغنى المعرفة المتضمنة في الكتب فتقدم من عمل الى آخر الى ان تعاطى المسائل السياسية وخصّص لها نفسهُ وكل ما ملكهُ ويروى ان اول خطاب القاهُ لم يستحق ان يلتفت اليهِ احد ولكنهُ لم ينفك عن ممارسة الخطابة حتى صار من اشهر الخطباء واقواهم حجةً وافخمهم مقالاً وذاع صيتهُ في الآفاق الى ان استحق مديح السر روبرت بيل الشهير. قال مسيو دروين ده لِس سفير فرانسا في انكلترا ان مستر كبدن هذا خير مثال لفعل الآداب والمواظبة والاجتهاد وهو مثال من اتم امثلة الرجال الذين ارتقوا من ادنى الرتب الى اعلاها بواسطة استحقاقهم وخدمهم الشخصية ومثال من اندر الامثلة للصفات الثابتة الموروثة في الشعب الانكليزي

وخلاصة ما تقدم انهُ ما من احد احرز الفخر والشرف الّا دفع ثمنهما كدًّا وسعيًا عظيمين وما من احد قدر على نوالهما بالكسل والتواني . وما احسن ما قالهُ ابو الطيب المتنبي

على قدر اهل العزم تاتي العزائمُ

وتاتي على قدر الكرام الكرائمُ

ويد الانسان وراسهُ يصيرانهِ حكيمًا غنيًا. وان وُلِدَ في الغنى والسعة وكان من قوم لهم اسمٌ وفضل لا يحصل على شهرة ما لم يكن مستحقها لان الغنى يتصل بالإرث وليس كذلك العلم والحكمة . والغنيُّ يستأجر من يتمّ لهُ اعمالهُ لكن لا يمكنهُ ان يستأجر مَنْ يفتكر عوضًا عنهُ ولا ان يشتري العلم والتهذيب وبالحري الشهرة التي يستحقها لاجلها فلا يمكن تحصيل الشهرة الاَّ بالسعي والاجتهاد وذلك يصدق على اصحاب الثروة كما يصدق على درو وجيفورد اللذين درسا في دكان الاسكاف وعلى هيوملر الذي درس دروسهُ الانتهائية في مقلع الحجارة

وليس الغنى والراحة ضروريين للنجاح والاَّ لما كان العالم مديونًا دائمًا للذين نشأُوا من ادنى الرتب . وذلك لانهُ اذا كان الانسان غنيًا مترفهًا لا يضطر ان يقاوم الصعوبات فلا تنتبه عزيمتهُ ولا يصير من ذوي الاقدام. وان يكن الفقر مصيبةً فالاعتماد على النفس يجعلهُ بركة تنتج العزم والاقدام ومناضلة الدهر وما يتبعها من الظفر والجد . قال الفيلسوف باكُن ان الناس لا يعتبرون غناهم ولا قوتهم حق الاعتبار لانهم يعتبرون الغنى اكثر ممَّا يستحق والقوة اقل ممَّا تستحق . اما الاعتماد على النفس وانكارها فيعلمان الانسان ان يشرب ماء من جبهِ وان يشتغل ويتعب لتحصيل معيشتهِ وصرف ما يصل الى يدهِ بالحكمة

والغنى تجربة كبيرة للكسل والبَطَر امران نرى الانسان

مالاً اليها طبعًا حتى ان الذين ولدوا في نعمة وافرة اذا استهانوا بالراحة ولم يأنفوا من التعب في خدمة جيلهم كان لهم اعظم فخر . ومما يستحق الالتفات ان اغنياء بلادنا (اي البلاد الانكليزية) ليسوا من اهل البطالة والكسل . قيل ان احد القواد الاغنياء كان ماشيًا الى جانب فرقته في حرب اسبانيا فخاضت تلك الفرقة في بالوعة وخاض هو معها فالتفت واحد وقال لرفيقه انظر ها خمسة عشر الف ليرا سنويًّا تخوض في هذه البالوعة . يريد ان دخل ذلك القائد كان خمسة عشر الف ليرا سنويًّا . ومن عهد قريب شاهدَتْ احادير سفستابول المتعرجة ورمال الهند المحرقة لنكران الذات الفائق الذي اظهرهُ شرفاء بلادنا واغنياؤها . فكم من شريف وغنيّ خاطر بنفسهِ او فقدها في تلك المعامع الهائلة خدمةً للوطن

وما الاغنياء بمعزل عن اتباع العلم والفلسفة والآن فمن هو باكُن ابو الفلسفة الحديثة ووستر وبويل وكافنديش وتَلْبت ورُص . ورُص هذا يُسمَّى ميكانيكي الامراء ولو لم يولد اميرًا لحاز اسمى الرتب كمخترع . يروى انهُ كان ماهرًا في صناعة الحدادة مهارة كلية حتى استدعاهُ رجلٌ يجهل نسبهُ لان ياخذ ادارة معمل حديديّ له . ومن المعلوم ان تلسكوب هذا الامير الذي عملهُ بيدهِ من اعجب ما صُنع من نوعهِ الى يومنا هذا . غير اننا نجد ان القسم الاكبر من كبرائنا قد تعاطوا التاليف والسياسة ولا يخفى ان

النجاح في هذين ايضًا متوقفٌ على الاجتهاد والدرس والمزاولة فعلى الوزير او المشير ان يكون من اكثر الناس شغلاً وجدًّا كهومرستون ودربي وروسل ودزرائيلي وكلادستون ومن يعرف هولاء الرجال واشغالهم الكثيرة يعلم انهم لا ينفكُّون عن العمل نهارًا وليلاً . واشهر رجال السياسة بالاجتهاد السر روبرت بيل الذي كان له جَلَد على مداومة اشغاله العقلية يكاد يعد من خوارق العادة لانهُ لازم البرلمنت مدة اربعين سنة وفي غضونها عمل اعمالاً تكاد لا تُصَدَّق لكثرتها وعظمتها . قيل انه لم يشرع في امرٍ الاَّ اتمهُ . وكل خطابهِ تشهد له انه درس درسًا مدققًا في كل ما تكلم بهِ او كتب فيهِ وكان من المفرطين في التدقيق والمفرطين في فحصهم وصبرهم لاجل اتمام كل ما شرعوا فيهِ وقد فاق كل معاصريهِ في الحجة وسمو الافكار وكلما تقدم في السن ازدادت معارفهُ ولانت عريكتهُ واستمرَّ الى آخر نسمة من حياتهِ فاتحًا بابًا في عقلهِ لقبول الآراء الجديدة مع ان كثيرين عدّوهُ نفورًا من التطرف في المسائل الاَّ انهُ لم يقع في ما وقع فيهِ كثيرون من التعصب للآراء القديمة وهذا التعصب كثيرًا ما يصيب عقول الناس عند تقدمهم في السن

وممن يضرب بهم المثل في الاجتهاد اللورد بروَم الذي خدم جيلهُ اكثر من ستين سنة وتعاطى فيها الفقه والانشاء والسياسة والعلوم المتنوعة واتقن كل ما تعاطاهُ . قيل مرةً عن السر

صموئيل روملي ان يعمل عملًا ما فاعتذر من ضيق وقته ثم قال عليكم بهنا بروَم لانهُ يخلق وقتًا لكل شيء . والسرُّ في ذلك ان اللورد بروَم لم يدَع دقيقةً من وقته تمضي سدًى ولما بلغ السن الذي يتنحى فيهِ الناس عن الاعمال شرع في عملٍ شاق الى الغاية وهو البحث في نواميس النور فجاءت ابحاثهُ مكللةً بالنجاح وشهد لهُ فيها اشهر علماء باريز ولندن وكان آخذًا حينئذٍ في طبع كتابهِ الشهير في العلماء والادباء الذين نبغوا في عصرهِ وقائمًا بعبء منصبهِ في مجالس الامراء حتى قيل ان سدني سمِث اشار عليهِ مرةً ان يقتصر على اعمالٍ لا يقدر على القيام بها اقل من ثلاثة رجال الّا انهُ كان لا يستكثر اعمالهُ مهما كثرت وشقَّت ناهيك عن انهُ كان مطبوعًا على حب الشهرة والارتقاء حتى قال بعضهم انهُ لو كانت حرفتهُ صبغ الاحذية لصار اوّل صباغ احذية في الدنيا

وممن هم كذلك السر بُلْور لِتُون الذي قلَّ من ماثلهُ في تعاطي اعمال كثيرة وافلاحهِ فيها كلها لانهُ كان شاعرًا وراويًا ومؤرّخًا ومؤلفًا وخطيبًا وسياسيًّا ولم يكن يسأل عن الراحة ولا يكترث للتعب وقلَّ من جاراهُ من مؤلّفي الانكليز في كثرة التآليف اوساواهُ في سموها . وقد كان من ذوي الثروة الرابين في مهد التنعُّم ولكنهُ انكر نفسهُ وصار في طريق المؤلفين الحَرِج فكانت تآليفهُ الاولى على جانب من الركاكة فرمقها الناس بعين الازدراء ولكنَّ ذلك لم يثنِ عزمهُ فواظب على الدرس والتآليف

حتى حاز قصب السبق وصار يعد من ابرع المؤلفين

ومنهم دزرائيلي الشهير الذي رقي الى اسمى المناصب بجدهِ وكدّهِ . قيل ان هذا الرجل العظيم حبطت كل مساعيهِ الاولى لان اول كتاب الفهُ عدّهُ الناس نتيجة الجنون وكذا الكتاب الثاني فغيّر نسق تأليفهِ وألّف ثلاثة كتب اخرى نهج فيها منهج اهل السياسة فنجح . ولما دخل مجلس النواب وخطب فيهم الخطبة الاولى ضحكوا على كل جملةٍ منها هزءا بها ولكنهُ ختم خطبتهُ بهذه الجملة التي تُحسَب انباء بما وصل اليهِ وهي قولهُ "اني شرعتُ في امورٍ مختلفة مرارًا كثيرة ولم انفكّ عنها حتى نجحتُ فيها النجاح المطلوب فسيأتي وقت تسمعوني فيهِ برضًى". فقد جاء الوقت المشار اليهِ وصار كل اهل المسكونة يسمعون لقول هذا الرجل العظيم ولكنهُ لم ينَل ما نالهُ من المجد والمودد الّا بجدّهِ وحزمهِ فانهُ لما كانت تحبط مساعيهِ لم يفعل ككثيرين من الشبان الذين اذا خابوا مرةً وَهَت قواهم ووقعوا في لجة اليأس بل قرن العزم بالحزم وفتش عن عيوبهِ واصلحها ودرس اطوار سامعيهِ ومارس الخطابة طويلاً وملأ راسهُ بما يحتاجهُ من المعارف ففاز بامانيهِ وضحك لهُ مجلس النواب بعد ان ضحك عليهِ وكان حينئذٍ اعظم الخطباء ورجال السياسة بالاجماع

يظهر من الامثلة المتقدمة ان النجاح موكول الى الاجتهاد وسنورد امثلةً اخرى تؤيد ذلك ايضًا . لكن لا ينكر ان الانسان

يحتاج الى مَنْ يعضدهُ ولقد اجاد الشاعر وردزورث اذ قال
"ان افتقارنا الى الغير واستقلالنا بانفسنا وان ظهر ان بينهما
مناقضة لا بد من ان يسيرا سواء ويصطحبا". وكل واحدٍ مفتقرٌ
الى غيرهِ في التغذية والتهذيب منذ طفوليتهِ حتى شيخوختهِ وان
تنوَّع مقدار هذا الافتقار بتنوع الاشخاص وافضل الناس اقربهم
الى عرفان ما عليهم لغيرهم من الجميل والاحسان. قيل ان
مسيو الكسيس ده توكفيل الشريف الفرنساوي دُعي الى منصب
في محكمة فرساليا وهو في الحادية والعشرين فرأى انهُ غير اهل
لذلك المنصب وقد دُعي اليهِ لشرفهِ الموروث فرفضهُ عازمًا ان
يتأهَّل اليهِ بجدهِ. ثم ترك فرنسا وقصد الولايات المتحدة الاميركية
واستصحب صديقهُ كستاف ده بون. قال كستاف هذا ان توكفيل
عدوٌّ للكسل مطبوع فلا تراهُ بطَّالًا في حال من الاحوال سواء
كان مستقرًّا او مسافرًا بل يغتنم كثيرًا الاضاعة الدقيقة من وقتهِ
ويعد ايام العطلة اسوأ الايام. وكتب توكفيل لاحد اصحابهِ يقول
الانسان لا يفرغ من العمل في ساعة من ساعات حياتهِ ولا بدَّ لهُ
من الجهاد الداخلي ولا سيما في الحداثة كما لا بدَّ لهُ من الجهاد
الخارجي. وما الانسان في هذه الدنيا سوى مسافر في بلاد يزداد
بردها كما تقدم في سفرهِ فعليهِ ان يزداد حركةً وسرعةً كلما
تقدَّم والَّا فاجأتهُ منيتهُ في هيئة البرد واشد امراض النفس مرض
البرد الّا ان قوانا العقلية والجسدية لا تكفينا لمناضلة هذا العدوّ

الالد فعلينا ان نستعين بغيرنا

وقد جزم توكفهل بوجوب الاعتماد على النفس الاّ انهُ لم يحط بقيمة المساعدة التي ينالها كل انسان من غيرهِ ولو تنوّعت مقاديرها فانهُ كثيرًا ما اقرّ بجميل ده كرگورلي لاجل مساعدتهِ اياهُ في الامور الادبية فقد كتب الى كرگورلي يقول اني مديون لكثيرين بامور كثيرة فرعية ولكنني لستُ مديونًا لاحدٍ كما انا مديون لك بالمبادئِ الاولية التي هي قاعدة السلوك . واقرّ ايضًا بجميل امرأتهِ التي ساعدتهُ في خلقهِ وعقلهِ على مواظبة دروسهِ . وكان يعتقد ان المرأة الفاضلة تشرّف اخلاق زوجها والسليطة تدنّسها

والخلاصة ان الفواعل التي تفعل باخلاق البشر كثيرة منها العلم والعمل . والقول والقدوة . والاصحاب والجيران . والدنيا وسكانها من حاضرين وغابرين . لكن هذه الفواعل مهما كان لها من التأثير الشديد يبقى سعي الناس واعتمادهم على انفسهم اقدر على رفع شأنهم من كل الفواعل الخارجية

الفصل الثاني

في ارباب الاجتهاد وهم المخترعون والمستنبطون

قال ده سلفندي . العلم والعمل يسودان العالم من الآن فصاعدًا
وقال ارثر هلبس . الخ من بلاد الانكليز كل ما صنعهُ لها المخترعون الذين نبغوا من بين السوقة وانظر كيف تبقى

الاجتهاد اشهر صفة من صفات الانكليز وقد اشتهروا بهِ في الماضي كما هم مشهورون بهِ الآن فقد قامت عظمة مملكتهم باجتهاد عامتهم ونمت امتهم باجتهاد آحادهم سواءٌ كانوا من حارثي الارض او صانعي الامتعة او عاملي الآلات او مؤلفي الكتب . ولم يقتصر اجتهادهم على ترقيتهم بل قد انقذهم من شر ما وقع في سياستهم وشرائعهم من الخلل حينًا بعد حينٍ وهذَّب اخلاقهم ونظم احوال

ممالكتهم . والاجتهاد في العمل يرافق اتمام الواجبات وقد قرنتها العناية بالنجاح والسعادة . قال شاعر الاعاجم ان الآلهة جعلت العمل في طريق الفردوس . هذا ولا خلاف في ان الانسان لا ياكل خبزًا الذ من خبز عملهِ عقليًا كان اوجسديًا . والعمل اساس كل تقدم لان بهِ غُلِبَت مصاعب الطبيعة وارتقى الانسان من وهاد الجهل والخشونة الى ذرى التمدن والعمران . والعمل من الواجبات والضروريات وهو مكتوبٌ على كل جارحةٍ من جوارح الجسد وكل لفافة من لفائف الدماغ وهو ايضًا بركة من البركات ولا يحسبهُ مشقة الا كل بليد خامل الذكر كسلان كافر بالنعم . والحكمة العمليَّة افضل انواع الحكمة تدرَّس في مدرسة العمل . والعمل ليس حطة في شان الانسان ولو كان من اذكى الناس عقلاً واوسعهم علمًا . قال هيوملر الذي لا يضاهيهِ احد في معرفة العمل وما يكسِبهُ من القوة والضعف ان العمل حتى انعبهُ مفعم باللذة واصلاح شان العامل الادبي والمادي وهو احذق معلم ومدرستهُ افضل مدرسة بعد مدرسة الديانة لاننا نتعلم فيها ان نكون مفيدين ومستقلين ومجتهدين . وكان هذا الفاضل يذهب الى ان الصناعة تهذب اهلها وتجعلهم رجالاً اكثر من غيرها من اسباب المعايش (١)

ويظهر مما ذكرناهُ من امر الرجال الذين نبغوا من بين اهل

(١) اسباب المعايش امارة وتجارة وصناعة وزراعة

الاعمال ثم امتازوا في العلم او التجارة او الادب او الصناعات ان الاجتهاد يغلب الصعوبات مهما كانت وان ارتفاع الاخطار باقتحام الاخطار. واما الاختراعات والاكتشافات التي ما من احد يرتاب في انها قد افاضت على الامة ينابيع الثروة والعزة فالامر واضح ولا يقبل المراء ان البلاد مدبونة فيها كلها لرجال من الدرجة الدنيا واذا حذفنا منها مافعله هولاء الرجال لا يبقى فيها شيء يذكر لانهم اوجدوا صنائع من اوسع صنائع الدنيا ونحن مديونون لهم لاجل كثير من اهم لوازم الحياة والراحة فهم قد راجت الاعمال وزادت راحة البشر ورفاهتهم . وطعامنا وكسوتنا واثاث بيوتنا وزجاج شبابيكنا والغاز الذي ننير به شوارعنا والبواخر التي نسافر فيها برًّا وبحرًا وكل الآلات والادوات التي جنى العالم اثمارها ولا يزال ولن يزال هي نتيجة اتعاب اولئك المخترعين الافاضل

ومن الاختراعات التي نذكرها اولاً الآلة البخارية فنقول قد اخترعت هذه الآلة في عصرنا الحاضر الآن مبداها وُجِد منذ مئات من السنين وقد خرجت الى حيّز الوجود درجة بعد اخرى كغيرها من الاختراعات فكان الواحد يتعب في هذا الاختراع الخطير زمانًا طويلاً ولا يحصل على النتيجة المطلوبة ثم يمضي ويترك عملهُ لآخر فياتي ويحسّنهُ ويزيد عليهِ ما امكنهُ ودام الامر على مثل ذلك قرونًا عديدة وعليهِ ترى ان الامر الذي خطر على بال

هيرو الاسكندري الذي نشأ قبل المسيح باكثر من مئة وثلاثين سنة كان كحبوب الحنطة في ايدي الاجساد المصرية المحنطة التي نمت عند ما زُرِعت مع انهُ مضى عليها مدفونة اكثر من الفي سنة هكذا هذا الاختراع العظيم الذي مرَّ عليهِ اكثر من الفي سنة متروكًا في زوايا النسيان والاهمال عاد فنما بنور علوم الاجيال المتأخرة. وقد حالت دون اخراجهِ من حيِّز القوة الى حيِّز الفعل صعوبات تفوق الوصف ولكن رجال الاجتهاد قووا عليها ودكوها الى الحضيض بما بذلوهُ من الصبر والمزاولة . وكاني بهذه الآلة سلطانة الآلات واقفة كملك خطير محفوف برجالهِ العظام الذين بذلوا حياتهم في تشييد اركان ملكهِ وان تسأل عن اسمائهم فهم سافري المهندس ونيوكمن الحداد وكولي الزجاج وبُتّر الصانع وسميتون المهندس وفي صدر كل هولاء رجل الصبر والكد الذي لم يَمل من عملهِ قط النجار جمس وط .

هذا هو جمس وط اشد الناس اجتهادًا هذا هو الرجل الذي اثبتت سيرتهُ ما طالما اثبتهُ الاختبار من ان الامور العظيمة لا يفعلها ذوو القوة والاقتدار الطبيعيين بل مَنْ يستعمل قواهُ باجتهاد وبحذاقةٍ اكتسب بالكد والمزاولة والانصباب والاختبار لان كثيرين كانوا في عصرهِ اعلم منهُ لكن لم يجتهد احد في تحويل كل معرفتهِ وقواهُ لغايات مفيدة مثلهُ . لانهُ كان يجتهد ويواظب على اتباع النتائج اكثر من كل شيء ومرَّن قوة الانتباه التي فيهِ

الموقوف عليها فعل كل قوى العقل الفاعلة في اتمام الاعمال . ولقد اجاد مستراد جورث اذ قال ان الفرق بين عقول البشر يتوقف على اختلاف قوة الانتباه اكثر مما يتوقف على اختلاف بقية قوى العقل

ورضع وط العلوم مع اللبن لان اباهُ كان يصنع آلات فلسفية وفلكية وكان في دكانهِ عدد من الارباع [(١)] فانتبه وط بها الى درس البصريات والهيئة . وكان جسمهُ نحيفًا فاقتادهُ ذلك الى درس الفزيولوجيا . وكان يحب الجولان في البراري فاقتادهُ ذلك الى درس النبات والتاريخ . وطُلِب منهُ مرةً ان يصنع ارغنًا لانهُ احترف حرفة ابيهِ عمل الآلات الرياضية ولم يكن يعرف علم الايقاع فدرسهُ برغبة ونشاط وصنع الارغن المطلوب فجاء بديع الانقان . وطُلِب منهُ ذات يوم ان يصلح مثالاً من آلة نيوكمن البخارية لمدرسة كلاسكو الكلية فانكبَّ على درس كل ما كان يُعرَف حينئذٍ من نواميس الحرارة والبخار واصطناع الآلات الميكانيكية وظهرت نتيجة دروسهِ في الآلة البخارية التي اصطنعها

اما اصطناعهُ الآلة البخارية فصرف فيهِ عشر سنين وهو بين مكتشف ومخترع ولا نتيجة تسرهُ ولا صاحب ينشطهُ وكان في الوقت نفسهِ يحصّل ما يقوم باودهِ واود اهلهِ من اصطناع

(١) جمع ربع وهو آلة بصرية فلكية .

الارباع والاعواد وغيرها من آلات الطرب وتعاطى ايضًا فن مساحة الاراضي وتخطيط الطرق وادارة حفر الترع وكل ما يعود عليهِ بالربح . ثم وجد معينًا لهُ رجلًا حاذقًا نشيطًا محبًا للاختراع يُسمَّى متهى بُلْتُن . فاخذ هذا الرجل على نفسهِ امر استخدام آلة وط المكثّفه لتحريك الآلات المختلفة [١] . ثم تداولت هذه الآلة ايدي المخترعين فزادوا منها واصلحوا كثيرًا الى ان جعلوها مناسبة لكل الاعمال تقريبًا . وهي الآن تدبر الآلات وتسير السفن وتطحن الحبوب وتطبع الكتب وتسكّ الدراهم وتطرّق الحديد وترفع الاثقال وتنسج الاقمشة وتحرث الاراضي وبالاختصار تفعل كل امرٍ يحتاج فيهِ الى قوة . ومن افضل التحسينات في هذه الآلة جعلها مناسبة لتسيار المركبات البرية الامر الذي شرع فيهِ ترفيثك وتممهُ جورج ستفنصن وابنهُ ويمكننا ان نحسب هذه الآلة اختراعًا جديدًا بل قد تُفَضَّل على آلة وط في ما فعلتهُ في زيادة العمران

ومن اعظم نتائج اختراع وط انشاءُ معامل القطن ومنشئها بلا خلاف هو السر رتشرد اركريت الذي يُعتبر لاجل حذاقتهِ ونشاطهِ اكثر مما يُعتبر لاجل اختراعاتهِ غير ان من الناس مَنْ لا يقر لهُ بشرف الاختراع كما ان منهم من لا يقر لوط . ولعل

---

(١) من اراد الوقوف على تاريخ حياة هذين الفاضلين واختراعهما بالتفصيل فعليهِ بكتاب آخر للعلامة صميلس مؤلف هذا الكتاب

نسبة اركريت الى آلة الغزل نسبة وط الى آلة البخار ونسبة ستفنصن الى سكة الحديد لانهُ جمع شتيت خيوط متفرقة ونسج منها هذا الاختراع العظيم . قيل ان رجلاً يسمى لويس بول اخذ اجازة الحصر على آلة للغزل تغزل بواسطة بكرات قبل اركريت بثلاثين سنة ولكن آلتهُ كانت ناقصة من اوجهٍ كثيرة فأُهمِل امرها . وقيل ان رجلاً آخر اسمهُ توما هايس اخترع نول الماء وآلة الغزل والظاهر ان اختراعهُ لم ينجح ايضاً . على اننا نرى انهُ ما من اختراع الأَّ خطر على بال كثيرين حينما مسَّت الحاجة اليهِ وكلٌّ منهم خطا فيهِ خطوة او اكثر كما هو الحال في الآلة البخارية وقنديل الامانة والتلغراف الكهربائي وغيرها من الاختراعات ودام الامر على مثل ذلك الى ان قام رجل فاق اقرانهُ في العقل والاقدام فخطا الى ما امامهم واستخلص كل ما ارتأَوهُ واضافهُ الى ما ارتآهُ بنفسهِ فخرج منهُ الاختراع التام وحينئذٍ علا ضجيج اولئك المقصرين في ميدان هذا الاختراع وصوَّبوا سهام ملامهم تجاه المخترع العظيم فاضطر ان يدافع عن اسمهِ وحقهِ

هذا ولنرجع الى كلامنا عن رتشرد اركريت فنقول وُلد هذا الرجل في برستون سنة ١٧٣٢ للميلاد من ابوين في غاية الفقر والمسكنة . وكان صغير اخوتهِ واخواتهِ الذين كانوا ثلاثة عشر ولم يدخل مدرسة قط وبقي حتى وفاتهِ ضعيفاً في الكتابة . اما صناعتهُ فكانت الحلاقة ولما تعلمها فتح دكاناً في بلتن تحت

الارض وكتب فوق بابهِ هلموا الى الحلاق الارضي فانهُ ياخذ على الراس عشرين بارة فاضطرَّ غيرهُ من الحلاَّقين ان يقللوا اجرة الحلاقة مجاراةً لهُ فاعلن انهُ يحلق حلاقة جيدة بعشر بارات وبعد بضع سنين ترك هذه الصناعة واخذ يجول في البلاد يبيع الشعر لانهُ شاع حينئذٍ لبس الشعور العارية . وكان يتعاطى ايضاً استحضار خضابات كيماوية للشعر . ومع كل اقدامهِ واجتهادهِ لم يكن يكسب اكثر مما يكفي للقيام باودهِ

ونحو ذلك الوقت تغير زي الشعور العارية فاضطر الى ان يترك تجارتها ويأخذ في عملٍ آخر وهو اصطناع الآلات او كما كان يقال اختراع الاختراعات . وفي غضون ذلك كانت قد جُرِبَت التجارب الكثيرة لاختراع آلة للغزل فعزم ان يزج نفسهُ بين اولئك المجربين فانزل قاربهُ الى بحر الاختراعات عازماً ان لا يرجع الاَّ منصوراً . وكان قُبَيل ذلك قد صرف قسماً كبيراً من وقتهِ في اصطناع آلة تتحرك حركة دائمة كما هو شان اكثر محبي الحرف فاعدَّ عقلهُ لاختراعٍ اهمَّ واثبت وهو اختراع آلة الغزل ولما اخذ فيهِ انكبَّ عليهِ برغبةٍ لاتحد الى ان نفد ما جمعهُ من المال اليسير واتصل الى حالة الفاقة الشديدة . فلما رأَت زوجتهُ ذلك فرغ ما عندها من الصبر فاختطفت جميع آلاتهِ ورسومهِ واطعمتها النيران املاً بان تصرفهُ عنها الى اتباع حرفة تقوم باحتياجات اهل بيتهِ . فاستشاط منها غيظاً واخذ

منهُ الغضب كل مأخذ حتى انهُ هجرها حالاً

وكان قد تعرَّف بصانع ساعات يسمّى كاي ساعدهُ في اصطناع الآلة التي قدَّر لها الحركة المستمرة فظن بعضهم ان كاي هذا اخبرهُ بمبدإِ الغزل بالبكرات وقيل بل انهُ خطر بباله مبدأ آلة الغزل عند رؤيته قطعة حديد مُحماة قد استطالت بمرورها بين بكرتين من حديد . وكيفما كان اتصالهُ الى مبدإِ آلة الغزل فمن المعلوم انهُ تفرغ لها بكليته ولم ينفك عنها حتى جاء بالنتيجة التي ليس لكاي من فضل عليه بها سوى عمله لهُ المثال حسب ارشاده . الاَّ انهُ صادف مصاعب كثيرة في اشهار آلته هذه لان من عادة الصناع ان يقاوموا كل آلة جديدة خوفاً من ان تكسد بضاعتهم بها فاضطرَّ الى مباينة وطنه والتجأ الى نوتنهام التي كانت آمن قليلاً . وكان قد وصل الى حالةٍ يرثى لها من الفقر والمسكنة حتى التزم البعض ان يتصدقوا عليه بيسير من الدراهم لابتياع ما يحتاج اليه من الاكسية فطلب الامداد من بيت رَيط فمدوهُ بمبلغ من المال مشترطين عليه ان يقاسمهم الربح . لكن لم يمكنهُ اتقان آلته بسرعة كما انتظروا فاوعزوا اليه ان يلتجئ الى بيت استْرَت ونيد واسترت هذا مخترع حاذق وهو الذي اخترع آلة لعمل الجوارب فحالما رأى آلة اركريت عرف قيمتها فاشتركا معاً وساعداهُ على اتقانها واخرجا لهُ اجازة حصر سنة ١٧٦٩ (وفي تلك السنة خرجت اجازة الحصر الشرعية لوط بآلته البخارية

تحت اسمهِ) . والآلة الاولى التي انشأها اركريت كانت تديرها الخيل ثم انشأ اخرى اكبر منها يديرها الماء . وبقي على اركريت ان يحسّن هذه الآلة لانها لم تزل تحتاج الى اصلاحات وتحسينات كثيرة وكانت نفقتها لم تزل اكثر من ربحها فلم ينفك عن اصلاحها وتحسينها حتى جاءت آلةً كاملة متقنة جزيلة النفع لكن عند ما اتقنت وحان لهُ ان يجتني ثمار اتعابهِ بغزارة قام الصناع عليهِ وهجموا على محل الآلة ودكّوهُ الى الارض بحضور جنود الدولة واتصل الامر حتى لم تعد مصنوعاتهُ تباع في السوق مع انها كانت احسن من غيرها وارخص ثم تعصبوا ضدهُ وابوا ان يعطوهُ المال المعين على من يستعمل آلتهُ بل قاموا ضدّهُ في المحكمة والغوا اجازة الحصر التي نالها . قيل مرّ مرةً بخصومهِ الذين غلبوهُ فقال واحد منهم على سمع منهُ لقد غلبنا هذا الحلّاق فاجابهم على الفور لا باس لم يزل معي موسى لاحلقكم . ثم عاد فاقام معامل اخرى في لانكشير ودربيشير ونيولانارك من اسكُتلندا ورجعت الى يدهِ معامل كرمفرد عند انتهاء مدّة شراكتهِ مع استرت . وازدادت مصنوعاتهُ ووصلت الى درجة عليا من الاتقان فصارت لهُ سلطة مطلقة على هذا النوع من البضاعة وصار يحدُّ الثمن كما يشاء . وكان هذا الرجل من اثبت الناس عزيمةً واكثرهم اقدامًا واقواهم جلدًا وكان لهُ مع ما ذُكر حذاقة ومهارة قلّ من ضاهاهُ فيها . وقد تراكمت عليهِ اعمال كثيرة

صعبة حتى لم يكن له فرصة للاكل فكان يشتغل من الساعة الرابعة صباحًا الى الساعة التاسعة مساء اي من قبل الظهر بتسع ساعات الى تسع بعده. ولما صار له خمسون سنة من العمر شرع في درس النحو وتصليح الخط والتهجئة وبعد ان غلب كل المصاعب التي قامت في طريقه اخذ في اجتناء ثمار اتعابه ولم يمض عليه اكثر من ثماني عشرة سنة منذ اقام آلته الاولى حتى ارتقى الى درجة سامية جدًّا من المجد والاعتبار في عيون اهل بلاده فانتخب مدبرًا على مقاطعة دربيشير وبعد هنيهة انعم عليه الملك جورج الثالث بلقب البَيْت. وكانت وفاته في السنة ١٧٩٢. ومهما كانت مقاصد هذا الشهم لا يُشك في انه اقام في البلاد الانكليزية صناعة اكسبتها غنًى وافرًا

واذا التفتنا الى بقية انواع الصنائع في البلاد الانكليزية التي هي مصدر غنى الامة وتقدمها في سلك الممالك المتمدنة رأينا انها ابتدأت عن يد اناس من رجال العمل ويمكننا ان نحسب بين هولاء الرجال اهل بيت استرت وتننتس ومرشل وكوت وبيل واشورث وبرلي وفيلدن واشتون وهيود وانسورث الذين قام من خلفائهم رجال كثيرون اشتهروا في الاعمال السياسية مثل بيت بيل. وهذا البيت الشهير اي بيت بيل نشأ نحو اواخر القرن الماضي ومؤسسهُ فلاّح من مكان بقرب بلكبرن اسمهُ روبرت بيل. كانت بلكبرن والضياع المجاورة لها مشهورة

بنسج الاقمشة وكان من عادة الفلاحين ان يستعملوا الحياكة في اوقات الفراغ من عمل الحقول لان الاراضي لم تكن خصبة لتاتي بما يكفيهم ففتح روبرت بيل نولاً في بيتهِ وكان امينًا فنجح في عملهِ وهو اول من استعمل اسطوانة الندف المخترعة حديثًا . ولكن افكارهُ كانت متجهة الى كيفية طبع الاقمشة لان هذه الصناعة لم تكن شائعة حينئذٍ فامتحن في ذلك عدة امتحانات في بيتهِ آملاً اختراع آلة للطبع . وكانت الاطعمة تسكب في تلك الايام في صحاف من معدن فرسم ذات يوم صورة على صحفة من هذه الصحاف وخطر على بالهِ ان يطبع بها القماش . وكان يسكن بالقرب من بيتهِ امرأة عندها آلة لصقل الاقمشة فقام اليها ووضع الصحفة في الآلة ووضع فوقها قطعة شيت ثم ضغطها بالآلة فانطبعت الصورة على الشيت . ومن وقتهِ جعل يجرّب ويمتحن الى ان صنع آلة متقنة لطبع الاقمشة واول قطعة طبعها بها طبع عليها صورة ورقة بقدونس وهو بالانكليزية برسلي فلقب بارسلي بيل الى هذا اليوم (اما آلة الطبع المسماة آلة البغل فصنعها احد اولادهِ رئيس معمل بيت بيل وشركائهِ) وعند ذلك ترك الفلاحة وانتقل الى برُكسهيد قرية تبعد نحو ميلين عن بلكبرن واخذ يعمل في طبع الاقمشة هو واولادهُ الذين لم يكونوا اقل منهُ نشاطًا ودام على ذلك عدة سنوات ولما بلغ اولادهُ اشدهم انشأ كلٌّ منهم معملاً خاصًا بهِ واستخدم عددًا غفيرًا من الفعلة . ويبين من امر

روبرت بيل انهُ كان فطنًا نبيهًا ناظرًا في العواقب. قال ابنهُ السر روبرت بيل ان ابي هو موسّس عائلتنا وكان يعرف اهمية التجارة لصالح الامة وكثيرًا ما كان يقول ان الارباح التي يربحها الافراد من التجارة لا تُعَد شيئًا بالنسبة الى ارباح الامة اجمالاً

اما السر روبرت بيل بن روبرت بيل الاول فورث عن ابيهِ الاقدام والاجتهاد ولما استقل بنفسهِ لم يكن لهُ مال ولا ثروة لان اباهُ لم يكن قد اثرى فاشترك مع خالهِ جمس هورث ورجل آخر يُسمَّى وليم يتس من بلكبرن وكان راس مالهم خمس مئة ليرا واكثرها من وليم يتس ولم يكن روبرت قد ناهز العشرين ولكنهُ قدر مع صغرهِ على القيام بهذا العمل العظيم. ومما قيل فيهِ ان لهُ راس شيخ وبدن شاب. فاشترى هولاء الثلاثة مطحنة منهدمة مع اراضٍ مجاورة لها قرب بلدة بري وصنعوها معملاً وذلك سنة ١٧٧٠ ثم اضافوا اليهِ معمل غزل. ومما ياتي يظهر شكل معيشتهم حينئذٍ. كان وليم يتس متزوجًا ففتح بيتًا وضمَّ روبرت بيل اليهِ لانهُ كان عزبًا فكان يدفع لهُ عن اكلهِ وسكناهُ ثمانية اشلان (جمع شلن قطعة من مسكوكات الانكليز تساوي نحو ستة غروش) كل اسبوع ولكنَّ وليم يتس وجد هذا المبلغ قليلاً وطلب ان يزاد عليهِ شلنٌ كل اسبوع فلم يقبل بيل بذلك ووقع بينهما الخلاف فآل الامر الى الانفصال ولكنهما اتفقا بعد مدةٍ على ان يدفع بيل نصف شلن فوق الثمانية الاشلان. وكان ليتس ابنة صغيرة

اسمها أَلِن فعلق بها قلب بيل وكان حينما يرجع من عمله مساءً يجلسها على ركبتيهِ ويقول لها ألا تاخذيني يا الن فتقول بلى . فيقول لها اذًا ساستنظركِ الى ان تكبري ولا آخذ غيركِ وهكذا صار لانهُ انتظرها عشر سنوات اي الى ان بلغت الثامنة عشرة فاتخذها لهُ زوجة وكانت من اكبر مساعديهِ لانها استمرت عدة سنوات بعد زواجها تكتب مكاتيبهُ وتصنع حساباتهِ لانهُ لم يكن ماهرًا في الكتابة وتوفيت سنة ١٨٠٢ بعد ان قُلِّد زوجها رتبة البارونية بثلاث سنين . قيل ان المعيشة في لندن اضرّت بصحتها لانها مخالفة لما اعتادت عليهِ في بيت ابيها فجعل ابوها يقول لو لم يجعل روبرت ابنتنا الن سيدة (لاديًا) ما ماتت باكرًا

واستمرّ عمل يتس وبيل وشركائهما مدة طويلة سائرًا في سبيل النجاح وكان بيل روح ذلك العمل باجتهادهِ وانصبابهِ وحكمتهِ ومهارتهِ في البيع والشراء وقدرتهِ على مواظبة اعمالهِ الى حدٍ يفوق التصديق . والخلاصة ان نسبة هذا الرجل الى طبع الاقمشة نسبة اركريت الى غزل القطن . ومما يستحق الالتفات ان بيلاً وشركاءهُ لم يقتصروا على تحسين مصنوعاتهم وجعلها من الطراز الاول بل اجتهدوا ايضًا في ترقية شان فعلتهم فزادهم ذلك شهرةً وشرفًا

ومن صفات السر روبرت بيل المعتبرة التفاته الى كل

اختراع جديد فعند ما اختُرِعَت مادةٌ تطلى بها الاقمشة حيثما
يراد ابقاؤها بيضاء اشتراها من مخترعها بمبلغ كبير من المال
واخذ في امتحانها مدة سنة او سنتين الى ان بلغت غاية الاتقان
فجعلت معاملهُ في راس كل معامل طبع الاقمشة

ومن جملة موسسي الصنائع المشهورين القس وليم لي مخترع
آلة عمل الجوارب . ويوحنا هثكوت مخترع آلة عمل الخرج .
اما الاخبار التي وصلت الينا عن اختراع آلة الجوارب ففيها
بعض الريب والتناقض ولكنها تتفق في اسم المخترع وليم لي
الذي وُلِد في ودبرو قرية تبعد سبعة اميال عن نوتنهام
نحو سنة ١٥٦٣ وفي انهُ كان فقيرًا ودخل خادمًا وتلميذًا معًا
في مدرسة كمبردج في شهر ايار من شهور سنة ١٥٧٩ ثم انتقل
الى مدرسة مار يوحنا ونال رتبة بكلوريوس في العلوم سنة ١٥٨٣
ورتبة معلم في العلوم سنة ١٥٨٦ . وحينما اخترع لي آلة عمل
الجوارب كان قسيسًا لقرية كلفرتون بقرب نوتنهام . قيل انهُ
شغف حينئذٍ بحب فتاة وكان حينما يزورها لا تلتفت اليهِ كثيرًا بل
تبقى محدقة في عملها وهو عمل الجوارب فاستاء من عمل الجوارب
باليد وعزم من يومهِ على اختراع آلة لعمل الجوارب فيبطل عملها
باليد واخذ يجرب ويمتحن مدة ثلاث سنوات الى ان نجح فترك
القسوسية واخذ يتعاطى عمل الجوارب بالآلة التي اخترعها .
ومَنْ رأَى هذه الآلة وسهولة العمل بها عرف ما لمخترعها من

الفضل ولا سيما اذا قابلها بعمل النساء البطيء الممل . ومَنْ تراهُ يستطيع تعداد المصاعب التي صادفها هذا الرجل ولا سيما لانهُ كان في عصرٍ معرفة الصنائع فيهِ في درجة دنيا فاضطران يصنع كل اجزائها البديعة بيدهِ بل ان يصنعها كلها تقريباً من الخشب امرٌ يكاد يفوق التصديق . وبعد تعب ثلاث سنوات كما قلنا سابقاً صارت هذه الآلة صالحة للعمل فاستعملها في قرية كلفرتون عدة سنوات متوالية وعلَّم اخاهُ وكثيرين من اقربائهِ استعمالها . واذ كان يرغب في احراز حماية الملكة اليصابات المالكة حينئذٍ المشهورة لاجل غرامها بعمل جوارب الحرير اتى لندن لكي يريها اياها فاراها للبعض من رجال البلاط وفي جملتهم اللورد هنسدن فلم يكتفِ هذا اللورد برؤيتها بل تعلم العمل بها ثم استأذن له بالمثول في حضرة الملكة فاراها الآلة وعمل بها امامها فلم تلتفت اليهِ الالتفات الذي انتظرهُ بل اعترضت عليهِ على ما قيل مدعيةً ان آلتهُ تبطل عمل كثيرات من اللواتي معيشتهنَّ من عمل الجوارب فلما رأى لي منها ذلك اوجس منها خيفةً وعزم على مباينة بلادهِ وكان سُلّي الحكيم وزير هنري الرابع ملك فرنسا قد طلب منهُ ان ياتي الى روان ويعلم اهلها كيفية عمل هذه الآلة والعمل بها وكانت روان حينئذٍ من اكثر مدن فرنسا معامل فقبل دعوتهُ ورحل الى فرنسا سنة ١٦٠٥ واستصحب معهُ اخاهُ يعقوب وسبعة فعلة فقوبل

في روان بالترحاب واخذ يعمل هناك بنجاح عظيم . ولكن السعد ابى الّا الابتعاد عنهُ لان هنري الرابع الذي توقع منهُ لي ان يسبغ عليهِ النعم الوافرة حسبما وعدهُ قُتِل غيلةً فخاف من ضياع حقوقهِ واتى باريز قاصدًا اثباتها في المحكمة فلم يعبأْ بهِ احد لانهُ بروتستانتي واجنبي فقضى نحبهُ في باريز وهو في غاية المسكنة وهرب اخوهُ مع سبعة من الفعلة بالآلاتهم الى بلاد الانكليز واشترك مع رجل اسمهُ اشتون وانشأا معملًا في ثوروتن وجريا فيهِ بنجاح عظيم واشتون هذا زاد على الآلة الرصاصات التي تخفض ابرها . ولم تلبث هذه الآلة ان شاع استعمالها وكثر العاملون بها حتى صارت صناعة عمل الجوارب فرعًا مهمًّا من صنائع الانكليز

ومن اهم تنوعات هذه الآلة الآلة التي ينسج بها النسيج المعروف بالخرج او التنتنه وصانعها فرست وهلمس فانهما حوّلا آلة عمل الجوارب الى عمل الخرج وشاعت هذه الآلة كثيرًا حتى استعمل منها اكثر من الف وخمس مئة آلة في اقل من ثلاثين سنة وكان عدد الصناع العاملين بها يزيد على خمسة عشر الف ثم اهملت بسبب الحروب المتواصلة وتغير الازياء وغير ذلك وما زالت في زوايا النسيان الى ان قام جون هيثكوت واخترع آلة جديدة ومن ثمَّ تثبت هذا النوع من الصناعة على اساس وطيد وهاك تاريخ اختراعهِ بالاختصار

ولد جون هِثكوت في دفيلد من دربيشير سنة ١٧٨٣

وكانت تلوح عليهِ علامات النجابة وهو صغير يتعلم مبادئ العلم لكن لم يسمح لهُ والداهُ ان يقيم في المدرسة مدة طويلة بل وضعاهُ عند صانع انوالٍ ليتعلم حرفتهُ فلم يمضِ عليهِ وقت طويل حتى صار حاذقًا في استعمال الآلات والادوات المختلفة وعرف كل الاجزاء المركبة منها آلة الجوارب واخذ يحاول اصلاحها كلما سنحت لهُ الفرصة . ويبين مما قالهُ فيهِ مستر بارلي احد اعضاء البرلمنت انهُ عزم وهو بعد في السادسة عشرة على عمل آلة تصنع خرجًا مثل خرج بكنهام وفرنسا الذي كان يصنع باليد فاصلح نول السدى حتى صار يمكنهُ ان يعمل بهِ كفوفًا ومن ثمَّ وطَّن نفسهُ على اصطناع آلة لعمل الخرج . وكانت آلة الجوارب قد اصلحت حتى صار يمكن ان يصنع بها خرج هدبي عراهُ معكوفة كعرى الجوارب لكنهُ كان سريع العطب كثير الافلات وبالتالي غير مرضيّ فاجتهد كثيرون من صناع نوتنهام في اختراع آلة تثني العرى كما في عمل الشبكة فذهب تعبهم سدًى ومنهم مَنْ صرف كل امواله ومات فقيرًا او جُنَّ وهام على وجههِ

ولما ناهز هثكوت الحادية والعشرين مضى الى نوتنهام وكان يعمل فيها الانوال فاعتُبر كثيرًا لاجل مهارتهِ ونباهتهِ وتعقلهِ ولم يزل عاقدًا قلبهُ على عمل آلة تثني العُرى فتعلم عمل خرج بكنهام الذي كان يصنع على المخدة قاصدًا ان يصنع آلة تعمل مثلهُ وكان هذا العمل صعبًا مملًّا يقتضي مواظبة كلية وحذاقة عظيمة الَّا انهُ

صبر وتأنّى فنال ما تمنّى . وقد وصفهُ معلمهُ بقولهِ انهُ رجل صبور مواظب منكر نفسهُ كثير الصمت لا يضعف من الفشل ولا من الغلط قوي الامل يثق كل الثقة ان اتعابهُ ستكلل بالنجاح وقد تكللت وصنع آلة لعمل الخرج بعجز القلم وصفها واخذ لها اجازة الحصر وهو في الرابعة والعشرين

ولم تكن امرأتهُ اقل اهتمامًا منهُ في اتمام هذه الآلة فقالت لهُ ذات ليلة بعد ان تعب فيها اشهرًا واعوامًا هل صارت تعمل فقال لا ويجب ان افككها واركبها ثانيةً فلم تقدر ان تضبط نفسها عن البكاء ولكنهُ اتاها بعد اسابيع قلائل وبيدهِ قطعة من الخرج صنعها بها . وقد اصاب هذا الرجل ما اصاب اكثر المخترعين اي لم يعترف لهُ في اوّل الامر بانهُ المخترع الاول ولم يُعطَ اجازة الحصر الّا بعد المحاكمة الشرعية وصدور الحكم لهُ . قيل ان السر جون كُبلي الذي حامى عنهُ رأى انهُ يلزمهُ ان يعرف كيفية تركيب هذه الآلة والعمل بها لكي يمكنهُ ان يناضل عنهُ بقوة فركب الى نوتنهام حيثما كانت الآلة ونزل في النول ولم يخرج حتى عرف وظيفة كل جزء من اجزائها وتعلم العمل بها ثم رجع الى المحكمة ووضع مثال الآلة امام ارباب المجلس واخذ يعمل بهِ ويشرح تراكيبهُ وافعالهُ بحذاقة ومهارة حيرت عقل القاضي وعقول ارباب المجلس وكل الحاضرين فخرج الحكم لهُ

قلنا ان هثكوت نال اجازة الحصر ولكنهُ فحص فرأى ان

اكثر من ست مئة آلة قد صُنِعَت بحسب آلتهِ ففوضت اليهِ الدولة ان ياخذ من اربابها ضريبة مالية فحصل لهُ من ذلك ربح وافر وكانت مكاسب العاملين بها وافرة جدًّا فامتد استعمالها بسرعة كلية وانحط ثمن الخرج من خمس ليرات للذراع المربعة الى غرشين ونصف وذلك في اقل من خمس وعشرين سنة . وكان معدَّل دخل الخرج السنوي في هذه المدة اربعة ملايين ليرا انكليزية ونيّف وعدد العاملين بهِ مئة وخمسين الفًا . اما هثكوت فاقام معامل في لوبرو سنة ١٨٠٩ وبقي هناك عدة سنوات وهو في اوج النجاح وعندهُ عدد غفير من الفعلة واجرة الواحد منهم في الاسبوع من خمس ليرات الى عشر

لكن وان يكن اختراع هذه الآلة قد فتح بابًا لتشغيل كثيرين تذمر الفعلة منها زاعمين انها قد قطعت معاشهم فعقدوا تجمُّعًا اتفقوا فيهِ على تخريب كل ما امكنهُ تخريبهُ منها . وسنة ١٨١١ حدثت منازعة بين المعلمين والفعلة في معامل الجوارب والخرج في الاقسام الجنوبية الغربية من نتنهمشير ودربيشير وليسسترشير فتجمع الفعلة في سنون وتحالفوا على تكسير كل آلات الجوارب والخرج واجروا ذلك فعلاً ولكنَّ الدولة القت القبض على بعض روَساءهم وعاقبتهم فلم يعودوا يفعلون ذلك جهارًا بل خفية كلما سنحت لهم الفرصة. وبما ان الآلات دقيقة جدًّا كانت ضربة واحدة تعطّلها هذا فضلاً عن ان الابنية الموضوعة فيها

كانت منفردة عن بيوت السكن فكان الهجوم عليها سهلاً . واجتمع مكسّرو الآلات في جوار نتنهام التي هي مركز الشغب وتنظموا في فرق وعقدوا تجمعات ليلية دبروا فيها دسائسهم واقاموا عليهم قائدًا يدعى ند لُدّ ومن ثمّ دُعوا لدّيين واخذوا في عملهم بكل جسارة مدة فصل الشتاء من سنة ١٨١١ وسببوا خرابًا عظيمًا وقطعوا رزق عدد وافر من الفعلة فاضطر اصحاب المعامل الى نقلها من الضياع والاماكن المنفردة الى محلات حصينة داخل المدن . ويظهر ان اللديين تشجعوا بخفّة العقاب الذي عوقب بهِ من قُبضَ عليهِ منهم فلم يمضِ الّا وقت قصير حتى امتدوا في كل المقاطعات الشمالية والمتوسطة وخربوا كل ما طالت اليهِ يدهم من المعامل وكان تحالفهم سريًا وجميعهم آلوا على انفسهم ان يطيعوا قوادهم طاعة تامة في كل ما يامرونهم بهِ وان كل مَنْ يفشي مقاصدهم يعاقب بالموت . وحكموا بالاشاة كل الآلات سواء كانت لعمل الجوخ او الشيت او الخرج وقضوا على اصحابها بالقتل . ويا لها من سنين مهولة عثا فيها هولاء الاشقياء . وما زالوا يعثون حتى تلافت الدولة امرهم والقت القبض على كثيرين منهم وعاقبتهم بالموت وبعد تعب عدة سنين أُخمد هيجانهم وتلاشت قوتهم

وممّن عطّل اللديون معاملهم هثكوت مخترع آلة الخرج لان جمهورًا منهم دخلوا معملهُ في اوبرو في احدى الليالي والمشاعل في

ايديهم واضرموا فيهِ النار فحرقوا ستًّا وثلاثين آلة ومصنوعات قيمتها عشرة آلاف ليرا فقُبِض على عشرة عوقب منهم ثمانية بالقتل. فرفع هشكوت دعواهُ على البلاد المجاورة طالبًا ان تقوم بالعطل فغرّمت عشرة آلاف ليرا الا ان القضاة طلبوا منهُ ان يصرف هذا المبلغ داخل حدود مقاطعة لستر فلم يجبهم الى طلبهم لانهُ كان قد عزم على نقل معامله الى مكان آخر فانتقل الى تيفرتون في ديفنشير وابتاع بناء كبيرًا كان معملًا للصوف ورمّهُ ووسعهُ واقام فيهِ اكثر من ثلث مئة آلة لعمل الخرج وآلات اخرى لثني المغزل ووصل الحرير وعمل الشباك وانشأ ايضًا مسبك حديد لاصطناع ادوات الفلاحة وكان يرغب في ان يرى اتمام كل الاعمال العظيمة بواسطة البخار ولذلك اجتهد مدة طويلة في اختراع محراث يفلح بفعل البخار وسنة ١٨٣٢ اتصل في اتقان هذا المحراث الى درجة مكنتهُ من تحصيل اجازة الحصر ولم يزل محراثهُ احسن ما صُنِع من نوعهِ الى ان صُنِع محراث فولر

وخلاصة ما يقال عن هذا الرجل العظيم انهُ كان ثاقب الفكر سديد الراي سريع الخاطر محبًّا للعمل امينًا مستقيمًا منصفًا وبما انهُ نال ما نالهُ باجتهادهِ كان اذا رأى شابًا من العاملين عندهُ مجتهدًا نشطهُ وقوّى عزمهُ حتى يزيد اجتهادًا وتقدمًا . وقد انكب مع كثرة اعمالهِ على تعلم اللغة الفرنساوية والايطالية فاتقنهما وطالع تآليف كثيرة يجمع ذاخرًا في عقلهِ كنوز المعرفة

الثمينة . وكان في معاملهِ فوق الالفي صانع وجميعهم اعتبروهُ كاتبٍ لهم فانهُ كان يهتم براحتهم ورفاهتهم كاهتمامهِ بنفسهِ لان نجاحهُ لم ينزع الشفقة من قلبهِ كما يحدث كثيرًا بين الناس بل زادهُ لينًا وحنوًّا فكان عضدًا للفقراء وملجأً للبائسين . وبنى مدارس لتعليم اولاد الفعلة العاملين عندهُ انفق عليها ستة آلاف ليرا . وكان مع ما ذُكِر بشوش الوجه انيس المحضر محبوبًا ومعزّزًا من الجميع . وسنة ١٨٢١ اختارهُ منتخبو تيڤرتون نائبًا لهم في البرلمنت فاقام في هذا المنصب نحو ثلاثين سنة وحينما تنحّى عن البرلمنت بسبب الشيخوخة اهداهُ الف وثلث مئة من الفعلة العاملين عندهُ دواةً من الفضة وقلمًا من الذهب علامةً لاعتبارهم لهُ . وتوفي سنة ١٨٦١ ولهُ من العمر سبع وسبعون سنة وقد ترك وراءهُ اسمًا تفتخر بهِ ذريتهُ مدى الادهار

والآن نلتفت الى شخص آخر ليس اقل شهرة من هثكوت ولكنهُ اقل سعدًا منهُ وهو جكرد الشهير . ولد هذا الرجل من ابوين فقيرين من ليون صناعتهما الحياكة ولما بلغ سن التمييز وضعهُ ابوهُ عند مجلد ليتعلم تجليد الكتب . وكان لهُ ميل شديد الى عمل الآلات فاشار بعضهم على ابيهِ ان يعلمهُ صناعة توافق ميلهُ فوضعهُ عند سكّان (صانع سكاكين) وكان هذا السكّان شرس الطباع فتركهُ جكرد وخدم عند صانع حروف . ثم توفي ابواهُ فاضطر ان يحترف الحياكة في نولَيهما ولكنهُ ما لبث حتى خطر لهُ

ان يحسن هيئة النولين ويصلحها وانكب على ذلك بكليتهِ فنسي
نفسهُ ولم يشعر الاَّ والفقر قد فاجأَهُ فباع النولين لكي يفي دينهُ .
ونحو ذلك الوقت اقترن بامرأةٍ فصار عليهِ ان يعولها ايضًا فباع
بيتهُ واخذ يفتش عن عمل فلم يستخدمهُ احد لان الجميع اعتقدوا
انهُ كسلان عائش في الاوهام ولبث يتضوَّر جوعًا الى ان وجد
عملاً عند صانع حبال وبقيت امرأَتهُ في ليون وكانت تعول نفسها
من عمل برانيط القش . ولا نسمع من امرهِ شيئًا الاَّ بعد مضي عدة
سنين ولكنهُ في غضون ذلك اتم عمل نولٍ لنسج المنسوجات
المنقوشة ولم يمضِ على هذا النول عشر سنين حتى صار منهُ اربعة
آلاف نول تعمل في ليون . ثم حدثت الثورة في فرنسا فانقطع عن
عملهِ وتطوع الى الحرب بين المتطوعين الليونيين ولما اخذت
مدينتهم هرب وانضم الى جنود الرين فارتقى الى رتبةِ سرجنت
وربما كان بقي جنديًا لو لم يقتل ابنهُ بجانبهِ في احدى المعارك
فترك العساكر ورجع الى ليون وافتقد امرأَتهُ فوجد انها لم تزل
تعمل برانيط قش فاقام معها متخفيًا ولكنهُ لم ينفك عن التامل في
امر الاختراع واخيرًا وجد نفسهُ مضطرًا ان يخرج من مخفاهُ ويسعى
في عمل يعمل بهِ فانضمَّ الى صانع ماهر وكان يعمل عندهُ في
النهار ويرجع الى اختراعاتهِ في الليل لانهُ كان يزعم ان نول
المنسوجات المنقوشة يحتمل اصلاحات كثيرة وحدث يومًا انهُ ذكر
هذا الموضوع لمستأجرهِ متأوهًا على ضيق ذات يدهِ المانع لهُ من

اتمام مقاصدهِ فاصغى اليهِ مستأجرهُ ومدَّهُ بمالٍ كافٍ لكي يتمّ اختراعهُ في ساعات العطلة فلم تمضِ عليهِ ثلاثة اشهر حتى اخترع نولاً بديع الصنعة وعرضهُ في معرض الصنائع الذي صار في باريز سنة ١٨٠١ ونال عليهِ نيشانًا . ثم زارهُ الوزير كورنو بنفسهِ في ليون هنأهُ بنجاحهِ في اختراعهِ هذا . وفي السنة التالية اعلنت لجنة الصنائع في لندن انها تعطي جائزة لمن يخترع آلة لعمل الشباك فبلغ ذلك جكرد واخذ يتأمل في هذا الموضوع ولم يمضِ عليهِ ثلاثة اسابيع حتى اخترع الآلة المطلوبة فبلغ ذلك الامبراطور نبوليون فدعاهُ الى باريز وقابلهُ بالترحاب والاكرام كما يليق بشخص مخترع عظيم ودام الحديث بينهما ساعتين فشرح جكرد للامبراطور كل ما يتعلق بنول المنسوجات المنقوشة وما يحتملهُ من الاصلاح فامر الامبراطور ان يعطى مكانًا في خزانة الصنائع والادوات وان يقدم لهُ كل ما يحتاجهُ من الاوائل وامر لهُ بمعاش كافٍ (هكذا هكذا والاَّ فلا لا) . فوجد جكرد في تلك الخزانة اوائل لا تحصى ولا تعد وجميعها تشهد لفضل صانعيها وحذاقتهم وفي جملتها نول لنسج الحرير ذي الازهار من عمل ڤوكنصن الشهير

اما ڤوكنصن هذا فهو من الطراز الاول بين المخترعين بل هو مخترع مفطور على الاختراع . يروى انهُ وهو ولد صغير رأى ساعة كبيرة تتحرك من نفسها فاخذ يتأمل في سبب حركتها ولم ينفك حتى فهم سبب حركتها تمامًا فعمل ساعة من خشب تدل

يغني السلامات بكل دقة وعمل ايضاً ملائكة تحرك اجنحتها وكهنة يتممون بعض الفرائض الدينية . ثم اخذ في تعلم التشريح والموسيقى والميكانيكيات لكي يتسهل عليهِ امر اختراع الآلات . ورأى ذات يوم مغنياً يغني على الفلوت في بساتين التويلري فصنع شخصاً مثلهُ يغني نفس الغناء ولكن ذلك كلفهُ تعب سنين عديدة ثم صنع بطة تسبح وتشرب وتبطبط كبطة حيّة ثم اصطنع صلاً لرواية كليوبترا وكان ينفخ ويثب الى صدر المشخصة كانهُ صلٌّ حقيقي . لكنهُ لم يقتصر على عمل آلات كهذه لان الكردينال ده فلري عيّنهُ رقيباً على معامل الحرير في فرنسا فلم يلبث ان دخل في هذا المنصب حتى اخذ يدخل اصلاحات كثيرة في آلات الحرير ومن الآلات التي اخترعها آلة لبرم الحرير ولكن هذه الآلة هيجت عليهِ صنّاع ليون فرجموهُ بالحجارة ولولا قليل لاماتوهُ . غير انهُ لم ينفك عن الاختراع فاخترع آلة لنسج الحرير ذي الازهار واوجد طريقة تجعل كل الوشائع من قدرٍ واحدٍ . ثم توفي سنة ١٧٨٢ واوصى قبل وفاتهِ بكل آلاتهِ للمملكة غير ان المملكة لم تعتبر هذه الآلات فذهبت ادراج الرياح . اما آلة نسج الحرير ذي الازهار فحُفظت لحسن الحظ في خزانة الآلات والادوات لتكون مرشداً لجكرد في عمل نولهِ . ومن اهم اجزاء هذه الآلة اسطوانة ذات ثقوب اذا أُديرت حركت ابراً حركات معلومة بواسطة ثقوبها وقرّفت الاسدية على نوعٍ يجعل رسماً معلوماً فلما رأى جكرد هذه

الآلة طار فرحًا واخذ من ساعتهِ ان يصلحها بهمة مخترع حقيقي فاكمل اصلاحها في اقل من شهر زائدًا عليها قطعة من الكرتون مثقوبة ثقوبًا كثيرة تدخل فيها الاسدية وآلةً اخرى تريك الحائك لون الوشيعة اللازم طرحها في النول فاعتاض بذلك عن واحد يسحب الخيوط وعن آخر يقرأُ الرسوم واهدى اوَّل قطعة نسجها للامبراطورة جوزفين زوجة نبوليون فسرَّ نبوليون بذلك سرورًا عظيمًا وامر احذق الصنَّاع ان يصنعوا عددًا من الانوال حسب مثال جكرد واهداهُ اياها فاخذها ورجع الى ليون . فصادف في ليون ما لا بد منهُ لكل مخترع . فان صناعها نظروا الى نولهِ كعدو قاصد ان يقطع رزقهم فتجمعوا وعزموا ان يقتلوهُ ويلاشوا آلاتهِ فجروهُ الى النهر ليغرقوهُ لكن التقادير ساعدتهُ فنجا من ايديهم . ولم يمضِ وقت طويل حتى عُرِف فضل هذا الرجل وشاع استعمال نولهِ في ليون كثيرًا فكان منهُ فيها سنة ١٨٣٣ ستون الف نول بحسب تعديل مسيو ليون فوشه . وعاش جكرد بعد ذلك بالهدو والسكينة محبوبًا من الجميع . ثم عرض عليهِ ديوان البلدية في ليون ان يتفرغ لاصلاح نولهِ لخير الوطن بالاجرة التي يختارها فقبل بذلك وادخل فيهِ كل الاصلاحات اللازمة ثم تنحَّى عن الاعمال ولهُ من العمر ستون سنة ورجع الى اوليِنس لينهي ما بقي لهُ من العمر في مولد ابيهِ فاتاهُ نيشان الشرف سنة ١٨٣٠ وتوفي هناك سنة ١٨٣٤ وأُقيم لهُ نصب عظيم الآن

اقاربهُ بقوا في الفقر الشديد وبعد موتهِ بعشرين سنة باعت ابنتا اخيهِ النيشان الذهبي الذي قلّدهُ بهِ الملك لويس الثامن عشر. قال احد الفرنساويين هذا هو جزاء اهل ليون لمن كان سببًا لغناهم ومجدهم

ويمكننا ان نذكر سير كثيرين من المخترعين وما احتملوهُ من الاتعاب وعانوهُ من البلايا مع انهم لم يجتنوا شيئًا من ثمار اتعابهم بل ذهبوا وتركوها لغيرهم لكن في ما ذكرناهُ كفاية على انهُ لا يحسن بنا ان نختم هذا الفصل بدون ان نذكر سيرة مخترع آخر حديث العهد وهو يشوع هلمن مخترع المشطة

ولد هلمن في ملهوس من الالزاس سنة ١٧٩٦ ودخل معمل القطن مع ابيهِ وهو في الخامسة عشرة ثم انتقل الى بيت عمهِ في باريز ودرس فيها الرياضيات وحينئذٍ انشأ بعض اقاربهِ معملًا لغزل القطن فوضعوهُ في معمل الخواجات تسو وراي في باريز ليتعلم هذا العمل ويأخذ ادارة معملهم فتعلم كل ما يحتاج اليهِ من تركيب الآلات وما اشبه ورجع الى الالزاس واخذ ادارة المعمل ولكن حدثت حوادث تجارية اخّرت اقاربهُ فاتصل المعمل الى غيرهم فخرج منهُ ورجع الى بيتهِ في ملهوس . وكان يصرف اكثر اوقات العطلة في اختراع آلة للتطريز تحرك عشرين ابرة في وقت واحد فاتمها في ستة اشهر وعرضها في معرض سنة ١٨٣٤ فنال عليها نيشانًا ذهبيًا ونيشان الشرف . ثم اخترع اختراعات

اخرى كثيرة منها نول وآلة لقياس النسيج وطيه وادخل اصلاحات كثيرة في آلات كب الحرير والقطن وغزلها ونسجها . ومن اعظم اختراعاته آلة تنسج طاقتين من المخمل او من كل نسيج ذي خمل في وقت واحد ثم تفصلها بواسطة شيء فيها كسكين حاد . ولكن افضل اختراعاته كلها واعظمها آلة التمشيط وهاك تاريخ اختراعها

كان قد خطر على بال هذا الرجل منذ عدة سنين امكان استنباط آلة لمشط القطن وتنقية الالياف المطويلة من القصيرة قبل غزله وكانوا يستعملون لذلك آلة غير متقنة كثيرة الخسارة فعرض مجمع النسيج في الالزاس جائزة خمسة آلاف فرنك لمن يخترع آلة المشط اتقن من الآلة المستعملة فتفرغ هلمن لهذا الاختراع لا طمعًا بالمال (لانه كان قد تزوّج بامرأة غنية) بل محبة بشرف الاختراع لانه كان يقول ان طالب المال لا يمكنه ان يعمل امورًا جليلة . وبعد ان تعب في هذا الاختراع سنين عديدة نفد ما معه من المال ولم يحصل على نتيجة مرضية فاعتمد على مساعدة اصدقائه الذين قدموا له المساعدة اللازمة لاتمام اختراعه . ثم ماتت امرأته متيقنة انه على حافة الخراب فاتى بعد موتها الى انكلترا واقام في منشستر وعمل مثالاً لما اتصل اليه من الاختراع في هذه الآلة عند احذق صناعها لكنه لم يكن مرضيًا فعاد الى اصلاحه وبعد تعب جزيل وصل الى حافة اليأس فرجع الى فرنسا لكي يرى عائلته . واذ كان جالسًا ذات ليلة في

بينة متأملاً في نصيب المخترعين وسوء حظهم التفت الى بناته فرآهنَّ يمشطن شعورهنَّ فخطر على باله حينئذٍ انهُ لو صنع آلة تمشط الشعر الطويل وترجع القصير الى خلف وهي راجعة لجاءت بالمطلوب فصنع آلة تشبه الماشطة تماماً تمشط القطن وتفصل الالياف الطويلة عن القصيرة . هذه هي الآلة التي صار يمكن ان ينسج بواسطتها من نصف اقة من القطن خيط طولهُ ٣٣٤ ميلاً حتى ان ما ثمنهُ شلن واحد يُنسَج خرجاً ثمنهُ نحو اربع مئة ليرا . وحينئذٍ اجتمع اصحاب ستة معامل من معامل لنكشير ودفعوا له ثلاثين الف ليرا لكي يجيز لهم استعمال هذه الآلة لمشط القطن ودفع له غازلو الصوف نفس هذا المبلغ ودفع له الخواجات مرشل من ليدس عشرين الف ليرا ليجيز لهم استعمالها في مشط الكتان فاندفق عليهِ الغنى بغزارة ولكنهُ لم يعش ليتمتع بهِ فوافتهُ المنيَّة ثم لحقهُ ابنهُ

الفصل الثالث

في الخزافين الثلثة العظام وهم بالسي وبتغر وودجود

قال يوحنا رسكن . الصبر افضل في العزم وما من لذة ولا قوة الّا والصبر اساس لها . والرجاء نفسهُ لا تطيب بهِ النفس ما لم يصاحب بالصبر

في تاريخ صناعة الخزف امثلة على الصبر والمواظبة من اشهر ما جاء في ترجمات البشر وقد انتخبنا من بينها ثلاثة وهي ترجمة برنارد پالسي الفرنساوي وجوان فردريك بُتغر الجرماني ويوشيا وَدْجُود الانكليزي فنقول . ان عمل الآنية الفخارية البسيطة كان معروفًا ومشهورًا من قديم الزمان عند اكثر الشعوب القديمة واما عمل الآنية المدهونة بالمينا فاقل قدمية واشتهارًا على انهُ كان معروفًا عند قدماء الترسكانيين الذين كانت تباع مصنوعاتهم

في عهد اوغسطس قيصر بثقلها ذهبًا ولم يزل شيء منها في محلات التحف في اوربا

ومن الامم التي اشتهرت بهذه الصناعة عرب اسبانيا وكان لهم معامل في جزيرة ميورقا حينما استولى عليها اهل بيزا سنة ١١١٥ ويُروى ان البيزيين اخذوا من جملة الغنيمة بعضًا من الآنية المدهونة ووضعوها في جدران كنائسهم القديمة في بيزا علامة لظفرهم ولم تزل فيها حتى يومنا هذا. ثم بعد ذلك بنحو قرنين اخذ الايطاليون يمثلون صناعة العرب وسموا مصنوعاتهم ماجوليكا نسبةً الى محل معامل العرب . ومحيي هذه الصناعة في ايطاليا هو لوقا دلاّ روبيا النقاش الفلورنتيني . قال فزاري في وصفهِ انهُ رجل لا يمل من العمل يقضي النهار وازميلهُ في يدهِ ويحيي الليل في رسم ما يريد نقشهُ واذا خاف على رجليهِ من برد الليل القارس وضعها في سلة ملآنة من النشارة قال وما ذلك بعجيب لاني ارى الناس الذين لا يتعوّدون احتمال مشقة البرد والحرّ والجوع والعطش وما اشبه لا يمكنهم ان ينجحوا . والذين يظنون انهُ يمكنهم ان ينجحوا ويشتهروا اذا كانت كل امورهم مسهلة يخدعون انفسهم لان النجاح والشهرة لا ينالان بالنوم والراحة بل بالسهر والتعب.

وما احسن ما قالهُ ابو الطيّب المتنبي

تريدينَ ادراك المعالي رخيصةً
ولا بدَّ دون الشهدِ من ابرِ النحل

وما قال الآخر

ترومُ العزَّ ثمَّ تنامُ ليلاً ومَنْ طلب العلى سهر الليالي

الآن لو انما هذا لم يقدر ان يحصل ما يكفيهِ من صناعة النقش مع كل ما كان عليهِ من الاجتهاد فخطر لهُ ان يجد مادةً اقل قيمة واسهل مراساً من الرخام لعمل الرسوم التي كان يعملها فاخذ يصطنع الرسوم المذكورة من الطين وكان همهُ الاكبر ان يشويها ويدهنها دهاناً ثابتاً لكي تقوم مقام الرخام . وبعد تعب شديد وتجارب كثيرة اكتشف مادةً اذا دهن الطين بها وعرضهُ لحرارة شديدة جداً ذابت وصارت دهاناً ثابتاً . ثم اكتشف طريقة لتلوين هذا الدهان بالوان مختلفة وبذلك ازداد جمالهُ جمالاً . فامتد صيتهُ في كل جهات اوربا وانتشرت مصنوعاتهُ في اقطار فرنسا واسبانيا وغيرها وكانت تباع باثمان باهظة . ولم يكن يُصنَع في ذلك العصر في فرنسا الآجرار وقدور بسيطة خالية من الدهان ودام الحال على هذا المنوال الى ان ظهر فريد عصرهِ ونابغة دهرهِ الشهير بالسي الذي حارب الصعوبات بعزمٍ وهمةٍ تستفز كل مطلع على حياتهِ الى العجب والانذهال كيف لا وهو رجل

هيهات ان ياتي الزمان بمثلهِ ان الزمان بمثلهِ لبخيلُ

والآن قصدنا ان نورد طرفاً من ترجمة هذا الرجل وما احتملهُ من المتاعب وكابدهُ من المشقات الى ان نال الغاية التي شمر لها الذيل فنقول

وُلِد برنارد پالسي في جنوبي فرنسا في ابرشية اجان نحو سنة ١٥١٠ من والدين فقيرين جدًّا حتى لم يمكنهما ان يعلماهُ في مدرسة ويشهد لذلك قولهُ ليس لي كتب سوى كتابَي السماء والارض اللذين يشترك بهما الجميع . وكانت صناعة ابيهِ عمل الزجاج فتعلمها وزاد عليها علم تلوينهِ وعلم الرسم والقراءة والكتابة ولما بلغ الثامنة عشرة قل الطلب على هذه الصناعة فاضطرَّ الى ترك بيت ابيهِ والسعي في طلب رزقهِ من مكان آخر فسار نحو غسكوني وكان يعمل في صناعتهِ حيثما وجد عملًا واحيانًا كان يعمل في مساحة الاراضي ثم قوَّم طريقهُ نحو الشمال وجال مدة طويلة في فرنسا وهولندا وجرمانيا . ودام على ذلك نحو عشر سنين ثم رجع الى وطنهِ وتزوَّج واستقرَّ في مدينة سنتس واخذ يعمل في تلوين الزجاج ومساحة الاراضي ولم يمضِ عليهِ وقت طويل حتى عال وزاد خرجهُ على دخلهِ فاخذ يعمل فكرتهُ في ايجاد وسيلة لتكثير دخلهِ فلم يجد افضل من دهان الخزف وتلوينهِ اذا استطاع ذلك وكان يجهل هذه الصناعة كل الجهل حتى لم يكن يعرف كيفية جبل الطين وشيهِ فكان عليهِ ان يتعلم كل شيء بدون معلم ولكنَّ ما بهِ من علو الهمة وشدَّة الامل هوَّن عليهِ كل امرٍ عسير

روى بعضهم ان پالسي رأى ذات يوم كاسًا ايطالية بديعة (ولعلها من عمل لوقا المتقدم ذكرهُ) فاعجبهُ منظرها ورغب في

تمثيلها رغبةً شديدة ولا يبعد ان الوفا من البشر رأوا تلك الكاس فلم تؤثر فيهم كما اثرت فيهِ وما ذلك الّا لانهُ كان مهتّما حينئذٍ بابدال صناعتهِ فلو كان عزبًا لترك وطنهُ وذهب الى ايطاليا وتعلم سرَّ صناعتها ولكنهُ كان مقيدًا بزوجة واولاد . فاستحضر جميع العقاقير التي ظن انها تسيل على الخزف فتدهنهُ كدهان الكاس التي رآها واشترى آنية خزف وكسّرها قطعًا صغيرة ورشَّ عليها من تلك العقاقير وبنى لها اتونًا وشواها فيهِ مدةً من الزمان فلم يذب الدهان ولا على واحدة منها فكانت النتيجة تكسير الآنية واضاعة الحطب والعقاقير والوقت والتعب . ومن المعلوم ان النساء اللواتي لا يهمهنَّ الّا تحصيل الدراهم لاشتراء القوت والكسوة لاولادهنَّ لا يعبأنَ بالامتحانات العلمية هكذا كانت امرأة پالسي فلم تسلّم لهُ باشتراء آنية اخرى زاعمةً انها انما تُشترَى لتُكسَر فقام بينهما النزاع ولمّا رأتهُ منشغفًا في التفتيش عن هذه الصناعة التي اخذت منهُ كل مأخذ تركتهُ الى هواهُ فبنى اتونًا آخر واتلف فيهِ مقدارًا وافرًا من الوقود والعقاقير والآنية وبعد تجربات كثيرة يطول شرحها دهمهُ الفقر الشديد فلم يعد يستطيع اجراء الامتحانات في اتونهِ . وممّا قالهُ بصدد ذلك انني انعكفت عدة سنين على التفتيش عن الميناء بحزن وتنهد لانني لم ابلغ غايتي . اه . وكان عند ما تسمح لهُ الفرصة يعمل في حرفتهِ الاولى اي تلوين الزجاج ورسم الصور ومساحة الاراضي غيران ما بربحهُ من ذلك

كان يسيرًا جدًّا . واخيرًا لم يعد يستطيع اجراء الامتحانات في اتونهِ بسبب غلاء الوقود فاشترى مقدارًا وافرًا من الآنية المكسَّرة وكسَّرها نحو اربع مئة شقفة ودهنها بمواد كيماوية مختلفة ومضى بها الى معمل خزف يبعد عن سنتس نحو غلوة ونصف وشواها فيهِ ولما تمَّ الشواء وجدها كما كانت فصمَّم من ساعتهِ على اعادة التجارب من جديد

قلنا انهُ كان يعمل بفن المساحة وفي نحو ذلك الوقت صدر امر الدولة بمسح المالح التي في جوار سنتس لاجل الضريبة فتعيَّن پالسي لهذا العمل فكسب من ذلك ما مكَّنهُ من مراجعة امتحاناتهِ فاشترى نحو ثلاثين اناء وكسرها شقفًا صغارًا ودهنها بمواد مختلفة وشواها في اتون زجاج بالقرب من سنتس فذاب بعض هذه المواد من شدة حرارة الاتون فانفتح امامهُ باب الامل الآن الدهان الابيض كان لم يزل محجوبًا عنهُ فدام سنتين اخريين يمتحن ويجرّب على غير فائدة الى ان صرف كل ما كسبهُ من مساحة المالح. فعزم على ان يمتحن الامتحان الاخير فكسر مقدارًا وافرًا من الآنية نحو ثلاث مئة شقفة ودهن شقفها بمركبات مختلفة وشواها في اتون الزجاج ولمَّا فتح الآتون وجد الدهان ذائبًا على واحدةٍ منها فقط وكان لما بردت ابيض صقيلاً لامعًا جميلاً الى الغاية فحملها وهرول الى بيتهِ وهو يكاد يطير فرحًا واراها لامرأتهِ ولكن لم يكن ذلك الدهانُ الدهانَ الحقيقي بل واسطة لاثارة رغبتهِ وتحميلهِ

مشقات يعجز القلم عن وصفها . لانهُ لما رأى نجاحهُ هذه المرة بنى لنفسهِ اتون زجاج بجانب بيتهِ لكي يجري امتحاناتهِ سرًّا وقضى على عملهِ نحو ثمانية اشهر اذ كان يعمل فيهِ وحدهُ ولم يستخدم انسانًا ولا بهيمةً ولما اتمهُ عمل آنية خزف بيدهِ وشواها ودهنها بالمركبات التي ظن انها تاتي بالمطلوب ووضعها في الاتون واضرم النار واخذ يوقد ذلك النهار بطولهِ ولم يذب شيءٌ من الدهان فاحيى الليل كلهُ وهو يوقد لكن على غير نتيجة فاتت اليهِ امرأتهُ في الصباح بشيءٍ من الطعام لانهُ لم يمكنهُ ان يفارق الاتون ثم مرَّ اليوم الثاني ولم يذب شيءٌ من الدهان وخيَّم الظلام ومضى الليل واشرقت الشمس ولم يذب منهُ شيءٌ ومرَّ اليوم الثالث والرابع والخامس والسادس مع لياليها لكن على غير نتيجه . ومَنْ يقدر ان يصف مقدار التعب الذي كابدهُ ذلك الانسان في تلك الايام الطويلة فقال في نفسهِ لا بد من نقص في هذه المركبات فاخذ يركّب مواد جديدةً لكي يمتحن امتحانًا آخر فمضى عليهِ ثلاثة اسابيع وهو يسحق ويمزج ويركب فبقي عليهِ ان يجلب آنية اخرى لان الآنية الاولى التي عملها بيدهِ تلفت من تواصل النار عليها وقد نفد كل ما معهُ من النقود فاستعار من صاحب لهُ مبلغًا من المال واشترى بهِ آنية ووقودًا ودهن الآنية بالمركبات الجديدة ورتبها في الاتون واضرم النار واخذ يطعمها من الوقود الذي اشتراهُ الى ان نفد ولم يذب الدهان فنزع سياج جنينتهِ واوقدهُ ولكن على غير فائدة

فلم يبقَ امامهُ شيء قابل الاشتعال الاّ اثاث بيتهِ فنزع الرفوف والموائد والكراسي وكسرها واطعمها النار فصرخت امرأتهُ بالويل والحَرَب ونادت الجارات هلمّ منَ لمعونتي على هذا المجنون وهاك كلام پالسي نفسهِ وهو ماخوذ من الكتاب المدعو اعمال پالسي في صناعة الخزف المطبوع في باريز سنة ١٨٤٤ صفحة ٣١٥ قال

" واذ اعوزني الوقود التزمت ان احرق سياج جنينتي ثم موائد بيتي وكنت في ضيقة لا استطيع وصفها من شدة ما اعتراني من التعب وحرارة الاتون . ومضى عليَّ شهر لم يجف قميصي فيهِ . وعوضاً عن ان اعزّى كنت اعيّر حتى ان الذين كان يجب عليهم ان يساعدوني كانوا يجولون في المدينة صارخين انهُ حرق اثاث بيتهِ فثلموا صيتي وحقروني في عيون القوم . وقد تهمني البعض بسك النقود الزائفة فالمني ذلك كثيرًا حتى كنت اذا مشيت في الشوارع امشي مطرق الراس كمن ارتكب نقيصة .... ولم يعنِ احد من الذين حولي بل استهزاوا بي قائلين لا باس اذا مات جوعاً فانهُ اهمل صناعتهُ . وكنت اسمع هذه الاقوال وانا مارٌّ في الشوارع . انتهى من كتاب پالسي "

ولم ينثنِ عن عزمهِ بل دام على هذا الحال مدة شهر الى ان اخذ التعب والأرَق منهُ كل ماخذ وكاد يهلك جوعاً . وحينئذٍ ذاب الدهان فاخرج الآنية سنجابية اللون وتركها حتى بردت فاذا بها مكسوة قشرة زجاجية بيضاء فصدق فيهِ المثل القائل مَنْ تأنّى نالَ ما تمنّى .

فاستأجر حينئذٍ فخاريًا ليصنع لهُ آنية خزفية بحسب ارشادهِ وصنع بيدهِ صُوَرًا من الخَزَف قاصدًا ان يدهنها بالدهان الذي

اكتشفهُ فبقي عليهِ ان يجد مَن يعولهُ هو وعائلتهُ ريثما تكمل الآنية وتباع ولحسن الاتفاق بقي في سنتس رجل واحد يعتقد باستقامة پالسي وان لم يعتقد بسداد رأيهِ وهو صاحب فندق فاتفق معهُ على ان يعولهُ ستة اشهر. واما الفخارسي الذي استأجرهُ فاعطاهُ قسمًا من ثيابهِ بدلاً من اجرتهِ فعرّى جسدهُ من الثياب كما عرّى بيتهُ من الاثاث . ثم بنى اتونًا على شكل منتظم ولسوء حظهِ بطّن قسمًا منهُ بحجارة صوانية فحالما اضرم النار فيهِ تشظّى الصوان وطارت شظاياهُ الى الآنية وعند ما تمّ شيُّها وأُخرجت من الاتون كان الدهان ذائبًا عليها حسب بغيتهِ الّا انهُ كان مخمشًا ومشققًا مما لحقهُ من الصوان فخسر تعب ستة اشهر لكنّ الناس اقبلوا عليهِ راغبين في ابتياعها باثمان معتدلة فلم يبعهم اياها زاعمًا ان ذلك يعطل اسمهُ . ومما قالهُ في وصف حالتهِ حينئذٍ الكلام الآتي اني مع كل ما المّ بي لم يزل رجائي قويًّا واملي وطيدًا ابشُّ في وجوه الناس اذا زاروني واطايبهم في الكلام وقلبي ملآن كآبةً وغمًّا واصعب ما قاسيت تهكم اهل بيتي عليّ وازدراؤهم بي . كانت أُتني مكشوفة سنوات عديدة وانا واقف امامها تحت رحمة العواصف والامطار بلا معين ولا مسلٍّ سوى مواء القطاط وهرير الكلاب حتى اذا ثارت الزوابع ولم اعد اطيق القيام امامها اهرول الى بيتي مبلّلا بالامطار ملطخًا بالاوحال مترنحًا من النعاس ترنح السكران فلا ارى فيهِ غير الملامة والتعيير . واني حتى الساعة

لا عجب من بقائي حيًّا مع كل ما قاسيت . اه

ويقال انهُ اصيب حينئذٍ بما نخوليا شديدة فهام على وجههِ في القفار القريبة من سنتس بثيابٍ خاِقة كانهُ هيكل من عظام . ومن قولهِ بهذا المعنى قد ذاب لحم ساقيَّ حتى اذا ربطتُ جواربي تحت ركبتيَّ ومشيت سقطت الى الخلخل وما زال اهلهُ وجيرانهُ يعيّرونهُ ويستهينون بهِ حتى رجع الى صناعتهِ الاولى وعمل فيها بجد نحو سنة من الزمان فاصلح شانهُ وسكّت عنهُ السنة الناس ثم عاد الى عملهِ المحبوب ولم يزل يجرب فيهِ ويمتحن حتى اتقنهُ غاية الاتقان في مدة ثماني سنوات مع انهُ اضاع في اكتشافهِ عشر سنين وبرع فيهِ بكثرة المزاولة والاختبار جامعًا ثمار المعرفة من فيافي الفشل فتعلم في مدرسة الاختبار ماهية الدهان والاتربة المناسبة وكيفية بناء الاتن . وبعد ان مضى عليهِ ست عشرة سنة يتعلم في مدرسة الاختبار اجترأ ان يدعو نفسهُ خزّافًا وصار يبيع مصنوعاتهِ بقيمتها ويعول عائلتهُ بالترفه . ولكنهُ لم يكتفِ بما وجدهُ ولم يفتر عن بذل الهمة في تحسين هذه الصناعة وايصالها الى اسمى درجاتها فدرس الكائنات الطبيعية لكي يرسم اشكالها على مصنوعاتهِ وقد شهد لهُ بيفون الشهير انهُ كان من البارعين في علم الطبيعة . ومصنوعاتهُ تُعَدُّ الآن من الجواهر النادرة وتباع باثمان تكاد تفوق التصديق فانهُ بيع في لندن منذ بضع سنين صحفة من عملهِ قطرها اثنتا عشرة عقدة بمئة واثنتين وستين ليرة

انكليزية . وجميع النقوش التي على مصنوعاته ماخوذة عن صور الحيوانات والنباتات التي في جوار سنتس وهي في غاية ما يكون من الاتقان في الرسم والوضع

قد ذكرنا بعض ما عاناهُ هذا الشهير في اكتشاف هذه الصناعة واتقانها ولكن مصائبهُ لم تنتهِ هنا لانهُ كان من طائفة البروتستانت التي ثار عليها الاضطهاد في جنوبي فرنسا في ذلك الحين وكان جسورًا لا يجزع من بث آرائهِ فعُدَّ هرطوقيًّا وقام عليهِ خصومهُ وطرحوهُ في سجن بُردو حتى تاتي نوبتهُ اما معلقًا واما محروقًا . ودخل اهل الفتنة معملهُ وكسَّروا كل ما فيهِ من الآنية ثم قُضي عليهِ بالحرق لكن توسط امرهُ الكنستابل المقتدر مُنمورنسي لا اكرامًا لهُ ولا لمذهبهِ بل لانهُ لم يكن حينئذٍ صانع ماهر مثلهُ لعمل بلاط قصر الكنستابل الفاخر الذي كان آخذًا في اقامتهِ في اكون فاخرج لهُ امرًا ملكيًّا يعينهُ مخترعًا لهُ وللملك فأُنقذ من محكمة بُردو ورجع الى سنتس ولكنهُ رأى بيتهُ ومعاملهُ مفتوحةً منهوبةً ومصنوعاتهِ مكسرةً فنفض غبار سنتس عن رجليهِ وانتقل الى باريز واقام في التويلري وكان يعمل للكنستابل ولأُمّ الملك (1)

---

(1) من برهة وجيزة اكتشف رجل مغرم باكتشاف آثار البروتستانت في فرنسا يسمى تشارلس ريد على الافران التي كان يشوي بالسي مصنوعاته فيها واحتفر من هناك عددًا من القوالب عليها رسم وجوه ونباتات وحيوانات ونحو ذلك وعليها سمة بالسي المعروفة

وألَّف بالسي في اواخر حياتهِ عدَّة مؤلفات في صناعة الخزف لكي يعلم ابناء وطنهِ هذه الصناعة ويرشدهم الى تجنُّب الاغلاط التي وقع فيها هو وألَّف ايضًا في الزراعة وبناء الحصون والتاريخ الطبيعي وقدَّم خطبًا في هذا العلم الاخير. وكتب ضد التنجيم والكيميا (بمعناها القديم) والسحر وما اشبه من الخزعبلات فاهاج عليهِ خصومًا كثيرين اتهموهُ بالهرطقة ولم يزالوا حتى اودعوهُ السجن وهو في الثامنة والسبعين وهددوهُ بالموت اذا لم يرتد عن مذهبهِ لكنهُ كان متمسكًا بهِ كتمسكهِ بالتفتيش عن دهان الخزف فاتى الملك هنري الثالث الى سجنهِ وطلب منهُ ان يرتد عن ايمانهِ بقولهِ ايها الرجل الصالح انك خدمت امي وخدمتني خمسًا واربعين سنة وقد حميناك في وسط النيران والمذابح والآن قد الزمني الشعب وحزب كيزان اتركك في قبضة اعدائك وغدًا تُحرَق ما لم ترتد عن مذهبك . فاجابهُ ايها المولى انا مستعد ان اسلم حياتي لاجل مجد الله ولقد قلتَ لي مرارًا كثيرة انك تشفق عليَّ وانا الآن اشفق عليك انت الذي قلت قد الزمني الشعب فان كلامك هذا ليس كلام ملك اما انا فلا انت ولا شعبك ولا احد يقدران يثني عزمي واني اعلم كيف اموت . وحسبما قال مات. مات شهيدًا ولكن ليس حرقًا بل في السجن بعد ان حُبِسَ فيهِ نحو سنة . وهكذا انقضت حياة هذا الرجل الذي لا يضارعهُ احد في الهمة والاقدام والاستقامة

× الرجل الثاني جون فردريك بُتغر مكتشف صناعة الخزَف الصيني الصلب وُلِد هذا الرجل في سكليز سنة ١٦٨٥ ولما بلغ الثانية عشرة وُضِع عند صيدليّ في برلين فاظهر من صغرهِ رغبة شديدة في الكيميا فكان يصرف اكثر اوقات العطلة في الامتحانات الكيماوية وجل مقصدهِ اكتشاف الاكسير الذي يزعَم انهُ يحيل كل المعادن الى ذهب . وبعد مضي عدة سنين ادعى انهُ اكتشف هذا الاكسير واصطنع بهِ ذهبًا ويقال انهُ امتحن ذلك امام معلمهِ الصيدلي وعدد من الشهود واحتال عليهم حتى اقنعهم جميعهم انهُ صيَّر النحاس ذهبًا

فامتد خبرهُ في الافاق وتقاطر اليهِ الناس من كل فجٍّ عميق ملقبين اياهُ طابخ الذهب حتى ان الملك نفسهُ اظهر اشتياقهُ لرؤيتهِ والتكلم معهُ . وعُرِضت قطعة من الذهب التي زُعِم ان بُتغر حوَّلها من النحاس على فردريك الاول فحدثتهُ نفسهُ باصطناع ما لا يحصى منها ولا سيما لان خزينة بروسيا كانت محتاجة الى النقود حينئذٍ فعزم على وضع بتغر في حصن سبندو ليعمل لهُ الذهب فيهِ ولما بلغ بتغر ذلك خاف من الفضيحة وهرب الى سكصونيا فعين الملك الف ريال لمن ياتي بهِ لكن خاب مسعاهُ لان بتغر دخل سكصونيا وطلب حماية منتخبها فردريك اوغسطس الاول (ملك بولونيا) الملقب بالقوي ففرح بهِ جدًّا لانهُ كان محتاجًا الى النقود احتياجًا شديدًا وارسلهُ سرًّا الى

درسدن مصحوبًا بحرس ملكي وعندما خرج من وتنبرج جاءت فرقة من الابطال البروسيانيين وطلبت ان يسلم صانع الذهب ليدها لكن كان قد فات الوقت . فأُوصل بتغر الى درسدن وأُنزل في البيت الذهبي وعومل بكل نوع من الاعتبار الاَّ انهُ كان عليهِ حرس شديد

ثم نحو ذلك الوقت اضطر المنتخب ان يذهب الى بولونيا فكتب الى بتغر يطلب منهُ ان يفشي لهُ سر عمل الذهب فبعث اليهِ بتغر حنجرًا ملآنًا من سائل يضرب الى الحمرة زاعمًا انهُ يصير كل المعادن ذهبًا اذا كانت ذائبة فاخذ البرنس فرست فن فرستنبرغ هذا الحنجر ومعهُ كتيبة من الحراس واتي بهِ الى ورسو فاراد الملك ان يجرب ذلك على الفور ودخل هو والبرنس الى غرفة سرية وأُتزرا بمئزري جلد واخذا في صهر النحاس وبعد ان ذاب سكبا عليهِ من سائل بتغر فلم يتغير وكان بتغر قد سبق فقال ان العمل لا يتم الاَّ بنقاوة القلب اما جلالة الملك فكان قد صرف الليل السابق بمعاشرة اناس اشرار فنسب عدم نجاحهما الى ذلك فاعترف ونال الحلة ثم عاد الامتحان في اليوم الثاني فلم ينجحا فغضب الملك غضبًا شديدًا وعزم ان يجبر بتغر على افشاء هذا السر لهُ ظنًّا منهُ ان هذا هو السبيل الوحيد لتخلصهِ من الافلاس فبلغ بتغر قصد الملك فعزم على الفرار وانتهز فرصة غفلة الحراس وفرَّ هاربًا وبعد مسير ثلاثة ايام وصل الى انس في النمسا حيثما ظن نفسهُ آمنًا

فتأَثره رجال المنتخب وقبضوا عليهِ وهو نائم ورجعوا بهِ الى درسدن رغمًا عن مقاومتهِ واستغاثتهِ بالنمسا ومن ثمَّ حُفِظ بحرس شديد ثم نُقِل الى حصن كونجستين المنيع وقيل له ان الخزينة فارغة بالكلية وان عشر كتائب من البولونيين لم يُدفَع لها شيء من وظائفها وهي بانتظار ذهبهِ ثم زارهُ الملك بشخصهِ وتكلم معهُ بشان ذلك وهددهُ بانهُ ان لم يعمل ذهبًا يُقتَل معلقًا لكن مضى عليهِ عدة سنين ولم يعمل ذهبًا ولم يُقتَل بل حُفظَت حياتهُ لكي يكتشف شيئًا انفع من تحويل النحاس الى الذهب وهو تحويل التراب الى خزف صيني. فان البرتوغاليين كانوا قد جلبوا آنية صينية من بلاد الصين وكانت تُباع في اوربا باكثر ما يعادل ثقلها ذهبًا. وقد وجه افكار بتغر الى هذا العمل العظيم كيماويٌّ شهير يُسمَّى ولترفون تشرنهس وكان هذا الرجل معتبرًا جدًّا في عيني البرنس فرستنبرغ وفي عيني المنتخب فقال ذات يوم لبتغر اذا لم تقدر ان تصنع ذهبًا فاصنع شيئًا آخر اصنع خزفًا صينيًّا فكان لكلامهِ وقعٌ عند بتغر فاخذ من تلك الساعة يجرب ويمتحن عساهُ ان يجد المواد المركب منها الخزف الصيني ودام على ذلك زمانًا طويلًا على غير نتيجة واخيرًا اتاهُ واحد بقليل من الطَّفَل الاحمر ليعمل منهُ بوائق فوجد انهُ اذا عُرِض لدرجة عالية من الحرارة تحوَّل الى مادة شبيهة بالزجاج وصار كالخزف الصيني الَّا في اللون والشفافية وهذا هو الخزف الصيني الاحمر وقد اكتشفهُ صدفة ومن ثمَّ اخذ

يصطنعهُ بكثرة ويبيعهُ كالصيني . الأَّ انهُ كان يعلم ان اللون الابيض
امر جوهري ولذلك لم ينفك عن الامتحانات املاً بالحصول
عليهِ . فمضى عليهِ عدة سنين بدون ان يبلغ مرادهُ واخيرًا اعانتهُ
الصدفة حتى اكتشف الصيني الابيض وذلك انهُ كان يلبس شعرًا
عارية حسب عادة تلك الايام وفي احدى الايام من سنة ١٧٠٧
وجد قبع شعرهِ اثقل من المعتاد فسأَل خادمهُ السبب فاجابهُ
ان ذلك من ثقل المسحوق الموضوع بين شعر القبع . وكان هذا
المسحوق نوعًا من التراب فخطر على بالهِ حينئذٍ انهُ ربما يكون هو
نفس التراب الذي يصطنع منهُ الصيني وهكذا كان لان هذا
التراب كان محتويًا على الكاولين الذي هو جزء جوهري من
الخزف الصيني وكانت النتيجة من هذا الاكتشاف انفع من اكتشاف
الاكسير بما لا يُقدَّر . وفي تشرين الاول من سنة ١٧٠٧ اهدى
للمنتخب اول قطعه من الخزف الصيني فسر بها سرورًا جزيلاً
وامر ان يُقدَّم لهُ كل ما يلزمهُ لاتقان اختراعهِ هذا فاستخدم خزَّافًا
ماهرًا من دلفت وشرع في عمل الخزف الصيني . وحينئذٍ اهمل
الكيميا تمامًا واستعاض عنها بصناعة الخزف وكتب على باب معملهِ
البيت الآتيهِ ترجمتهُ

قد عاضني اللهُ العظيمُ الجبَّارْ   من صنعةِ النضارِ صُنعَ الفخَّارْ

الاَّ انهُ كان لم يزل تحت الحفظ الشديد مخافة ان يفشي
سرهُ لآخر او يفر من قبضة المنتخب وكانت معاملاتهُ واتنهُ محروسة

بالجنود ليلاً ونهارًا وعيّن لحفظهِ ستة من القواد كانوا مطالبين بهِ . ولما رأى المنتخب نجاح بتغر ورواج مصنوعاتهِ عزم على اقامة معمل ملكي مؤملاً ان يغتني بذلك كما اغتنت هولندا من معامل الخزف المدهون فاصدر امرًا ملكيًا في الثالث والعشرين من شباط سنة ١٧١٠ بشان اقامة معمل كبير للصيني في البرخنسبرغ وتُرجم هذا الامر الى اللاتينية والفرنساوية والدنيمركية ووزعهُ سفراءُ المنتخب في كل قصبات اوربا وفيهِ يقول ان المنتخب فردريك اوغسطس الأول قد نظر الى خير سكصونيا التي الم بها اضرار كثيرة من الغزوة الاسوجية ووجه التفاتهُ الى الكنوز التي تحت الارض في بلادهِ واقام رجالاً ماهرين للبحث فيها فاصطنعوا لهُ نوعًا من الآنية الحمراء افضل كثيرًا من الخزف الهندي وصحافًا ملونة قابلة للقطع والصقل وليست دون الآنية الهندية(١) وصنعوا لهُ شيئًا من الخزف الابيض ولهُ امل انهم سيصنعون منهُ شيئًا كثيرًا . وينهي هذا المنشور بدعوة للصناع الاجانب ليأتوا الى سكصونيا وينتظموا في سلك العَمَلَة واعدًا اياهم باجرة كبيرة وبحماية الملك . فيظهر من هذا المنشور ان اختراع بتغر كان لهُ قيمة كبيرة في عيني المنتخب وعيون شعبهِ

قال المؤلفون الجرمانيون ان المنتخب رفع منزلة بتغر كثيرًا

(١) ان جميع الآنية الصينية واليابانية كانت تدعى في ذلك الوقت هندية وربما كان ذلك لانها اتصلت الى اوربا من الهند

لاجل خدمتهِ لوطنهِ وجعلهُ مدبرًا لكل معاملهِ الصينية ولقبهُ بلقب بارون . ولا ريب انهُ يستحق هذا الاعتبار الأ ان المعاملة البربرية التي عاملهُ بها كانت تناقض ذلك كل المناقضة لانهُ وضع في المعمل مدبرَين اسم احدهما مثيو واسم الآخر نهمتز وجعل بتغر رقيبًا على الخزافين لا غير وحسبهُ اسيرًا لهُ فكان هذا المسكين محاطًا بالجنود في دخولهِ وخروجهِ بل كان يُقفَل عليهِ في غرفة حصينة حينما ينام . فانفعل كثيرًا من هذه المعاملة وكان يكتب للملك متضرعًا اليهِ ان يرفق بهِ بكلام يلين لهُ الجماد . قال في احدى رسائلهِ انني اخصّص نفسي لصناعة الخزف وسافعل اكثر ممَّا فعل ايُّ مخترع كان ممَّن تقدَّمني ولا اطلب منك الأ الحرية الحرية . الأ ان الملك ادار اليهِ اذنًا صماء بل كان يريد ان يعطيهُ الاموال التي يقترحها عليهِ والالقاب التي يطلبها منهُ اما الحرية فلا لانهُ اعتبرهُ عبدًا لا يُعتَق . فدام على ذلكِ مدة طويلة حتى سئِم الحياة فانكبَّ على المسكر واقتدى بهِ اكثر العَمَلة فقامت بينهم الخصومات والمنازعات حتى الزم الامران تاتي الجنود مرارًا كثيرة وتفصل بينهم ولما لم يرتدعوا سجنوا كلهم في البرخنسبرغ وعوملوا معاملة الاسرى . وفي غضون ذلك مرض بتغر مرضًا شديدًا واشرف على الموت فاشفق الملك ان يفقد هذا العبد النافع فاذن لهُ ان يتنزه في مركبة ومعهُ عدد من الجند لحراستهِ فتعافى قليلاً ثم اذن لهُ ان يذهب احيانًا الى درسدن ووعدهُ

بالحرية التامة في كتابٍ كتبهُ لهُ في نيسان سنة ١٧١٤ ولكن هذا الوعد اتى بعد وفتهِ لان بتغر عاش بعد ذلك سنين قليلة في الذل والهوان عقلاً وجسدًا من تاثير السكر والمرض والحبس وفي الثالث عشر من اذار سنة ١٧١٩ وافتهُ المنية وحرّرتهُ من سجنهِ الارضي ولهُ من العمر خمس وثلاثون سنة فدُفِن ليلاً في مقبرة جونيس في موسن كانهُ كلب . هذه هي حياة اعظم مسببي غنى سكصونيا وهذه هي المعاملة التي عومل بها والنهاية التي وصل اليها

اما معامل الخزف الصيني فكانت سببًا لاتساع ثروة سكصونيا ومتغنيها فاقتدى بهِ اكثر ملوك اوربا . وكان الصيني غير الصلب يُعمَل في سنت كلود قبل اكتشاف بتغر باربع عشرة سنة الاَّ ان الصيني الصلب الذي اكتشفهُ بتغر افضل منهُ كثيرًا فانشئت لهُ معامل في سڤر سنة ١٧٧٠ وهو الآن من اعظم ينابيع ثروة فرنسا لانهُ افضل من كل ما يُصنَع في باقي المالك

الرجل الثالث يوشيا ودجوُد الخزّاف الانكليزي الذي لم تصبهُ مصائب شديدة بمقدار ما اصاب پالسي وبتغر ولكنهُ نجح اكثر منهما ولا سيما لان الزمان الذي نشأَ فيهِ كان موافقًا لنجاحهِ كما سترى . بقيت البلاد الانكليزية لحد اواسط القرن الماضي دون اكثر البلدان الاوربية صناعةً . وكان في ستفوردشير كثيرون من الخزافين ومن جملتهم عائلة ودجوُد هذا الاَّ ان مصنوعاتهم كانت بسيطة الى الغاية فكانت البلاد تجلب خزفها

المتقن من دلفت في هولندا ومن كواون . ثم اتاها خزّافان اجنبيان من نرمبرج واقاما مدّةً في ستفوردشير ثم انتقلا الى شلسي واقتصرا على عمل الآنية المزخرفة . ولم يكن يصنع في كل انكلترا شيء من الخزف الصيني . ولما الآنية البيضاء التي كانت تعمل في ستفوردشير فلم تكن بيضاء تمامًا بل ذات لون ترابي يضرب الى الصفرة . فهذه كانت حالة صناعة الخزف في انكلترا لما ولد يوشيا ودجود في برسلم سنة ١٧٣٠ الّا انهُ لم يمت حتى غيّرها تغييرًا تامًّا مع انهُ لم يعش اكثر من اربع وستين سنة . وباجتهادهِ وفطنتهِ وحذاقتهِ قامت هذه الصناعة على اسس وطيدة او كما قيل في رثائهِ حوّل هذه الصناعة من حرفة خشنة غير معتبرة الى صناعة جميلة ذات قدر وطائل في تجارة البلاد

وهذا الرجل من جملة الرجال البعيدين عن الملل الذين ينبغون حينًا بعد حين من بين عامة الشعب ويعلمونهم الاجتهاد بالفعل اكثر مما بالقول ولا يقتصرون على ذلك بل يوثرون في هيئة المملكة كلها بقدوتهم وهم دعائم المملكة واركان اسمها . كان لابيهِ ثلثة عشر ولدًا وهو اصغرهم وكان ابوهُ خزافًا وكذلك جدهُ واخو جدهِ ومات ابوهُ وهو فتى صغير السن وترك له ميراثًا يساوي عشرين ليرة . ولما مات ابوهُ كان هو في الحادية عشرة وكان يتعلم القراءة في مدرسة صغيرة فأُخِذ منها ووُضع عند اخيهِ الاكبر ليعمل معهُ في صناعة الفخار . وبعد مدة قصيرة اصيب

بالجدري ونشأ عن الجدري مرض في ركبتهِ اليمنى كان يخطر عليهِ مرارًا كثيرة حتى اضطر الى استئصالها. قال مستر كلادستون في ترجمة ودجود التي تلاها حديثًا في برسلم لا يبعد ان مرض رجلهِ كان سببًا لشهرتهِ لانهُ منعهُ عن استعمال كل اعضائهِ وبالنتيجة عن ان يكون عاملاً نشيطًا فاضطران ينصبَّ على امر آخر فاعمل فكرتهُ في سر صناعتهِ وما زال حتى بلغ ما لو بلغ خزاف اثيني لحسدهُ عليهِ العالم . اه

وحين تعلم ودجود هذه الصناعة من اخيهِ اشترك مع انسان آخر واخذا يصنعان نُصُبًا للسكاكين وصناديق وغيرها من الادوات ثم تركهُ واشترك مع انسان آخر يصنع قناديل وعلبًا للسعوط وما اشبه ولكنهُ لم ينجح كثيرًا . وسنة ١٧٥٩ فتح معملاً خاصًا بهِ في برسلم واخذ يعمل في صناعة الخزف بنشاط وكان جل مرادهِ ان يصنع آنيةً افضل من المصنوعة في ستفوردشير هيئةً ولونًا ودهانًا ومتانةً ولذلك خصص اوقات العطلة بدرس الكيميا وامتحن امتحانات كثيرة في الدهان والمذوبات وانواع الاتربة وكان ذا حذاقة قوية ونظر دقيق فلاحظ ان نوعًا من التراب الاسود المحتوي على سلكا يبيض بالتكليس في الاتون وبعد ان لاحظ هذا الامر ودقق فيهِ النظر استنتج انهُ اذا مُزِجَت السلكا بتراب الخزف الاحمر ابيض مزيجها بالتكليس وهكذا كان فلم يبقَ عليهِ سوى ان يدهن هذا الخزف بدهان اذا ذاب صار

شفافًا فيحصل على ما يماثل الصيني او على الصيني نفسهِ او ما تسمّى فيما بعد بالخزف الانكليزي وفُضِّل على ما سواهُ

ولقد وجد صعوبات كثيرة في اتنهِ مثل پالسي الّا انها لم تطل كما طالت صعوبات ذاك بل تغلب عليها في وقتٍ قصير وذلك بالامتحانات المتتابعة والمواظبة الراسخة والفشل المتواتر لانهُ كثيرًا ما كان يضيع تعب شهر في يوم واحد . وبعد امتحانات كثيرة واضاعة الكثير من الوقت والمال والتعب عرف نوعًا مناسبًا من الدهان . ثم اخذ في تحسين هذه الصناعة وانشغف لبهُ في ذلك وما زال واضعًا نصب عينيهِ ايصالها الى الدرجة العليا حتى بعد ان صار يصنع كثيرًا من الآنية البيضاء والحمراء للوطن وللبلدان الاجنبية . فذاع صيتهُ في الآفاق واقتدى بهِ كثيرون . فانشأَ فرعًا عظيمًا من الصناعة الانكليزية واقامهُ على دعائم راسخة وكان يقول دائمًا ترك عمل الشيء افضل من عملهِ عملًا غير متقن

وكان لهُ وجود مساعدون كثيرون من اولي المقام والسيادة ومن الصناع الحاذقين ايضًا . فعمل للملكة تشرلوت آنية المائدة الملكية الاولى من الخزف الذي لُقب فيما بعد خزف الملكة فعُيّن خزّافًا ملكيًا فاعتبر هذا اللقب اكثر مما لو لُقب بارونًا . وكثيرًا ما كان يُسلَّم آنية صينية فيصنع مثلها تمامًا الامر الذي ادهش الجميع . واعارهُ السر وليم هملتون آنية قديمة من هركولانيوم فعمل مثلها . ولما عُرِضت القارورة البربرينية للمبيع دفع فيها الف وسبع مئة

ليرة انكليزية فدفعت اميرة برتلند الف وثماني مئة ليرة وابتاعتها بذلك ولكنها لما علمت ان قصده تمثيلها اعارته اياها فصنع خمسين قارورة مثلها انفق عليها الفين وخمس مئة ليرة انكليزية وباعها باقل من ذلك ولكنه نال غايته اذ اثبت ان كل ما عملته الامم والشعوب تقدر على عمله الحذاقة الانكليزية

وكان لهذا الرجل معرفة بالكيمياء والآثار القديمة ومهارة كلية في صناعة الايدي فاستخدم كل ذلك لصناعة الخزف واستخدم ايضًا نقّاشًا ماهرًا لعمل اشكال جميلة صنع مثلها فصارت اشكال مصنوعاته وسيلة لاحياء صناعة النقش القديمة بين قومه وقد تمكن ايضًا بواسطة الدرس والامتحان من كشف صناعة تلوين الخزف التي كانت مفقودة حينئذٍ بل كانت قد فقدت منذ ايام افلونبوس وخدم العلم خدمة نصوحًا وخلّد ذكره بالبيرومتر الذي اخترعه وكانت له يد طائلة في كل مصلحة تأول لخير البلاد . فهو السبب في فتح ترعة ترنت ومرسي من شرقي الجزيرة الى غربيها وفي تمهيد طريق بُطرِس وما زال يزداد شهرةً واعتبارًا في عيون الناس حتى صارت معاملة في برسلم واتروريا ناديًا يتقاطر اليه مشاهير الزوار من كل اقطار اوربا

ونتيجة اتعاب هذا الرجل ان الصناعة التي شرع فيها وهي في حالة دنية جدًا صارت من اهم صنائع انكلترا وصارت انكلترا تصنع من الخزف ما يفيض عنها فترسله الى البلدان البعيدة التي

كانت تجلب خزفها منها. وراج خزفها في تلك البلدان رغمًا عن المكوس الباهظة التي كانت تضربها عليهِ. وقد قال امام البرلمنت بعد ان ابتدأ في عملهِ بنحو ثلاثين سنة انهُ بعد ان كانت هذه الصناعة في حالة دنية جدًّا وكان يعمل فيها رجال قلائل فقراء الحال واكثرهم في حالة يرثى لها من الغباوة والمسكنة صار الآن نيّف وعشرون الف شخص يتعيشون منها راسًا هذا فضلًا عن عدد لا يحصى من الحفّارين والفحّامين والذين ينقلون الآنية برًّا وبحرًا والذين يتجرون بها. وكان يرتإي ان هذه الصناعة لم تزل في طفوليتها وان ما اصلحهُ فيها لا يحسب شيئًا في جنب ما تحتملهُ من الاصلاح بتقدم صناع الانكليز واجتهادهم وتنشيط دولتهم لهم. وقد تمّ قولهُ تمامًا والشاهد على ذلك انهُ صدر من بلادهم سنة ١٨٥٢ ما ينيف على اربعة وثمانين الف الف اناء خزف وهذا التقدم العظيم لا يُحسَب شيئًا بالمقابلة مع تقدُّم الصنّاع اخلاقًا وآدابًا لانهُ لما باشر ودجود عملهُ في ستفوردشير كانت ستفوردشير متمدنة نصف تمدنٍ وكان اهلها فقراء واغبياء وقلائل وحالما تثبتت معاملهُ صار فيها عمل كافٍ لثلاثة امثالهم باجرة عالية وتحسنت اخلاقهم وآدابهم بانعكافهم على عملهم

فهولاء الرجال وامثالهم خليقون بان يدعوا قادة اهل الصناعة بل جبابرة العالم المتمدن لان صبرهم ونشاطهم في وسط التجارب والمصاعب وشجاعتهم وجلدهم في مساعيهم المجيدة ليست

اقل من بسالة الجنود الذين يقوم مجدهم بالمدافعة عمّا عملهُ ارباب الصنائع

قال المتنبي

تحقّرُ عندي همتي كل مطلبٍ

ويقصر في عيني المدى المتطاولُ

وقال ايضًا

مَنْ اطاق التماس شيء غلابًا

واغتصابًا لم يلتمسهُ سوالا

الفَصل الرابع

في الجدّ والمواظبة

قال دافانان . مَنْ اذا انكبت ساعتهُ الرملية انحنى وجمع رملها حبةً حبةً كانهُ بزر الكواكب فهو انسان غني

وقال ده ابر . تقدم والايمان يتبعك

اكثر الاعمال العظيمة تمَّت بالوسائط البسيطة وباستخدام القوى الاعتيادية . وفي سبيل الحياة العام فُرَصٌ كثيرة للاختبار بل ان طرق الحياة المطروقة اكثر من غيرها تولي المجتهد قوةً كافية ليسعى في اصلاح شانهِ . وفلاح البشر منوط بعملهم فاكثرهم اقدامًا وامضاهم عزيمةً انجحهم

وكثيرًا ما لام الناس السعد وعدُّوهُ اعمى ولكنهُ ليس اعمى كالناس انفسهم لاننا اذا امعنّا النظر في احوال اهل الاعمال

رأينا ان السعد لاكثرهم اجتهادًا كما ان الرياح والامواج توافق الناخذاة الماهر بل ان اسمى مطالب البشر يمكن البلوغ اليها باستخدام القوى الاعتيادية كالانتباه والانصباب والمواظبة ولا حاجةَ لما يُدعَى موهبة فائقة على ان الموهبة وان كانت من اسمى المواهب نوعًا لا تنافي القوى الاعتيادية ولا تحط من قدرها .

واعظم الناس اقلهم ايقانًا بالمواهب واكثرهم مزاولةً لاعمالهم ومنهم مَنْ عرَّف الموهبة بانها ذوق شديد . قال احد روساء المدارس انها قوة استعمال القوى وقال جون فُستَر انها قوة بها يضرم الانسان نارهُ وقال بفون الشهير انها هي الصبر

لا يخفى ان عقل اسحق نيوتن كان من الطراز الاول ولكنهُ سُئل مرةً بماذا اكتشفت كل هذه الاكتشافات الغريبة فاجاب "بالتأمل المستديم فيها" . ووصف في مكان آخر اسلوب درسهِ فقال اني اضع الموضوع امامي دائمًا وانتظر حتى يبزغ فجرهُ ويصير نورًا كاملاً . ولم ينل ما نالهُ من الشهرة الاَّ بالاجتهاد والمواظبة كشأن غيرهِ من المشاهير حتى انهُ كان اذا تعب من درس ارتاح بابدالهِ بدرس آخر . قال مرةً للدكتور بنتلي ان كنتُ قد خدمتُ العالم بشيء فباجتهادي وجلدي فما اشبه ذلك بما قالهُ الفيلسوف كبلر مشيرًا الى قول فرجيل Fama mobilitate viget, vires aquirit eundo ان تعمُّني في دروسي يجعلني اواصل التفكر في مواضيعها الى ان اغوص في لججها بكل قوى عقلي

وبما ان الاجتهاد والصبر قد انتجا نتائج خارقة العادة ارتاب بعض المشاهير بوجود ما يُسمّى موهبة خاصة . قال فُلتِر ان الحد الفاصل بين مَنْ له موهبة فائقة ومن ليس له يكاد لا يرى وقال بكّاريا ان كل الناس يمكنهم ان يكونوا شعراء وخطباء وقال رينلدس انهُ يمكن لكل انسان ان يصير مصورًا ونقاشًا وقال لُك وهلفتيوس وديدرو ان كل الناس قابلون للمواهب على حدٍّ سوى وان ما يفعلهُ البعض بواسطة قوى عقولهم يقدر ان يفعلهُ غيرهم اذا استخدموا نفس الوسائط التي استخدمها اولئك . الّا انهُ وان يكن كل شيء موكلًا بالاجتهاد حتى ان اولي المواهب اكثر الناس اجتهادًا وجلدًا لا يسعنا ان ننكر انهُ ما لم يكن للانسان موهبة فائقة لا يقدر ان يبلغ مبلغ شكسبير او نيوتن او بيتهوفن او ميخائيل انجلو ولو مهما جدَّ واجتهد

ان دَلتون الكيمياوي انكر ان له شيئًا من المواهب الفائقة ونسب كل ما حصَّلهُ الى الجد والاجتهاد . وجون هنتر قال ان عقلهُ كقفير النحل يظهر مملوءًا من الطنين والارتباك ولكنهُ مملوءٌ ايضًا من الهدو والنظام والطعام المجلوب من افخر منتخبات الطبيعة باجتهادٍ جزيل اه . واذا التفتنا الى ترجمات مشاهير المخترعين والمؤلفين والصنّاع من كل نوعٍ ولو لفتةً واحدةً رأينا انهم بلغوا مبلغهم بجدهم واجتهادهم وحوّلوا كل شيء ذهبًا حتى الوقت نفسهُ .وقد ارتأى دزرائيلي الكبير ان النجاح بامرٍ يقوم بان

يكون الانسان سائدًا على ذلك الامر ولا تحصل هذه السيادة الاَّ بالدرس والانصباب الدائمين . وينتج مما تقدم ان الرجال الذين حركوا العالم باسرهِ لم يكونوا من ذوي المواهب الفائقة بل كانوا ذوي قوى عقلية معتدلة وجلد لا يملّ . وكثيرًا ما سبق البلداء النبلاء في ميدان الحياة لانهم كانوا اكثر منهم مواظبة . قال المثل الايطالي مَنْ يسر متمهّلاً يسر طويلاً لذلك كانت المزاولة من اول دلائل النجاح لان بالمزاولة نال السر روبرت بيل ما جعلهُ زينةً وفخرًا لمجلس السنات الانكليزي لانهُ وهو بعدُ ولد صغير كان من عادة ابيهِ ان يقيمهُ على المائدة ليتكلم ارتجالاً وقد عوَّدهُ ايضًا على اعادة كل ما يذكرهُ من المواعظ التي يسمعها نهار الاحد ومع ان نجاحهُ كان قليلاً في اول الامر الاَّ ان المواظبة على ذلك قوَّت فيهِ قوتي الانتباه والذاكرة حتى صار يمكنهُ ان يعيد موعظة بكمالها حرفًا بحرف . ثم لما دخل في البرلمنت وكان يناقض ما يقولهُ اضدادهُ ببلاغة تفرد فيها قلَّ مَنْ ظن ان تلك الحافظة الفريدة التي فاق بها اقرانهُ قد اكتسبها بارشاد ابيهِ وهو بعد حدَث

وما اعجب ما تفعلهُ المزاولة حتى في الامور البسيطة فاللعب على الربابة يظهر في بادئِ الراي امرًا سهلاً لكنهُ يستدعي ممارسة طويلة متعبة جدًّا . قيل قال شابٌ لجيَرْديني في كم من الزمان اتعلم اللعب على الربابة فاجابهُ في عشرين سنة اذا مارستهُ اثنتي

عشرة ساعة كل يوم . ومن يجهل مقدار التعب الذي يتعبهُ المشخصون قبلما يتمكنون من التشخيص . قيل ان تَغليوني الشهيرة كانت قبلما تشخص شيئًا تصرف ساعتين مع ابيها وهي تمارس ذلك امامهُ وعند ما تنتهي الساعتان يغمى عليها من شدة التعب فتجرَّد من ثيابها وترش بالماء والمنعشات وكان يصيبها مثل ذلك ايضًا عند ما تنتهي من التشخيص

٧ الارتقاء في سلَّم النجاح عمل بطيء والنتائج العظيمة لا يبلغها الانسان دفعة واحدة فعلى كل احد ان يقنع بالارتقاء المتدرّج . قال ده مايسترسر النجاح ان يعرف الانسان كيف يتوقع النجاح بالصبر . فعلى الانسان ان يزرع قبلما يحصد وكثيرًا ما يضطر ان يصطبر وقتًا طويلاً قبلما يصل الى الحصاد وافضل الاثمار ابطأُها نضجًا قال الشاعر

مَنْ جعل الصبر في مقاصدهِ وفي مراقيهِ سلمًا سلما

وقال الآخر

لاستسهلنَّ الصعب اوادراك المنى فما انقادت الآمال الّا لصابرِ

ولا يستطيع الانسان ان يتوقع بلوغ امانيهِ بالصبر ما لم يجتهد في بلوغها بسرور وطيب نفس . والسرور والاجتهاد تسعة اعشار الحكمة وهما حياة النجاح وروحهُ . ولعلهُ لا توجد لذة في الدنيا اتم من لذة العامل بعملهِ اذا كان مسرورًا بهِ . قيل ان سدني سمث الشهير لما كان كاهنًا في احدى القرى لم يحسب نفسهُ عاملاً في

العمل المناسب لهُ لكنهُ اخذ فيهِ بسرور عازماً ان يبذل فيهِ جهدهُ فقال قد صممتُ نيتي ان احب هذا العمل واوفق نفسي لهُ فلذلك خير من الترفع عليهِ والتذمر منهُ . ومما يماثل ذلك قول الدكتور هوك عند ما انتقل الى عمل جديد قال حيثما اكون سافعل بقوتي كل ما تجدهُ يدي وان لم اجد عملاً صنعتُ عملاً لنفسي

ومن الذين عليهم ان يشتغلوا مدة طويلة بالصبر المشتغلون في صالح العموم لان كثيرين منهم قد زرعوا زرعهم فغمرتهُ ثلوج الشتا وقبلما جاء الربيع والفتهم منيتهم فمضوا ولم يروا نتيجة تعبهم . وفي مثل هذه الاحوال لا شيء افضل من الرجاء ولا شيء يقوم مقامهُ فالرجاء او الامل هو الذي يشجع الانسان ويقويهِ على اقتحام المصاعب قال الشاعر

اعلل النفس بالآمال ارقبها
ما اضيق العيش لولا فسحة الامل

ان كاري المبشر الشهير فاق من سواهُ في الاتعاب ولكنهُ كان دائماً مسروراً وذلك لرجائهِ الثابت واملهِ الوطيد . قيل انهُ وهو في الهند كان يشغل ثلاثة كتاب فاكثر واذا تعب من عمل واراد ان يستريح يبدلهُ بعمل آخر وكان معهُ اثنان وهما ورد ومرشام [1] وبواسطة اتعاب هولاء الثلاثة اقيمت مدرسة كلية في سيرمبور وستة عشر مركزاً للتبشير وترجم الكتاب المقدس

(1) ان كاري ابن اسكاف وورد ابن نجار ومرسام ابن حائك

الى ست عشرة لغة وصار انقلاب ادبي عظيم في كل الهند الانكليزية ومع ان اصل هذا الرجل وضيع كما اشرنا لم يكن يخجل من اشهار ذلك قط قيل انهُ دُعي مرةً الى وليمة عند الوالي فسمع وهو على المائدة احد الرؤساء يقول لمن بجانبهِ ألم يكن كاري اسكافًا فاجابهُ كاري على الفور كلاَّ يا مولاي بل كنتُ مرقعًا احذية عتيقة. قيل انهُ وهو ولد صغير حاول طلوع شجرة فسقط وكسر رجلهُ فلازم الفراش الى ان جبرت واول ما امكنهُ النهوض والمشي ذهب الى تلك الشجرة وطلعها وما زال ذلك طبعهُ الذي غلب بهِ كل المصاعب الشديدة التي حالت دون اتمام مقاصدهِ

كان من جملة مبادئِ الدكتور ين الفيلسوف ان كل انسان يقدر ان يصنع كل ما صنعهُ انسان آخر. وما احسن ما قالهُ ابن الوردي

لا تقل قد ذهبت اربابهُ كلُّ مَنْ سارَ على الدربِ وصلْ

ومن المعلوم ان ين المذكور لم ياخذ في امرٍ إلاَّ عنهُ جهدًا روى بعضهم انهُ اوَّل ما ركب الخيل ركب فرسًا جموحًا وسار بصحبة الفارس الشهير حفيد مستر بركلي. فوصلا الى جدارٍ رفيع فوثب الفارس بجوادهِ من فوقهِ فاراد ين ان يقتدي بهِ فسقط من عن ظهر فرسهِ فركب وحاول ثانيةً فسقط ولكنهُ نهض قبلما وصل الى الارض وحاول ثالثةً فنجح. ومما يماثل ذلك الحادثة التي صارت لاوديبون العالم بالطيور وقد اخبر عنها بقولهِ اصابتني

مصيبة عطّلت مني رسم من رسوم الطيور التي رسمتها ولاشت كل اتعابي في هذا الفن فانني وضعتُ هذه الرسوم في صندوق وائتمنت بهِ رجلًا من معارفي بعد ان طلبت منهُ ان يحترس عليهِ كل الاحتراس لانهُ ضمنهُ نتيجة اتعاب سنين عديدة . ثم مضيت لامرٍ ما وبعد ان لبث غائبًا بضعة اشهر رجعت وافتقدت الصندوق الذي كنت اسميهِ كنزي ولما فتحتهُ وجدت ما تتفتت لهُ الاكباد وجدتُ ان كل اتعابي اضحت فريسة لجرذين كبيرين دخلاهُ من احدى جوانبهِ وقضما كل ما فيهِ من الاوراق وطحناها طحنًا وولدا بينها عائلة كبيرة . فصعد الدم الى راسي بحرارة شديدة واصابتني رجفة ورعدة وانطرحت على ظهري ومضى عليَّ عدة ايام وانا في سبات عميق ولما رجعت الى نفسي اخذت بندقيتي وقلمي وانطلقت الى الغابات كأَن لم يكن من الامر شيءٌ بل كنت مسرورًا باني صرت اقدر ان ارسم رسومًا افضل من الاولى وهكذا كان لانهُ لم يمضِ عليَّ الَّا ثلاث سنوات حتى عوضت عن كل ما خسرتهُ

ومن قبيل ذلك ما اصاب اوراق السر اسحق نيوتن وذلك ان كلبهُ المسمَّى ديامند رمى عليها شمعة مشتعلة فاحترقت وتلاشى بذلك حسابات كبيرة كان قد تعب ذلك الفيلسوف سنين عديدة على استخراجها ويقال انهُ حزن من جرى ذلك حزنًا مفرطًا أثَّر في صحتهِ تاثيرًا بليغًا واضعف فهمهُ . ولقد حدث

ما يماثل هذا المجلد الاول من كتاب مستر كارليل في الثورة الفرنساوية وذلك ان جارًا له استعار هذا الكتاب ليطلع عليهِ فحدث انهُ القاهُ في ارض القاعة ونسيهُ هناك وبعد مدةٍ ارسل المؤلف في طلبهِ ليطبعهُ فرد اليهِ الجواب ان الخادمة وجدتهُ ملقًى على الارض فظنتهُ رزمة ورق لا منفعة لها واخذت تضرم النار بهِ . فمن يقدر ان يتصوَّر مقدار الانزعاج الذي اصاب ذلك المؤلف عند ما سمع بهذا الخبر . ولم يكن عندهُ شيءٌ من اصلهِ فالتزم ان يجهد ذاكرتهُ ويؤلفهُ ثانيةً فتعب في ذلك تعبًا لا يوصف ولا يصدَّق ولكنهُ الَّفهُ ثانيةً وتأليفهُ اياهُ في مثل تلك الاحوال يشهد لهُ بما تفرد بهِ من قوة العزم وعلو الهمة

ومما يظهر قوة المواظبة باكثر ايضاح حياة المخترعين . روى بعضهم انهُ كان من عادة جورج ستفنسن ان يقول للشبان عندما ينصح لهم افعلوا كما فعلت اي واظبوا . قيل انهُ بقي يحسّن في مركبة البخار البرية التي اخترعها خمس عشرة سنة قبلما فازت بالسبق . اما جمس وط فقضى في عمل آلتهِ البخارية ثلاثين سنة قبلما اتمها . وللمواظبة امثلة كثيرة مدهشة في كل نوع من العلوم والصنائع ومن الذها الحوادث المتعلقة باستخراج آثار نينوى واكتشاف قراءة الكتابات السفينية او السهمية المرسومة عليها وقد فُقِدَت قراءتها من العالم منذ عصر الاسكندر اما كيفية اكتشافها فكما ترى

كان في قرمان شاه من بلاد فارس جندي انكليزي اسمهُ رولنصن (وقد لقب بعد ئذٍ بلقب سر) من شراكة الهند الشرقية فرأى كتابة سفينية قديمة في جوار قرمان شاه فنسخها وكان من جملة ما نسخهُ الكتابة المرسومة على صخر بهستون وهو شاهق يبلغ ارتفاعهُ الف وسبع مئة قدم وعلى سفحهِ كتابات بالفارسية والسكيثيانية والاشورية ومن مقابلة المجهول بالمعلوم من هذه الكتابات عرف شيئًا من مجهولها وركَّب حروفها الهجائية . ثم ارسل رسم ما نسخهُ الى انكلترا لكي يطلع عليهِ رجال العلم ويجيلوا فيهِ نظرهم . ولم يكن حينئذٍ احدٌ من اساتيذ المدارس الاوربية عرف شيئًا من امر هذه الكتابة . الّا ان رجلًا اسمهُ نورِس كان سابقًا كاتبًا في محل الشراكة المتقدم ذكرها وقد انتبه الى هذه الكتابة وجعلها درسهُ ونجح في حلها بعض النجاح واطّلع على الرسم الذي رسمهُ رولنصن ورغب ان امعن فيهِ نظرهُ قال ان في نسخهِ بعض الخطاء مع انهُ لم ينظر صخر بهستون قط وكان رولنصن لم يزل بجوار ذلك الصخر فراجع الرسم فرأى ان نورِس مصيب في تخطئتهِ رسمهُ فاصلحهُ . ثم قام رجل ثالث اسمهُ أُستن لَيَرْد واحضر لهما شيئًا كثيرًا من هذه الكتابة لكي يتسع بحثهما . كان ليرد كاتبًا عند فقيهٍ بلندن . ولما كان لهُ من العمر اثنتان وعشرون سنة طاف المشرق قاصدًا ان يقطع الاراضي الواقعة عبر الفرات وليس معهُ سوى رفيق واحد فمر في وسط قبائل كثيرة متحاربة

ولم ينلهُ منهم اذًى ولم يكن معهُ ما يحميهِ منهم سوى قوة ذراعهِ وطلاقة وجههِ وانس محضرهِ وعلو همتهِ وسداد رايهِ وقوة عزمهِ وشدَّة صبرهِ فوصل الى اطلال نينوى ونقبها واستخرج منها كنوزًا تاريخية جزيلة الفائدة لم يستخرج مقدارها انسان واحد قط لانها لو وُضِعت قطعها الواحدة حذاء الاخرى لاشغلت مساحة ميلين مربعين فنُقِلَت نفاية هذه الآثار الى لندن ووُضِعَت في محل التحف البريطاني وقُرِئَت فاذا بها تتفق اتفاقًا غريبًا مع نص الكتاب المقدس في حوادث جرت من مضي ثلاثة آلاف سنة ونيف فكانت كانها وحي جديد للبشر . ولم يكتفِ ليرد المذكور باستخراج هذه الآثار بل الَّف فيها كتابًا جليلاً صادق الرواية حسن الانسجام يشهد بعلو همتهِ وكثرة اقدامهِ

بوفون الذين كانوا مثالاً للصبر والاجتهاد بفون الشهير الذي قال ان الموهبة الفائقة هي الصبر . كانت قوى هذا الرجل العقلية في حداثتهِ متوسطة بل خاملة تقريبًا وكان كسلان طبعًا وعرضةً لعيشة الترف لانهُ كان من قوم ذوي ثروة ووجاهة الَّا انهُ قد اقلع عن ذلك في حداثتهِ ولم يعطِ نفسهُ هواها بل انكر عليها لذَّاتها وانعطف على الدرس حاسبًا الوقت كنزًا محدودًا . ولما رأى انهُ يضيع ساعات عديدة بعدم قيامهِ باكرًا عزم ان يبطل هذه العادة واجتهد وقتًا طويلاً على كسرها ولكنهُ آلَا دون ذلك جهدًا ولم يقدر على القيام في الساعة التي عيَّنها فاستعان

بخادمهِ ووعدهُ ان يعطيهُ ريالاً في كل يوم يقيمهُ فيهِ قبل الساعة السادسة صباحًا الَّا انهُ كان عند ما يدعوهُ للقيام يدَّعي انهُ مريض او يظهر الغضب فلم يرَ الخادم انهُ ربح شيئًا سوى التوبيخ من سيدهِ لانهُ لم يقمهُ باكرًا . فعزم ان يكسب الريال على اي وجهٍ كان فالحَّ عليهِ يومًا ان يقوم فلم يقم فاتى بماء مبرد بالثلج وسكبهُ في فراشهِ فنهض لوقتهِ فلما رأى الخادم انهُ نجح بهذه الواسطة واظب على استعمالها الى ان اعتاد سيدهُ على القيام باكرًا وكان يقول انهُ مديون لخادمهِ بثلاثة او اربعة مجلدات من كتابهِ التاريخ الطبيعي

وكان هذا العلَّامة يشتغل في الدرس والتأليف احدى عشرة ساعة كل يوم مدة اربعين سنة الى ان صار ذلك فيهِ ملكة راسخه . قال مؤرّخ حياتهِ ان الشغل من لوازمهِ والدرس من لذَّات حياتهِ ولم يكن يتعب من تهذيب كتاباتهِ فكان ينقحها مرارًا كثيرة لكي يجعل عبارتهُ بسيطة طلية . ومن كتبهِ ما كتبهُ احدى عشرة مرةً قبلما حسبهُ اهلاً للنشر . وكان مع علو همتهِ كثير الترتيب والتدقيق ومن قولهِ ان الموهبة بلا ترتيب تخسر ثلاثة ارباع قوتها . وكل ما حصلهُ انما حصَّلهُ بتعبهِ واجتهادهِ .

قالت مادام نكر ان بفون كان يقول ان ما يُدعَى موهبة فائقة ليس الَّا حصر الفكر في موضوع واحد وانهُ كان يل عند ما يكتب شيئًا المرة الاولى ولكنهُ كان يلزم نفسهُ ويعيد ما كتبهُ ثم

يعيدهُ ثانيةً وثالثةً واخيرًا كان فيجد في تنقيحهِ وتهذيبهِ لذةً عوضًا عن التعب . اه . ومن المعلوم انهُ أَلِفَ كل ما أَلِفهُ وبهِ داءُ اليم من اشد الادواء المعرض لها الجسم الانساوي

وبين الشعراء والادباء رجال كثيرون امثلة للمواظبة منهم السر ولتر سكوت الشاعر الاسكتسي الشهير الذي تمرن على الشغل وهو كاتب او بالحري ناسخ عند مشترع وكان عملهُ من نسق واحد فسئمهُ وخصَّص كل ساعات المساء بالدرس والمطالعة وكان ما يحصّلهُ من صناعة النساخة ستين بارة على كل صفحة تحتوي عددًا معلومًا من الكلمات واحيانًا كان ينسخ مئة وعشرين صفحة في اربع وعشرين ساعة فياخذ عليها ثلثين شلنًا فيشتري بها كتابًا مما لا يستطيع ابتياعهُ لولا ذلك

وكان من عادتهِ بعد ان تقدم في السن والشهرة ان يفتخر بكونهِ كثير العمل ويناقض القائلين ان اهل الموهبة الفائقة لا يضطرُّون الى اتمام الواجبات اليومية وجزم ان الافضل ان يصرف كل قسم من الوقت في اتمام عمل ما مرتئيًا ان ذلك يعين القوى العقلية . ولما دخل مجلس اسكوتسيا العالي كان يؤلف كل ما يريد تأليفهُ من نظم ونثر قبل الغداء ويصرف بقية النهار في المجلس . والظاهر انهُ كان يصرف نصف وقتهِ فقط في التصنيف والنصف الآخر في القيام بواجبات منصبهِ لانهُ حكم على نفسهِ ان يحصّل معيشتهُ مما يعملهُ لا مما يؤلّفهُ . وقال ذات مرة انني عقدت

قلبي ان اجعل التاليف قضيباً امسكهُ بيدي والعمل عكازاً اتوكأُ عليهِ وان لا اعتمد في معيشتي على ما اربحهُ من التأليف ولو كان كثيرًا

اما التدقيق في الوقت فكان ملكة راسخة فيهِ ولولاهُ ما امكنهُ ان يصنف كل ما صنّفهُ فقد جعل لنفسهِ قاعدةً ان يجيب كل كتاب يرد اليهِ في اليوم الذي يرد فيهِ ما لم يكن فيهِ شيء يقتضي تاخير الجواب ولولا ذلك ما امكنهُ ان يجيب المكاتيب الكثيرة التي كانت ترد عليهِ . فكان ينهض من فراشهِ الساعة الخامسة اي قبل الظهر بسبع ساعات ويصرف ساعة في الحلاقة واللبس المرتب ويجلس في مكتبتهِ الساعة السادسة واوراقهُ وكتبهُ مرتبة امامهُ اكمل ترتيب فياخذ في اشغالهِ الى ان يجتمع اهل بيتهِ للغداء بين الساعة التاسعة والعاشرة وكان يكتب في غضون ذلك ما يكفي لكسر رقبة شغل النهار كما كان يقول ومع كل جدهِ واجتهادهِ وعلمهِ الجزيل الذي هو نتيجة درس سنين عديدة كان دائمًا ينسب الى نفسهِ قصر المعرفة وضعف القوى العقلية . وقد قال من فمهِ ان جهلهُ كان يعرقلهُ في كل عمل اخذ فيهِ . وهذه هي الحكمة الحقيقية والاتضاع الحقيقي لانهُ كلما ازداد الانسان معرفةً قلَّ اعتدادهُ بنفسهِ . قيل ان احد الطلبة ذهب الى استاذهِ واستاذنهُ بالانصراف بناءً على انهُ قد اكمل دروسهُ فاجابهُ الاستاذ اني ارى عجبًا في ما تقول لانني انا اراني قد ابتدأت في

دروسي الآن . وكل مَنْ لم يرتشف الاَّ اليسير من بحار المعارف يعد نفسهُ غالبًا قد بلغ من الحكمة اقصاها واما الحكيم الحقيقي فيقر على روُوس الاشهاد ان كل ما يعرفهُ هو انهُ لا يعرف شيئًا او كما قال نيوتن انهُ كجامع اصداف على شاطئ بحر الحقائق

وفي المؤَلفين الذين يعدُّون من الطبقة الثانية امثلة كثيرة للمواظبة منها حياة جون برتون موَلّف كتاب "بدائع انكلترا ويلس" فانهُ ولد في كوخ حقير في كستون من ولتشير وكان ابوهُ خبازًا وقد جُنَّ بسبب خسارة مالية لحقتهُ حينما كان برتون صغيرًا فلم تكن الاحوال مساعدة لهُ ليتعلم العلوم بل ليتعلم الخصال الذميمة ولحسن الاتفاق لم تنفسد اخلاقهُ . وقد وُضع وهو حدث عند عمهِ الذي كان فاتحًا حانًا فبقي عندهُ خمس سنوات ونيف وصناعتهُ فتح القناني وصب المسكرات ثم مرض فتركهُ عمهُ ليهيم على وجههِ وفي جيبهِ ليرتان فقط وهما نتيجة الخمس سنوات التي خدمهُ فيها فمضى عليهِ وهو على هذه الحال سبع سنوات قاسى فيها مشقات لا توصف الاَّ انهُ سعى فيها وراء المعرفة فقد قال في تاريخ حياتهِ "انني كنتُ نازلاً في منزل حقير ولم يمكني ان اشتري وقودًا في ليالي الشتاء فكنتُ ادرس في فراشي". ثم سافر الى باث ماشيًا وبعد ان اقام فيها برهة رجع الى لندرا حافيًا عاريًا . ثم وجد عملاً في حان لندن وكان هذا العمل في دهليز تحت الارض فاثَّر في صحتهِ تاثيرًا شديدًا لانهُ كان يعمل فيهِ عملاً شاقًا ثماني عشرة ساعة كل

يوم فتركهُ ودخل كاتبًا عند رجلٍ فقيهٍ وكان ياخذ خمسة عشر شلنًا كل اسبوع لانهُ كان قد اتقن الكتابة فصار يمكنهُ ان يتردد على مخازن الكتب في ساعات الفراغ ويقرأ ما لا يستطيع ابتياعهُ من الكتب فاقتطف كثيرًا من ثمار المعرفة ولما دخل في الثامنة والعشرين من العمر كتب كتابًا سماهُ مساعي بيزارو ومن ثمَّ عكف على التاليف والتصنيف ودام على ذلك خمسين سنة اي الى ان ادركتهُ الوفاة . ومؤلفاتهُ المطبوعة تنيف على سبعة وثمانين كتابًا اشهرها كتاب آثار كنائس لندن في اربعة عشر مجلدًا وهو تذكار لا يضمحل لاجتهادهِ ومواظبتهِ

ومما يجري هذا المجرى حياة لودُن البستاني الذي كان يدرس ليلتين كاملتين كل اسبوع وهو صانع عند بستاني فتعلم اللغة الفرنساوية وترجم حياة ابيلَرْد قبل ان بلغ الثامنة عشرة وكان مع ما ذُكِر ذا رغبة شديدة في النجاح حتى انهُ لما بلغ العشرين من عمرهِ كتب في مفكَّرتهِ " الآن قد بلغت السنة العشرين وربما ان ثلث حياتي قد مضى ولكن ما هو العمل الذي عملتهُ لافادة بني البشر " أَفليس ذلك بمستغرب من شاب في هذا السن . وبعد ان اتقن الفرنساوية درس الجرمانية واتقنها في برهة وجيزة واقتنى ارضًا واسعة واستعمل فيها الاصلاحات الاسكُتسية في فن الزراعة فنجح واثرى في وقتٍ قصير . ثم ساح في ممالك اوربا مرتين لكي يطلع على احوالها الزراعية وكتب نتائج

سياحتهِ في انسكلو بيدياتهِ الشهيرة التي تتضمن ما جمعهُ باجتهادهِ العديم النظير

ومما يماثل ذلك ايضًا حياة صموئيل درو . فهذا كان ابن فاعل فقير الحال من سنت أُستل في كورنول وكان لهُ اخ اكبر منهُ يدعى جابز فوضعهما ابوهما في مدرسة صغيرة وكان يدفع عليهما اربعين بارة كل اسبوع فافلح جابز في دروسهِ وكان هادئًا فطنًا واما صموئيل فلم يفلح بل كان مشهورًا بطيشهِ ومحبتهِ للعب فلما بلغ الثامنة من عمرهِ اخرجهُ ابوهُ من المدرسة ووضعهُ في معدن قصدير باجرة ثلاثين بارة كل يوم ولما بلغ العاشرة وُضع عند اسكاف ليتعلم صناعة السكافة فلقي منها ما لا يقدَّر من التعب حتى انهُ عزم مرارًا كثيرة على الهرب واتّباع القرصان وكان يتقدم بالشقاء مع تقدمهِ في السن فاشتهر بسرقة الجنائن وتهريب الامتعة ولما بلغ السابعة عشرة هرب من معلمهِ عازمًا ان يدخل في خدمة سفينة حربية ولكنهُ لم يبلغ مأربهُ . ثم انتقل الى جوار بليموث وشرع يعمل في حرفتهِ السكافة . وبينما هو هناك وقع في خطر فقد حياتهِ بسبب التهريب من الگمرك والذي حملهُ على ارتكاب هذا الامر القبيح محبة اقتحام المخاطر والامل بالربح لانهُ لم يكن يحصّل بحرفتهِ اكثر من ثمانية اشلان في الاسبوع . اما تفصيل هذه الحادثة فكما ترى . وردت في احد الايام اخبار الى كرفنهول ان سفينة تهريب مقبلة وقد قاربت البر فهرع جميع رجال المكان

الذين صناعتهم تهريب البضائع في فريقين فريق بقي على الشاطئ لينذر بالخطر ويقتبل البضائع وفريق ركب القوارب التي كانت هناك وبينهم درو وكانت الظلمة حالكة جدًّا . وقبل ان انزلوا قسمًا كبيرًا من الشحن عصفت الرياح وتعالت الامواج الّا انهم كانوا متعوّدين اقتحام المخاطر فلم يرعهم ذلك بل عزموا على تفريغ الشحن كلهِ وفيما هم كذلك اطارت الريح قبع احد رجال القارب الذي فيهِ درو فمال لكي يمسكهُ ففقدت موازنة القارب وقلب فغرق ثلاثة من رجالهِ والتصق الباقون بهِ ولكنهم وجدوا انهُ اخذ في التوغل في البحر فتركوهُ وشرعوا في السباحة وبينهم وبين الشاطئ نحو ميلين . وبعد ثلاث ساعات وصل درو الى صخر بجانب الشاطئ مع ثلاثة من رفاقهِ وبقوا عليهِ الى الصباح وقد كادوا يموتون بردًا فعلم بمكانهم بعض رفقائهم فاتوا اليهم وسقوهم شيئًا من العرق الذي هرّبوهُ فافاقوا . أيُصَدَّق ان هذا الاسكاف الذي صرف شبابهُ في السرقة وتهريب البضائع صار مبشرًا فاضلاً ومؤلفًا بارعًا لكن هذه هي واقعة الحال فان اباهُ سمع بما هو عليهِ وارجعهُ الى سنت أُستل فصار يسمع مواعظ الدكتور آدم كلارك فاثرت فيهِ تاثيرًا بليغًا ثم مات اخوهُ فزاد موتهُ في تحويل افكارهِ عن الجهل والطيش الى التعقُّل والرزانه. وكان قد نسي ما تعلمهُ في صغرهِ من القراءة والكتابة فاخذ يدرس باجتهاد وبعد تعب سنين عديدة اتقن القراءة والكتابة

بعض الانتقان ثم اخذ يطالع الكتب الكثيرة ويقتبس مما فيها من الفوائد . ومما قاله عن حالهِ حينئذٍ انني كلما اكثرت المطالعة كثر شعوري بجهلي واشتدت رغبتي في المطالعة وكنت استغنم كل فرصة للدرس وكان الوقت الذي يمكنني ان اخصصهُ بهِ قصيرًا جدًّا لاني كنتُ مضطرًّا ان اعمل كل النهار لاجل تحصيل ما يقوم باودي فكنتُ افتح كتابًا امامي وقت الاكل فاقرأُ في وقت كل وجبة نحو خمس صفحات . اه . ونحو ذلك الوقت قرأ مقالة لوك في الفهم فكانت اول باعث على توجيه افكارهِ الى المتافيزك (ما فوق الطبيعيات) ونزع ما فيها من الخساسة والوهم

ثم شرع يعمل في حرفتهِ وحدهُ لانهُ كان كل هذه المدّة صانعًا عند اسكاف وكان راس مالهِ دريهمات قليلات الّا ان احد جيرانهِ وكان طحانًا عرض عليهِ شيئًا من المال قرضةً فقبلهُ منهُ واشترى الادوات اللازمة واخذ في عملهِ ولم تمضِ عليهِ سنة حتى وفاهُ وكان قصارى مرغوبهِ الاستقلال في العمل والاقتصاد حتى كان ينام احيانًا بلا عشاء مخافة ان يصبح عليهِ دين . ولم ينسَ تهذيب عقلهِ فاكثر من المطالعة ودرس الفلك والتاريخ والمتافيزيك وعكف بالاكثر على المتافيزيك لان كتبهُ اقل من كتب الفلك والتاريخ وقد قال انني اعلم ان هذا المسلك خشن لا يسلكهُ من كان مثلي ولكنني عازم على الولوج فيهِ . ثم زاد على

السكافة والمتافيزيك الوعظ والبحث في المسائل السياسية فاضحى حانوتهُ ناديًا لرجال السياسة من اهل قريتهِ حتى اذا انقطعوا عن المجيء اليهِ ذهب اليهم . فانهمك في ذلك وايّ انهماك واضاع قسمًا كبيرًا من وقتهِ حتى كان يضطر ان يعمل الى نصف الليل لكي يعوّض عمّا اضاعهُ في النهار. فحدث ذات ليلة انهُ كان يطرق نعلاً في حانوتهِ فمرّ بهِ ولد صغير ووضع فمهُ في ثقب المفتاح وصرخ "يا اسكاف يا اسكاف اشتغل في الليل ودُر في النهار" . قال درو فيما بعد انهُ لو أُطلِقت طبنجة حينئذٍ بجانب اذني ما كنت انتبهت اليها اكثر مما انتبهت الى صوت ذلك الولد فطرحتُ النعل من يدي وقلتُ في نفسي لقد اصاب فلا بد من ان اترك هذه العادة حتى لا ادعهُ يقول مثل ذلك مرةً اخرى ما دمتُ حيًّا. ولا ريب عندي ان هذا الصوت من الله فتعلمتُ منهُ ان لا اترك للغد ما يمكنني عملهُ اليوم ولا اتكاسل في عملي ابدًا اه . ومن تلك اللحظة طرح السياسة جانبًا وعكف على عملهِ صارفًا اوقات العطلة في الدرس والمطالعة ثم تزوج ومال الى القريض بعض الميل وكانت مكتبتهُ المطبخ وطاولتهُ المنفخ . وفي ذلك الوقت انتشر كتاب پين المعنون بعصر العقل ووقع عند البعض موقعًا حسنًا فالّف درو رسالة ردًّا عليهِ نقض فيها كل ادلتهِ وكان يقول بعد ذلك ان عصر العقل صيّرهُ مؤلفًا ثم كتب عدة رسائل ونشرها ومنها كتابهُ الشهير في جوهرية النفس وخلودها كتبهُ

وهو يعمل في حرفة السكافة وباعهُ للطبع بعشرين ليرا حاسبًا ذلك ثمنًا كبيرًا . وقد طُبِع هذا الكتاب مرارًا عديدة ولم يزل معتبرًا الى يومنا هذا . اما هو فلم يغترّ بما صادفهُ من النجاح ولم ينتفخ ككثيرين من المؤلّفين الاحداث بل بقي يعمل في حرفتهِ حتى بعد ان اشتهر بالتأليف وكان يكنس امام باب دكانهِ بيدهِ ولم يتوقع ان يعيش من قلمهِ بل من مخرزهِ وابرتهِ على انهُ اعتمد ان يخصّص كل اوقات العطلة للقراءة والتاليف ولكنهُ زاد علمًا وشهرةً حتى استخدمهُ البعض منشئًا لاحدى الجرائد ومحرّرًا لبعض الكتب وكان يكتب في جريدة الاكلكتك وألّف تاريخًا لوطنهِ وكتبًا اخرى وكان يقول حتى آخر دقيقة من حياتهِ اني خرجت من ادنى الدرجات واجتهدت دائمًا على البلوغ الى اعلاها بالاجتهاد والاقتصاد والاستقامة وقد وفقتني العناية الالهية وكلّلت مساعيَّ بالنجاح

وممّن اشتهروا بالمواظبة يوسف هيوم الذي مع ان قواهُ العقلية كانت معتدلة فاق مَنْ سواهُ بالاجتهاد والحزم والمروءة فان اباهُ مات وهو ولد صغير فعالتهُ امهُ بتعب يديها ووضعتهُ عند جرّاح ليتعلم الجراحة فتعلّم وسافر الى الهند مرارًا عديدة (١)

(١) لما كان هيوم جرّاحًا في السفن تعلم سلك البحر من نفسهِ فعاد عليهِ بالنفع بعد سنين كثيرة وذلك انهُ سافر مرةً من لندن الى ليث وصادف السفينة التي كان فيها نوء شديد وجُنّ الناخذاة (القبطان) فاستلم هو ادارة السفينة ونجاها من الغرق

جرّاحًا في السفن ثم دخل في خدمة الشركة الهندية فقام بواجب خدمتهِ بكل نشاط ونال اعتبار من هم اعلى منهُ فرفعوا مرتبتهُ. وسنة ١٨٠٢ ادخل في فرقة من الجند تحت قيادة الجنرال بُول في حرب مهرتّا فمات الترجمان فاقيم مقامهُ لانهُ كان قد درس اللغات الهندية واتقنها ثم جُعِل رئيسًا لاطباء الجند واخذ ايضًا رياسة البريد ودفع المال وتعهَّد بتقديم المؤَن للجنود وقام بواجب هذه الاعمال كلها وبعد ان قضى نحو عشر سنين في العمل المتواصل رجع الى انكلترا بمال وافر وكان اول شيء عملهُ ان اعطى فقراء عائلتهِ ما يكفيهم . ولم يكن ممن يتمتعون بنتيجة اتعابهم بالكسل والتراخي بل كانت لذتهُ العظمى في انصبابهِ على العمل فطاف في كل مدن المملكة الصناعية لكي يطلع على حالتها الادبية والمادية ثم طاف في البلدان الاجنبية لكي يطلع على احوال صنائعها ومعاملها ورجع الى بلادهِ ودخل البرلمنت سنة ١٨١٢ ودام فيها نحو اربع وثلاثين سنة واول خطاب مدوَّن القاهُ في البرلمنت كان في التعليم العمومي . وفي كل مدة عضويتهِ كان مهتمًّا في هذه المسئلة وغيرها مما يؤول الى رفع شان الامة كاصلاح السجون والقصاصات واقامة بنوك الاقتصاد وحرية التجارة والاقتصاد في النفقات وامتداد العلاقات وما اشبه . ولم يتعرض لموضوع الَّا افرغ فيهِ جهدهُ ولم يكن فصيح اللسان الَّا انهُ كان لكلامهِ وقع عظيم لان السامعين حسبوهُ كلام رجل مستقيم مدقق وكثيرًا ما

كانوا يضحكون عليهِ ويهزأون بهِ ويغلبونهُ باكثرية الاصوات ولكنهُ كان يدافع عن آرائهِ بحماسة شديدة فتحصل الفائدة من كلامهِ ولو كان الحكم ضدهُ . وكانت اعمالهُ كثيرة جدًّا فكان يقوم قبل الظهر بست ساعات ويكتب مكاتيبهُ ويهيئ اوراقهُ للمجلس ويتناول غداهُ ويقابل نحو عشرين ممن لهم اشغال معهُ ثم يذهب الى المجلس وكثيرًا ما كان اجتماع المجلس يمتد الى الساعة الثالثة بعد نصف الليل فكان يلازمهُ من اولهِ الى آخرهِ . والخلاصة انهُ باشر اعمالاً عظيمة وواظب عليها سنين كثيرة وكثيرًا ما كان يقوم كل اعضاء المجلس ضدهُ ويهزأون بهِ ويغلبونهُ ولكنهُ لم ينثنِ عن عزمهِ ولا خارت قواهُ ولا ضعفت آمالهُ . وقد عاش حتى رأى الجميع يسلمون باكثر مبادئهِ ويعملون بها وهذا من اعظم ما جاءَت بهِ ترجمات البشر واكبر الادلة على قوة المواظبة

الفصل الخامس

في المساعدات والفُرَص

قال الفيلسوف باكون . لا يقدر العقل ولا اليد اذا تركا وحدهما ان يفعلا كثيرًا ولا يتم عمل الاَّ بادوات ومعونات يحتاج اليها العقل كما تحتاج اليها اليد

وقيل في اللاتينية . ان الفرصة عجوز هرمة قد تناثر شعر قذالها وتكاثر شعر ناصيتها فان ابتدرتها من قُبل مسكتها واذا تركتها حتى جاوزتك لم تقدر على مسكها انت ولا زفس نفسهُ

الصدفة لم تفعل كثيرًا في النتائج العظيمة . والاجتهاد الطريق الوحيد السليم للنجاح الاكيد . يحكى ان المصوّر الشهير ولسن كان اذا صوّر صورة بعُد عنها قليلاً ووضع قلمًا في راس عصا طويلة واحدق بنظرهِ الى الصورة ثم لمسها براس القلم لمسات قليلة فزادت بهاءً ورونقًا ولكن ما كل مَنْ وضع قلمًا في راس عصا يقدر ان

يفعل كما فعل ولسن الان ولسن لم يبلغ هذا المبلغ الاَّ بعد تعب سنين عديدة. فمن حاول ذلك ولم يكن متمرنًا كان خطاهُ اكثر من صوابهِ

الانتباه الشديد والاجتهاد الدائم صفتان لازمتان للعامل الحقيقي. والرجال العظام لا يغفلون عن امرٍ مهما كان صغيرًا ولا يملون من التعب والتكرار. حكي ان الشهير ميخائيل انجلو كان مرة يبين لاحد اصحابهِ ما فعلهُ في تمثال كان امامهُ بعد زيارة صاحبهِ هذا السابقة فقال انني قد رفعتُ هذا الجزء وخفضتُ ذاك ودققت هذا وغلظتُ ذاك فقال صاحبهُ ولكن ذلك امرٌ طفيف جدًا فقال لعلك مصيب في ما قلت ولكن اعلم ان الكمال مجموع من امور طفيفة وان لم يكن طفيفًا. ويروى ان المصور نقولا بوسن كان واضعًا دستورًا لاعمالهِ وهو ان كل ما يستحق ان يعمل يجب ان يعمَل جيدًا وقيل انهُ بعد ان تقدم في السن سالهُ صاحبهُ ڤغنل ده مرڤيل بمَ حصلتَ هذا الاسم العظيم بين مصوري ايطاليا فاجابهُ على الفور بعدم اهمالي شيئًا

ومن الاكتشافات ما يُنسَب الى الصدفة ولكننا اذا امعنا النظر وجدنا انهُ قلما يوجد فيها ما يستحق ان ينسب الى الصدفة ويمكننا ان نقول ان ما يدعى صدفةً ليس الاَّ فرصة مناسبة استغنمها اولو الدراية. ومن هذه الاكتشافات التي ينسبها البعض الى الصدفة سقوط التفاحة امام نيوتن ولكن ألا يعلم هولاء ان

عقل نيوتن كان مشتغلاً قبل ذلك بسنين عديدة في البحث عن سبب الثقل وكان سقوط التفاحة وسيلة لاهتداء افكاره الى حقيقة هذا الموضوع . ومَنْ ظن ان فقاقيع الصابون تقود الفيلسوف بن لاكتشافه المتعلق بانحلال النور . والمعارف ان الرجال العظام لا يلتفتون الا الى الامور العظيمة وليس ذلك بسديد لان نيوتن وبن كانا يلتفتان الى الامور الصغيرة كما الى الكبيرة وهما من اعظم رجال الدنيا

من اكبر علل التفاضل بين الناس عدم تساويهم في الملاحظة قال المثل المسكوبي ان عديم الملاحظة يطوف الغابات ولا يرى فيها خشباً يصلح للوقود وقال الجامعة الحكيم عيناه في راسهِ اما الجاهل فيسلك في الظلام وقال السر جونسن لظريف عند رجوعهِ من ايطاليا قد يستفيد البعض من مرسح همستد اكثر مما يستفيد غيرهم من سياحة كل اوربا . وحيثما لا يرى الجهال شيئاً يرى العقلاء اموراً كثيرة ويخترق نظرهم ما امامهم من الحوادث ويرون ما بينها من المشابهة والمخالفة ويقيسون بعضها على بعض ويعرفون اسبابها . مثلاً ان كثيرين قد رأَوا ثقلاً معلقاً بحبل يتحرك الى امام والى وراء ولكن ما منهم من استنتج من ذلك شيئاً سوى غاليليو فانهُ رأى يوماً قنديلاً يتحرك في قبة كنيسة بيزا فانتبه اليهِ مع انهُ كان فتي في الثامنة عشرة وما زال يعمل فيهِ فكرتهُ مدة خمسين سنة حتى استتب لهُ ان يستخدم حركتهُ لقياس

الوقت وما من احد من رجال العلم ينكر اهمية هذا الاختراع
او يغبس به اختراعًا آخر . وقد سمع غاليليو مرةً ان انسانًا هولنديًّا
اسمهُ ليبرشي صانع عوينات اهدى للكونت موريس آلةً اذا نظر
بها الى الاشباح البعيدة بانت قريبة فاشتغل في هذا الموضوع
وما زال يعمل فكرتهُ فيهِ حتى اصطنع التلسكوب الذي هو اساس
علم الهيئة الحديث . فلا يمكن لاحد ان يكتشف اكتشافات مثل
هذه ما لم يكن شديد الانتباه

قيل ان السر صموئيل برَوْن كان يتامل كثيرًا في اقامة
قنطرة لنهر تويد تكون متينة وقليلة النفقة فحدث في احد الايام
انهُ شاهد عنكبوتة مادّة خيطها من شجرة الى اخرى وكانت تسير
عليهِ كما على جسر فخطر على بالهِ انهُ يمكن ان تصنع حبالٌ او
سلاسلُ من حديد وتعلق من جانب الى آخر فيكون منها جسر
متين رخيص فاصطنع الجسر المسمّى بالجسر المعلق على هذا المبدإِ
وقد تعلم السر ايسمبرت برنل طريقة عمل السرداب المشهور تحت
نهر التمس من الأَرَضة التي تنقر الخشب بشفريها وتدهن الازج
الذي تنقرهُ بمادة لزجة القوام فمثّل هذا العمل تمامًا واحتفر ذلك
السرداب العجيب

والرجل النبيه يستفيد من الحوادث التي يراها مهما كانت
طفيفة أَلا ترى ان كولمبس مكتشف اميركا سكّت شغب رجالهِ
واقنعهم انهم مصيبون برًّا بعد قليل اذ رأى شيئًا من العشب

طافيًا على وجه الماء . وما من امرٍ الاَّ لهُ شيء من المنفعة مهما كان طفيفًا . فعلى بال مَن خطران اكثر الجبال والصخور الكلسية بنتها حيوانات صغيرة لاتدرك الاَّ بواسطة المكرسكوب . فليس بعجيب اذا تولدت الكبائر من الصغائر ونجمت النتائج العظيمة من المبادئِ الطفيفة بل ان سرّ تقدم العلوم والفنون والصنائع والحرف هو ملاحظة الامور الدقيقة الطفيفة . وجميع العلوم مؤلفة من مجموع ملاحظات الاجيال السالفة والحاضرة مع ان كثيرًا من هذه الملاحظات بان في اول الامر طفيفًا لاطائل تحتهُ وربما بقي زمانًا طويلاً بدون ان تنتج منهُ فائدة . ألا ترى ان علم قطع المخروط الذي وضعهُ ابولونيوس برجيوس بقي اكثر من عشرين قرنًا قبل ان استخدم لشيء اما استخدامهُ فكان في علم الفلك الذي لا ينكر احد فائدتهُ في امور كثيرة ولا سيما في سالك البحار. ولو لم يتعب الرياضيون اجيالاً عديدة في معرفة نسبة الخطوط والسطوح بعضها الى بعض ما تمت كل الاختراعات الميكانيكية التي نراها في هذا العصر

✗ قيل انهُ لما اكتشف فرنكلين وحدة البرق والكهربائية قال لهُ البعض ازدراء ما منفعة هذا الاكتشاف فاجابهم انهُ سيشب كما يشب الطفل فترى منفعتهُ . وعلى بال مَن خطران اكتشاف كلفني حركة عضلات الضفدع اذا اتصل بها معدنان مختلفا النوع تنتج منهُ نتائج عظيمة مثل التلغراف الذي ربط العالم

بعضهُ ببعض كما تربط الاعصاب اعضاء الجسد او ان نقب قطع صغار من الحجارة والاحافير يولد علمين جليلين وهما علم الجيولوجيا وعلم المعادن وفوائد هذين العلمين اشهر من ان تذكر ولا سيما علم المعادن . والالات العظيمة التي تدبر المعامل وتمشي المراكب وتخرق الجبال وتعمل كل عمل صغيرًا كان او كبيرًا يتوقف فعلها على نقط صغيرة من الماء تمددت بالحرارة حتى صارت بخارًا وهي وان كانت صغيرة اذا حصرت في آلة فعلت بقوة تزيد على قوة ربوات من الخيل وهذه القوة نفسها تفعل في جوف الارض فتسبب براكينها وزلازلها

قيل ان مركيز وستر انتبه الى موضوع البخار لما كان مسجونًا في برج لندن من ملاحظتهِ ارتفاع غطاء اناء متضمن ماء غاليًا ثم بحث في هذا الامر طويلًا ودوّن كل ما لاحظهُ في كتابهِ المسمى عصر الاختراعات ثم قام سڤري ونيوكمن وغيرهما وسعوا في استخدام ملاحظات وستر فاصطنعوا الآلة البخارية واوصلوها الى الدرجة التي رآها فيها وط لما استدعي لاصلاح آلة نيوكمن الخاصة بمدرسة كلاسكو الجامعة كما تقدم . اما وط فلم يدع هذه الفرصة تذهب سدًى بل استغنمها فكانت باعثًا جعلهُ يصرف عمرهُ في اصلاح الآلة البخارية

واعلم ان استغنام الفرص ومراقبة الحوادث العرضية وتحويلها الى مقصد من المقاصد هي سر عظيم من اسرار النجاح ومَنْ قصد

النجاح في امرٍ لا بد من ان يجد فرصًا تيسر له ذلك الامر وان لم يجدها يوجدها بنفسهِ . وليس النجاح متوقفًا على الدرس في المدارس الكبيرة والانتظام في المجامع العلمية لان اكثر العلماء والمخترعين لم يكن لهم شيءٌ من هذه التسهيلات بل ان الصعوبات جعلتهم ان يفلحوا . وافضل الصناع لم يكن لهم ادوات مناسبة ليعملوا بها ولكن ليس الصانع بادواتهِ بل بحذاقتهِ ومواظبتهِ . قيل سأَل بعضهم اوبي المصور بمَ تمزج الالوان حتى تصير بديعة بهذا المقدار فاجابهُ على الفور اني امزجها بدماغي . وهذا شأن كل صانع ماهر . أَلاَ ترى ان فرغوسن صنع ساعة خشب ولم يكن معهُ من الادوات غير سكين صغيرة مما يوجد مع كل ولد ولكن ليس كل ولد فرغوسنًا . والدكتور بلاك اكتشف الحرارة المخفية بواسطة كوبة من الماء وثرمومترين فقط . والفيلسوف نيوتن حل النور وعرف اصل الالوان بواسطة موشور وعدسيات وقرطاس . قيل زار احد العلماء الدكتور وُلستون وطلب اليهِ ان يريهُ محل امتحاناتهِ الذي اكتشف فيهِ تلك الاكتشافات العظيمة فادخلهُ الى غرفة صغيرة واراهُ كوبة عتيقة فيها قليل من زجاجات الساعات واوراق الكشف وبجانبها ميزان صغير وبوري وقال لهُ هذه كل الآلات التي اعمل بها . وستوثرد تعلم صناعة تركيب الالوان من اجنحة الفراش وقد قال من فيهِ لا احد يعرف كم انا مديون لهذا الحيوان الصغير . ولكي شرع يتعلم التصوير وقلمهُ

فحمة وقرطاسة باب مذود . وبيوك تعلم الرسم وقلمهُ الطباشير وقرطاسة الابواب ايضًا . وفرغوسن عمل خارطة للاجرام السموية على هذه الكيفية وهي انهُ كان يذهب الى البرية ويلتحف بازار وينام على ظهرهِ ويقيس البعد النسبي بين جرم وآخر بواسطة سمط فيهِ عدة خرزات . وفرنكلين عرف ماهية الصاعقة بواسطة الطيارة . ووط استعمل حقنة صغيرة في مثال الآلة البخارية التي صنعها وجفُرد كان يحل المسائل الرياضية وهو صانع عند اسكاف على قطعة من جلد بعد ان يصقلها بالتطريق . ورتنهَوْس الفلكي كان يحسب الكسوفات والخسوفات اولاً على مقبض المحراث وحوادث الحياة التي اعتدنا على مشاهدتها يوميًا فيها ما يكفي الانسان من الفُرَص والوسائط اذا لم يتاخر عن استغنامها . فالاستاذ لي الشهير تحرك الى درس اللغة العبرانية اذ كان نجارًا برؤيتهِ توراةً في العبرانية في مجمع دعي اليهِ ليصلح مقاعدهُ فاشترى كتاب نحوٍ عتيقًا في العبرانية بثمن زهيد واخذ يدرس تلك اللغة بجد حتى اتقنها وصار مدرسًا فيها . قيل سال ديوكُ ارجيل ادمندَ ستون كيف امكنك وانت ولد فقير ان تقرأ كتاب الاصول لنيوتن في اللاتينية فاجابهُ اذا تعلم الانسان الحروف الهجائية امكنهُ ان يقرأ كل الكلمات المؤلفة منها . نعم ان الانصباب والاجتهاد والمواظبة واستغنام الفرص تمكن كل انسان من تعلُّم لغة ولو لم يعرف منها سوى الحروف الهجائية

ان السر ولتر سكت وجد سبيلاً لتوسيع معارفهِ في كل عمل اخذ فيهِ وكان يستفيد من كل حادثة ولو حدثت صدفةً فلما كان كاتبًا اضطرهُ عملهُ ان يزور البلاد العالية (في اسكتسيا) فتعرف بالابطال الذين خاضوا معامع الحروب القديمة واقتبس منهم اخبارًا كثيرة جعلها اساسًا لاكثرتآليفهِ . ثم لما تقدم في السن جُعل رقيبًا على جراية الفرسان في ادنبرج فاتفق لهُ ان فرسًا ابطأهُ فمنعهُ عن المشي فلازم بيتهُ مدة ولكنهُ كان مطبوعًا على عداوة الكسل فاخذ في التاليف فصنف الجزء الاول من شعرهِ المسمى اغنية المغني الاخير في ثلاثة ايام واتمهُ بعد ايام قلائل وهذا الشعر من اول مبتكراتهِ التي اشتهر بواسطتها . واول شيء نبه الدكتور بريستلي مكتشف الغازات الى موضوع الكيميا رؤيتهُ الوانًا مختلفة في الاقباس التي تنطفئ في الغازات الصاعدة عن السائلات المختمرة وعند ما لاحظ ذلك كان ابن اربعين سنة ولم يكن يعرف شيئًا من علم الكيميا فاخذ يفتش في الكتب عساهُ يجد سببًا لذلك لانهُ فلما كان يُعرَف من هذا الموضوع حينئذٍ فاعدَّ لنفسهِ بعض الادوات وشرع يمتحن بها وتدرَّج من امتحان الى آخر فاوجد علمًا قائمًا بنفسهِ هو الكيميا الغازية وفي ذلك الحين كان شيل الاسوجي يشتغل في هذا الموضوع في قرية من اسوج فاكتشف عدة غازات وليس لهُ من الادوات سوى قليل من القناني والمثانات . والسر همفري دافي امتحن امتحانات كثيرة وهو عند صانع صيدلي بواسطة

ادوات صغيرة جدًّا مثل المقالي والقدور والقناني وغير ذلك وحدث مرةً ان سفينة فرنساوية غرقت بقرب لندس اند ونجا جراحها فتعرف بداڤي واهداهُ حقنة عنيفة كان قد خلصها من الغرق ففرح بهذه الهدية فرحًا لا مزيد عليهِ واصطنع بها آلة لتفريغ الهواء استخدمها في البحث عن ماهية الحرارة ومصدرها . وكذلك الاستاذ فَرَداي خليفة السر همفري داڤي امتحن اول امتحان في الكهربائية بقنينة عنيفة وهو بعد صانع عند مجلد كتب ومن الغريب انهُ مال الى درس الكيميا بسماعهِ خطاب فيها من السر همفري داڤي في المدرسة الملكية وفي ذات يوم اتى الى حانوت معلمهِ رجل من عمدة تلك المدرسة فوجدهُ عاكفًا على درس الكهربائية في انسكلوبيذيا كان يجلدهُ وبعد البحث وجد ان لهُ رغبة شديدة في درس هذا العلم فاذن لهُ بدخول المدرسة فدخل وسمع فيها اربع خطب من السر همفري داڤي فدوَّن شيئًا من هذه الخطب واراهُ للخطيب فشهد بصحتهِ واندهل لما علم ان ذلك الشاب لم يكن سوي صانع عند مجلد كتب ثم ان فَرَداي اطلع السر همفري على قصدهِ وهو تخصيص نفسهِ بالعلوم الكيماوية فنهاهُ عن ذلك فلم ينتهِ بل لازم الدرس الى ان أُدخِل المدرسة معاونًا للسر همفري واخيرًا جلس صانع مجلد الكتب في منصب صانع الصيدلي (اي السر همفري) . ومما يستحق الالتفات الكلام الذي كتبهُ داڤي في مفكرتهِ وهو ابن عشرين سنة قال "ليس لي

ثروة ولا قوة ولا شرف لكن اذا فسح الله لي في الاجَل خدمت جيلي اكثر مما لو كنت غنيًّا قويًّا شريفًا" وكان لداڤي استطاعة على توجيه كل قوى عقلهِ الى الموضوع الباحث فيهِ والى كل متعلقاتهِ ومَنْ كانت هذه الصفة صفتهُ لابد من ان ياتي بنتائج كثيرة. قال كُلرِدْج في وصف داڤي ما معناهُ ان عقلهُ كسيف فيهِ صفتا المرونة والصلابة فلم ينبُ عن مسئلة الاَّ رجع اليها حالاً وفصلها كيف لا ولم يُعرض عليهِ مشكل الاَّ حلهُ وانار ظلمتهُ بنور حكمتهِ وبرهانهِ السديد/ اما داڤي فقال في كلردج ما مفادهُ انهُ شديد الذكاء واسع الفكر رحب الصدر ولكنهُ عديم النظام قليل التدقيق

وكوڤيه العظيم كان من اشد الناس انتباهًا واكثرهم اجتهادًا وتدقيقًا في الامور. قيل انهُ مال الى درس التاريخ الطبيعي وهو صبي صغير برؤيتهِ مجلدًا من كتاب بفون فاخذ من ساعتهِ في نقل الصور التي فيهِ وتلوينها حسب الشرح. ولما كان في المدرسة اهداهُ بعض معلميهِ كتاب نظام الطبيعة للينيوس النباتي فكان هذا الكتاب كل ما يملكهُ من الكتب في التاريخ الطبيعي مدة عشر سنين. ولما بلغ الثامنة عشرة جُعل معلمًا لاولاد عائلة ساكنة بقرب البحر واذ كان ماشيًا ذات يوم على شاطئِ البحر رأى اخطبوطة مطروحة على الشاطىء فاستغرب منظرها واخذها الى بيتهِ ليشرحها ومن ثمَّ شرع في درس الحيوانات الرخوة العلم

الذي اشتهر بهِ بعدئذٍ شهرة فائقة وكان كل يوم يرى اموراً جديدة فتتوفر فيهِ رؤيتها اكثر من صورها واوصافها . فمر عليهِ ثلاث سنوات قابل فيها بين الحيوانات البحرية والاحافير (ما يحفر من الاصداف والاسماك المتحجرة) التي في تلك النواحي وشرَّح كل حيوان بحري وصلت اليهِ يدهُ وبعد البحث المدقق اعدَّ طريقاً للاصلاح الكامل في ترتيب انواع المملكة الحيوانية . ونحو ذلك الوقت تعرَّف بالعالم الشهير الاب تسيه فكتب هذا الى اصحاب لهُ في باريس من جملتهم جسو يمدح كوڤيه ومعارفهُ الطبيعية وبالغ لهم في مدحهِ حتى انهم طلبوا من كيڤيه ان يرسل بعض ما كتبهُ في هذا الفن الى لجنة التاريخ الطبيعي . ثم عينوهُ معاوناً لمدير جردن ده بلنت (معرض التاريخ الطبيعي) . قال تسيه في كتابهِ الى جسو ألاَ يخطر ببالك انني انا الذي قدمت دلمبر الى الاكادمي وانا الآن اقدم لها دلمبراً آخر . ومَنْ ينكر ان كلام تسيه قد تم اكمل تمام

يظهر مما تقدم ان ليس الفضل للصدفة في نجاح الذين نجحوا ولا للفرص بل لاجتهادهم وحزمهم . واحسن الفُرَص وافضل الوسائط لا تنفع الكسلان المتهامل شيئاً لانهُ لا يتجاوزها ولا يرى فيها نفعاً ولكن النجاح الذي يحصل من استغنام الفرص والانتفاع بها يفوق التصديق فان وط مثلاً درس الكيميا والميكانيكيات وهو يصنع الآلات الرياضية وكان في ذلك الحين يتعلم اللغة الجرمانية

من صباغ سويسراني . وستفنسن درس الحساب والمساحة في بدل الليل وهو يوقد في آلة بخاروكان يعمل المسائل الحسابية في فرص الاكل بقطعة طباشير على جوانب مركبات الفحم ويروى عن دلتن الشهير انهُ كان يقيم في المدرسة شتاء ويعود في الصيف الى حراثة الارض وكان يتبارى هو ورفقاؤهُ في الدروس على رهان يكسبهُ السابق فكسب مرةً ما امكنهُ من ابتياع شموع تكفيهِ فصل الشتاء . وداوم على اخذ الرصود الميتيورولوجية الى يوم او يومين قبل وفاتهِ وكانت جملة رصودهِ ٢٠٠٠٠٠ رصد

ان اهل المواظبة يستخدمون فضلات الوقت لمقاصد جليلة وينتفعون بها نفعًا عظيمًا لان الانسان الذي عقلهُ في درجة وسطى يقدران يتقن بعض العلوم في اقل من عشر سنين اذا درسها ساعةً فقط كل يوم . فيجب ان لا نصرف ساعة من الوقت بدون ثمرة عقلية او مادية اذ نتعلم شيئًا يستحق التعلم او نقوي فينا خلقًا من الاخلاق الحسنة او عادة من العوائد الحميدة ولله در القائل

اذا فاتني يوم ولم استفد بهِ ولم اكتسب علمًا فما ذاك من عمري

قيل ان الدكتور مازون گود ترجم لكراتيوس في جولانهِ من بيت مريض الى بيت مريض آخر والدكتور درون الف كل كتبهِ على الطريقة نفسها والدكتور برني تعلم الفرنساوية والايطالية وهو ذاهب الى بيوت تلامذتهِ ليعلمهم الموسيقى وكرك هويت تعلم اليونانية في ذهابهِ الى مجلس القضاء وايابهِ . والمؤلف

يعرف رجلاً معتبرًا تعلم اللاتينية والفرنساوية وهو يحمل المكاتيب الى اربابها في اسواق منشستر . ودَغَسو احد مشيري فرنسا الف كتابًا ضخمًا في الفترات على المائدة بين طعام وطعام . ومدام ده جَنلي الفت عددًا من كتبها في الدقائق القليلة التي كانت تمضيها في انتظار الاميرة التي كانت تدرسها . واليهو بُرِت نسب نجاحهُ الى استغنامهِ فضلات الوقت فقد اتقن ثماني عشرة لغة بين قديمة وحديثة عدا عشرين لغة من لغات اوربا وهو يحصل معيشتهُ من صناعة الحدادة

الوقت ثمين وهو راس مالنا الوحيد وان فات لا يرجع قط. قال جكسن الاكستري اذا اسرف الانسان اليوم مالهُ امكنهُ ان يقتصد غدًا بما يعوض الخسارة ولكن من يمكنهُ ان يقول ساقتصد في ساعات الغد ما يعوض عن ساعات اليوم. قيل ان ملنكثون كان يدون كل ساعة اضاعها حتى يزيد اجتهادًا بما يعوض عنها . وقيل كتب احد العلماء الايطاليين على بابهِ مَنْ دخل الى هذا البيت يجب ان يشترك مع الذين فيهِ في عملهم . وقيل ان قومًا دخلوا مكتبة بكستر بقصد الزيارة وقالوا له من باب التجمل نخاف ان نكون قد اضعنا وقتك فاجابهم حقًا قد اضعتم

ومن الامور الغريبة التعب الذي تعبهُ بعض الناس في اتمام اعمالهم فان نيوتن كتب كتابهُ المسمى بالخرونولوجيا خمس عشرة مرة قبلما اتم تهذيبهُ وكبون كتب كتابهُ (المموار) تسع مرات.

من صباغ سويسراني . وستفنسن درس الحساب والمساحة في
بَدَل الليل وهو يوقد في آلة بخاروكان يعمل المسائل الحسابية في
فرص الاكل بقطعة طباشير على جوانب مركبات الفحم ويروى
عن دلتن الشهيرانهُ كان يقيم في المدرسة شتاء ويعود في الصيف
الى حراثة الارض وكان يتبارى هو ورفقاؤُهُ في الدروس على رهان
يكسبهُ السابق فكسب مرةً ما امكنهُ من ابتياع شموع تكفيهِ فصل
الشتاء . وداوم على اخذ الرصود الميتيورولوجية الى يوم او يومين
قبل وفاتهِ وكانت جملة رصودهِ ٢٠٠٠٠٠ رصد

ان اهل المواظبة يستخدمون فضلات الوقت لمقاصد جليلة
وينتفعون بها نفعًا عظيمًا لان الانسان الذي عقلهُ في درجة وسطى
يقدران يتقن بعض العلوم في اقل من عشر سنين اذا درسها
ساعةً فقط كل يوم . فيجب ان لا نصرف ساعة من الوقت بدون
ثمرة عقلية او مادية اذ نتعلم شيئًا يستحق التعلم او نقوي فينا خلقًا
من الاخلاق الحسنة او عادة من العوائد الحميدة ولله در القائل

اذا فاتني يوم ولم استفد بهِ ولم اكتسب علمًا فما ذاك من عمري

قيل ان الدكتور مازون گود ترجم لكرانيوس في جولانهِ من
بيت مريض الى بيت مريض آخر والدكتور دَروِن الف كل
كتبهِ على الطريقة نفسها والدكتور برني تعلم الفرنساوية
والايطالية وهو ذاهب الى بيوت تلامذتهِ ليعلمهم الموسيقى وكرك
هويت تعلم اليونانية في ذهابهِ الى مجلس القضاء وايابهِ. والمؤلف

يعرف رجلاً معتبرًا تعلم اللاتينية والفرنساوية وهو يحمل المكاتيب الى اربابها في اسواق منشستر . ودَغَسُو احد مشيري فرنسا الف كتابًا ضخمًا في الفترات على المائدة بين طعام وطعام . ومدام ده جَنلي الفت عددًا من كتبها في الدقائق القليلة التي كانت تمضيها في انتظار الاميرة التي كانت تدرسها . والبهو برِت نسب نجاحهُ الى استغنائهِ فضلات الوقت فقد اتقن ثماني عشرة لغة بين قديمة وحديثة عدا عشرين لغة من لغات اوربا وهو يحصل معيشتهُ من صناعة الحدادة

الوقت ثمين وهو راس مالنا الوحيد وان فات لا يرجع قط . قال جكسن الاكستري اذا اسرف الانسان اليوم مالهُ امكنهُ ان يقتصد غدًا بما يعوض الخسارة ولكن من يمكنهُ ان يقول سأقتصد في ساعات الغد ما يعوض عن ساعات اليوم . قيل ان ملنكثون كان يدون كل ساعة اضاعها حتى يزيد اجتهادًا بما يعوض عنها . وقيل كتب احد العلماء الايطاليين على بابهِ مَنْ دخل الى هذا البيت يجب ان يشترك مع الذين فيهِ في عملهم . وقيل ان قومًا دخلوا مكتبة بكستر بقصد الزيارة وقالوا لهُ من باب التجمل نخاف ان نكون قد اضعنا وقتك فاجابهم حقًّا قد اضعتم

ومن الامور الغريبة التعب الذي تعبهُ بعض الناس في اتمام اعمالهم فان نيوتن كتب كتابهُ المسمى بالخرونولوجيا خمس عشرة مرة قبلما اتم تهذيبهُ وكبون كتب كتابهُ (المموار) تسع مرات .

وهل درس سنين عديدة وكان معدل درسهِ ست عشرة ساعة كل يوم ولما كان يتعب من درس الشريعة كان يريح نفسهُ بدرس الفلسفة والرياضيات . وهيوم كان يكتب في تاريخهِ ثلاث عشرة ساعة كل يوم . وقال منتسكيو لاحد اصحابهِ انك تقرا هذا الكتاب في ساعات قلائل ولكنني اوكد لك انني قد تعبت في تاليفهِ تعبًا شيب رأسي

ومن الامور المفيدة التي يمارسها اكثر رجال العلم تدوين كل ما يخطر لهم من الافكار او يسمعونهُ من الفوائد مخافة ان تضيع من حيز الذاكرة فان اللورد باكون ترك بعد وفاتهِ كتب خط كثيرة اسمها افكار فجائية كُتبت لتستعمل . والدكتور باي سمث كان يلخص كل الكتب التي يقراها وهو عامل مع ابيهِ في صناعة التجليد وينتقدها ويكتب الملخص والانتقاد وجرى على ذلك حياتهُ كلها حتى قال فيهِ كتاب سيرة حياتهِ انهُ على الدوام عامل جامع متقدم اما الكتب التي جمعها على هذا الاسلوب فكمعدن للعلم والمعرفة . وقد جرى هذا المجرى الشهير جون هنتر تعويضًا عمّا بهِ من ضعف الذاكرة وشبّه من يقرأ كتابًا ولا يدون ما يبقي في ذاكرتهِ منهُ بتاجر لا يكتب اسماء بضائعهِ ليعلم كم عندهُ من كل صنف . ويليق بنا ان نذكر طرفًا من سيرة هذا الشهير فنقول انهُ لم يتعلم القراءة الاّ بعد ان بلغ عشرين سنة من العمر ثم صار طباعًا في كلاسكو ثم التصق باخيهِ الذي كان مقيمًا في لندن معلمًا

في التشريح وكان معاونًا لهُ في التشريح العملي ثم فاقهُ بواسطة اقدامهِ واجتهادهِ وكان اول من خصص نفسهُ في البلاد الانكليزية بتشريح المقابلة وجمع فيهِ مجموعًا كبيرًا رتبهُ فيما بعد الدكتور أُوِن ولكن لزم لهُ لترتيبهِ مدة عشر سنين. وفي هذا المجموع اكثر من عشرين الف راموز ولم يجمع انسان واحد مجموعًا مثلهُ قط . وكان مع ذلك يمارس صناعة التطبيب في بيتهِ والجراحة في مستشفى مارجرجس وبين الجنود ويخطب خطبًا في هذا الفن ويدبر مدرسة تشريحية في بيتهِ . ومع هذه الاشغال الكثيرة ألَّف كتبًا كثيرة وامتحن امتحانات عديدة في نظام الحيوان. وكان ينام اربع ساعات فقط في الليل وساعة بعد الفطور ولولا ذلك ما قام بهذه الاعمال الكثيرة العظيمة . سالهُ بعضهم كيف عملت حتى نجحت في كل اعمالك فقال اني قبل ان اشرع في عمل اقف واتامل في امكانيتهِ فان لم يكن ممكنًا تركتهُ والَّا اخذت فيهِ وما زلت حتى اكملهُ ولو مهما نالني منهُ من التعب والعنا هذا هو سر نجاحي . وقد صرف قسمًا كبيرًا من وقتهِ في ملاحظة امور كثيرة يعدها اهل عصرهِ طفيفة لاطائل تحتها ولا يُرجى منها كبير فائدة فقد تهمهُ معاصروهُ انهُ اضاع وقتهُ في ملاحظة نمو قرن الغزال . الَّا انهُ كان يرتاي ان لاشيء من التدقيق في الامور العلمية عديم الفائدة . وكانت نتيجة دروسهِ في نمو قرن الغزال ان عرف كيفية نمو الشرايين وتقلبها بتقلب الاحوال فتجاسر مرةً على ربط جزع

شريان فرعي حدث فيهِ انيورزم فانقذ العليل من الموت ولم يجسر احد على هذه العملية قبلهُ . وسار كل حياتهِ معتمدًا على نفسهِ ولم يرَ معاصروهُ غاية ابحاثهِ الاَّ انهُ واظب عليها بهمة عالية حاسبًا الجري فيها من الواجبات التي لا يقنط مَنْ يسعى في اتمامها

وهاك مثالاً آخر للانتباه والصبر والاقدام والمواظبة في حياة امبروز بارى الجراح الفرنساوي الشهير الذي ولد في لاقال سنة ١٥٠٩ من ابوين فقيرين جدًّا لم يقدرا ان يرسلاهُ الى مدرسة بل وضعاهُ عند خوري قريتهما خادمًا املاً بان يقتبس منهُ شيئًا من العلوم ولكن الخوري المذكور استخدمهُ في سياسة بغلتهِ وغيرها من الاعمال الدنية حتى لم يجد وقتًا للدرس. وبينما هو في خدمتهِ دُعي الشهير كوتو لعملية حصاة المثانة في لاقال وكان بارى حاضرًا مع من حضر فانشغف لبهُ بتلك العملية حتى انهُ عزم من تلك الساعة على تخصيص نفسهِ بصناعة الجراحة فترك خدمة الخوري وخدم عند حلاَّق جراح وتعلم منهُ الفصد وقلع الاسنان وعمل بعض العمليات الصغيرة مع الحلاقة . وبعد مضي اربع سنوات انتقل الى باريس وتتلمذ في مدرسة التشريح والجراحة وكان يحصل من الحلاقة ما يقوم باودهِ ثم صار معاونًا في هوتل ديه وكان يُضرَب المثل بحسن سلوكهِ واجتهادهِ ونجاحهِ حتى ان كوبل راس الجراحين سلمهُ المرضى الذين لم يقدران يقف عليهم هو ولما انهى المدة المعينة للدرس عُيِّن معلمًا في المدرسة ثم عين

جراحًا لجند منمورنسي فلم يكتفِ بما اقتبسهُ من العلم ولا بالسبيل الذي سار فيهِ مَن سلفهُ من الاطباء بل كان كثير الافتكار والتامل في اسرار صناعتهِ واصولها ومصدر الامراض ومسيرها والبلوغ الى العلاج الشافي . وكان الجراحون في ايامهِ وما قبلها يعذبون الجرحى اكثر مما يعذبهم الاعداء لانهم كانوا يوقفون الدم من جروح الرصاص بالزيت الغالي والنزف الدموي بالكي بالحديد المحمى واذا الجأهم الامر الى بتر عضو كانوا يبترونهُ بسكين محماة الى درجة الحمرة . اما باري فكان يداوي الجروح بالاسلوب المتعارف حينئذٍ ولكنهُ حدث يومًا انهُ لم يكن تحت يدهِ زيت غالٍ فاسا الجرح بمضادات الالتهاب ونام تلك الليلة في قلق عظيم مخافة ان يكون اخطأ في العلاج ولكنهُ رأى في الصباح ان الذي عالجهُ هذه المعالجة مقبلٌ على الشفا والذين عالجهم المعالجة المعتادة في عذاب اليم . هذا اصل الاصلاح الذي احدثهُ في علاج جراح الرصاص فصار يعتمد عليهِ دائمًا ثم ادخل اصلاحًا آخر اهم من الاول وهو قطع النزف بربط الشرايين بدلاً من الكي فقام عليهِ الجراحون وقالوا ان معالجتهُ هذه شديدة الخطر وغير اصولية واعتصبوا ضدهُ عصبةً واحدةً وطعنوا فيهِ انهُ عديم العلم ولا سيما لجهلهِ اللاتينية واليونانية واثبتوا غلطهُ بعبارات اقتبسوها من كتب الاقدمين لم يقدر ان يثبتها ولا ان يدحضها . الاَّ ان افضل جواب قدر ان يجيبهم بهِ نجاح معالجتهِ . وكان الجرحى

يدعون باسمهِ دائمًا ولم يقبلوا علاج احد غيرهِ فعالجهم بشفقة وحنو وكان بعد ان يضمد جراحاتهم يودعهم قائلاً قد عملت ما عليّ وعلى الله الشفاء

وبعد ان مضى عليهِ ثلاث سنوات في خدمة الجند رجع الى باريس ولهُ شهرة عظيمة فعين جراحًا للملك . ولما اتى كارلوس الخامس بجيوش اسبانيا وحاصر متس هلك من المحاصرين خلق كثير وكان الذين ماتوا بيد الجراحين اكثر من الذين قتلهم العدو فارسل دوك كويس رئيس المحاصَرين يتضرع الى الملك ان يرسل لهُ باري فارسلهُ وبعد معاناة مشقات كثيرة واخطار عديدة اخترق جيوش العدو ودخل متس بالسلامة فتاهل بهِ الدوك والقواد والرؤساء واما الجنود فلما سمعوا بقدومهِ صرخوا " لسنا نخاف الموت من جراحنا فيما بعد لان صديقنا صار بيننا " وفي السنة التالية كان باري في مدينة هسدن ففتحها دوك سافوا واخذهُ اسيرًا الّا انهُ شفى بعض قواد جندهِ فاطلق سبيلهُ بلا فدية فرجع الى باريس وصرف باقي حياتهِ في الدرس والتأليف والاعمال الصالحة . وطلب منهُ بعض العلماء المعاصرين لهُ ان يكتب اعمالهُ الجراحية فكتبها في ثمانية وعشرين مجلدًا طُبِعت في ايامهِ . وكتاباتهُ من الطراز الاول ولا سيما لكثرة الحوادث المدونة فيها التي عالجها ونجح مجتنبًا كل علاج لم يتاكد فعلهُ بالتجربة . وبقي جراحًا للملك مع انهُ كان بروتسطنتي المذهب .

ونجاهُ الملك شارل التاسع من القتل في مذبحة مار برثلماوس لانهُ كان قد شفاهُ من جرح مميت اوقعهُ بهِ جرّاح غبي في فصدهِ اياهُ . وقد ذكر برنتوم في كتاب السيَر قصة انقاذ الملك لباري في ليلة مار برثلماوس فقال ان الملك ارسل دعاهُ اليهِ وابقاهُ معهُ كل الليل قائلاً انهُ ليس من العدل ان يقتل انسان قد خلص حياة كثيرين . فنجا من اهوال تلك الليلة الرهيبة وعاش بعدها سنين عديدة ومات حتف انفهِ بشيبة صالحة واكرام يليق بمثلهِ

ومن الذين اشتغلوا بلا ملل في ترقية صناعة الطب هرفي الشهير مكتشف دورة الدم الذي بحث وامتحن ثماني سنوات قبلما اشهر هذا الاكتشاف . وقد اشهرهُ على اسلوب بسيط مقنع ولكنهُ عومل بكل نوع من الاهانة والاحتقار وبقي وقتًا طويلاً ولم يصادف انسانًا يحتم على صدق مقالهِ بل كان الجميع يزعمون انهُ جاء امرًا فريًّا مناقضًا اراء الاوائل والكتاب المقدس والديانة والآداب ورماهُ البعض بالجنون والخداع وهجرهُ اصحابهُ وخلّانهُ وآل حالهُ الى اسوإ الاحوال . ولكن هذا الحق المبين الذي حامى عنهُ سنين عديدة دخل بعض العقول واينع فيها ولم يمضِ عليهِ الّا خمس وعشرون سنة حتى عُدَّ من اثبت الحقائق الطبية

ومن الذين قاسوا صعوبات كثيرة اكثر من هرفي الطبيب ادورد جنّر الذي اكتشف تطعيم الجدري . ولا بد من ان كثيرين

قبلهُ شاهدوا جدري البقر وسمعوا الكلام الجاري على السنة الحلّابات وهو ان الذي يتجدر بجدري البقر يسلم من الجدري العادي ولكنهم عدوهُ اشاعة كاذبة وما منهم من ظنهُ يستحق الامتحان حتى طرق مسامع هذا الشهير عند ما كان يدرس في سربري وذلك ان ابنة فلاحة دخلت حانوت معلمهِ لكي تستشيرهُ في مسئلة ما وحدث حينئذٍ ان بعض الحاضرين ذكر ما كان من امر الجدري فقالت الابنة انا لا انعدي بهذا المرض لانني تجدرت بجدري البقر. فانتبه جنر الى هذا الامر واخذ من ساعتهِ يمتحنهُ ثم كاشف البعض من اصحابهِ الاطباء بذلك فضحكوا بهِ وتهددوهُ بالطرد من بينهم اذا تجاسر مرة اخرى وذكر لهم هذا الامر. ثم درس قليلاً في لندن على جون هنتر وكاشفهُ بما في نفسهِ فقال لهُ لا تظن ظنًّا بل امتحن امتحانًا وكن صبورًا مدققًا في بحثك. فتقوت عزائمهُ بهذا الكلام. ثم انتقل الى الجبال لكي يمارس صناعتهُ ويجرب التطعيم ويمتحنهُ مليًّا فدام على ذلك عشرين سنة وكانت ثقتهُ في التطعيم قوية جدًّا فطعَّم ابنهُ ونشر امتحاناتهِ في رسالة تحتوي سبعين صفحة ذكر فيها انهُ طعَّم ثلاثة وعشرين شخصًا بجدري البقر فلم يعد ممكنًا للجدري العادي ان يصيبهم لا بالمخالطة ولا بالتلقيح لكن انظر كيف قُبلت هذه الرسالة او بالحري هذه الاكتشاف. ففي اوَّل الامر لم يكترث لهُ احد ثم قام على جنر خصوم كثيرون بسببهِ حتى انهُ لما اتى لندن بقصد

استعمال التطعيم بقي ثلاثة اشهر بدون ان يطعم احدًا ولم يقبل
احد من الاطباء ان يستعمل التطعيم . فرجع على عقبهِ وقام عليهِ
خصومهُ ونسبوا اليهِ امورًا يضحك منها الاطفال في هذا الجيل
منها انهُ قصد ان يحول البشر الى بهائم بادخال مادة بقرية في
بنيتهم اما رجال الديانة فنادوا في الكنائس بان التطعيم صناعة
شيطانية شريرة وتطرف بعضهم فقال ان الاولاد المتطعمين
تصير وجوههم مثل وجوه البقر وينبت لهم نتوات على شكل
قرونها وتتغير هيئتهم رويدًا رويدًا الى هيئة البقر ويصير مزاجهم
بقريًا وصوتهم خوارًا . وكانوا يرجمون المتطعم اذا خرج من بيتهِ .
ومع كل هذه المقاومات وهؤلاء الاضداد كان التصديق بالتطعيم
يمتد يومًا بعد يوم . واوَّل مَنْ اقدم على استعمالهِ السيدتان
الشريفتان السيدة دوسي والكونتة بركلي فطعمتا اولادهما فانكسرت
شوكة المقاومين ومال الاطباء الى تصديق جنر . ومنهم مَنْ حاول
ان يسلبهُ شرف هذا الاكتشاف ولكن خاب مسعاهم وثبت الحق
لجنر وجوزي علانية . ثم دعي للسكنى في لندن واكد لهُ البعض
انهُ يمكنهُ ان يحصل هناك عشرة الاف ليرة سنويًا فاجابهم انني في
شبيبتي فضلت وادي الحياة على جبلها والان في شيخوختي لا يليق
بي ان اطمع بثروة ولا بشهرة . اما التطعيم فانتشر في كل العالم
المتمدن في حياة جنر واقر لهُ الجميع بالفضل من عالٍ ودون .
قال كيفيه اذا كان التطعيم الاكتشاف الوحيد الذي اكتشف

في ذلك العصر فيهِ الكفاءة لاشهارهِ الى الابد ولو كان قد قرع ابواب المدارس عشرين مرة قبلما قبلتهُ

ومن الذين اظهروا حزمًا وعزمًا واقدامًا السر تشارلس بل الذي اكتشف امورًا كثيرة في المجموع العصبي فان كل ما عرفهُ العلماء قبل ايامهِ عن هذا الجهاز كان اوهن من بيت العنكبوت ولم يزيدوا شيئًا تقريبًا على ما كان يعرفهُ ديموقراط وانكساغوراس من مضي ثلاثة آلاف سنة . واما السر تشارلس بل هذا فابتدأ سنة ١٨٣١ ينشر رسائل في هذا الموضوع مبنية على ابحاث مدققة وامتحانات متوالية وقد تتبع المجموع العصبي من ادنى الحيوانات رتبةً حتى الانسان اعلاها وشرح ذلك شرحًا وافيًا . وهو الذي قال ان الاعصاب الشوكية مزدوجة الوظيفة وانها تنشأ باصليْن من الحبل الشوكي وان احدها للحس والآخر للحركة . ودام هذا الموضوع شاغلًا افكارهُ مدة اربعين سنة وحينئذٍ اشهر آراءهُ علانية امام المجمع الملكي وذلك سنة ١٨٤٠ ولكن اصابهُ ما اصاب هرفي وجنر وهو انهُ بعد ان تعب تعبًا جزيلًا في تسكيت المستهزئين وافحام المضادين وجد اناسًا كثيرين قد قاموا وادعوا بحق هذا الاكتشاف وخسر ايضًا ممارسةَ صناعتهِ واعتبارهُ بين الناس مثلهم وفي الآخر اثبت لهُ حق الاكتشاف واقر لهُ الجميع بالفضل من قاصٍ ودانٍ حتى ان كوفيه نفسهُ لما رأى وجههُ قد انحرف الى الجانب الواحد وهو على فراش الموت اشار الى

الحاضرين وقال ان هذا برهان قاطع على صدق مذهب السر تشارلس بل

ومن الذين يجب ذكرهم في هذا المقام الطبيب مرشل هُل فان هذا الفاضل مارس صناعة الطب بنشاط وامانة وكان يبحث في اسرارها ويتعمق في غوامضها باجتهاد لا يفوقهُ اجتهاد منتبهًا الى كل حادثة مهما كانت طفيفة . والاكتشاف العظيم الذي اكتشفهُ وخلَّد بهِ اسمهُ بين رجال العلم حدث اصلاً باسباب بسيطة لانهُ كان مرةً يمتحن الدورة الرئوية في حلزونة بحرية فقطع راسها ونزع ذنبها ووكزها بالصدفة في الغشاء الخارج فتحركت من ذاتها وتلوت مرات كثيرة ولم يكن قد لمس عضلة ولا اعصابًا عضلية وربما ان كثيرين شاهدوا هذه الحادثة قبلهُ ولكنهُ كان اوَّل مَنْ نظر اليها نظر الخبير المدقق واخذ من تلك الساعة يجرب ويمتحن عساهُ ان يعرف سبب هذه الحركة ويقال انهُ صرف اكثر من خمسة وعشرين الف ساعة باحثًا في هذا الموضوع حتى عرفهُ تمامًا وكان في الوقت نفسهِ يطبب ويدرّس في مستشفى مارتوما وفي مدارس اخرى طبية . ومن العجيب ان المجمع الملكي رفض اكتشافهُ هذا ولم يقبلهُ الاَّ بعد مضي سبع عشرة سنة حينما قُبل في كل الاقطار

وممَّن هم مثال للاجتهاد والمواظبة ايضًا السر وليم هرشل الشهير الجرماني الاصل . كان ابوهُ مغنيًا فقير الحال ولهُ اربعة

بنين فعلَّمهم حرفتهُ فاتى احدهم وليم انكلترا في طلب رزقهِ ودخل مغنيًا في فرقة حربية وفي احد الايام مرَّ الدكتور مللر فسمعهُ يغني على الرَّباب فاعجبهُ ذلك الغناء وتحدث معهُ مدةً فانسر بحديثهِ وطلب اليهِ ان يترك مركزهُ ويقيم في بيتهِ فاجابهُ الى طلبهِ وكان في بيتهِ مدةً وهو يستغنم كل فرصة ليدرس في كتب ذلك الدكتور وحينئذٍ صُنع ارغنٌ لكنيسة هليفكس وطُلب لهُ مغنٍّ فوقع الانتخاب عليهِ . ثم انتقل الى باث وكان يغني في بعض المراسح ويدق على الارغن في الكنيسة . ونحو ذلك الوقت اكتشف اكتشافات جديدة في علم الهيئة فانشغل بالهُ بها ومال الى البحث في هذا العلم فاستعار من احد اصحابهِ نظارةً من النوع الغريغوري وكان يرصد بها ثم سام تلسكوبًا لابتياعهِ فطُلب فيهِ مبلغ كبير جدًّا فعزم من ساعتهِ على اصطناع تلسكوب مهما كلفهُ من التعب . والذين يعرفون ما هو تلسكوب الانعكاس وما يقتضي لمرآتهِ من التعب والحذاقة يعرفون جسامة العمل الذي اقدم عليهِ هرشل ولكنهُ نجح ولو بعد تعب شاق وصنع تلسكوبًا عاكسًا طولهُ خمس اقدام نظر فيهِ حلقات زُحَل واقمارهُ ولم يكتفِ بذلك بل صنع عدة نظارات منها ما طولهُ سبع اقدام وعشر اقدام واخيرًا صنع واحدة طولها عشرون قدمًا ولما كان يعمل التي طولها سبع اقدام صنع اكثر من مئتيْ مرآة قبل ان وجد واحدة مناسبة وهذا دليل قاطع على شدة مواظبتهِ وكان في

غضون هذه المدة يحصل معيشتهُ من صناعة الغنا. ثم اكتشف اورانوس وحسب مقدار دائرتهِ وعدَّل حركتهِ وارسل النتيجة الى المجمع الملكي فاشتهر بذلك شهرة عظيمة وعُيِّن فلكيًّا ملكيًّا ورقاهُ الملك جورج الثالث الى منصب يليق بهِ . فبقي مع ما حازهُ من الرفعة والشهرة متضعًا رقيق الجانب كما كان قبل ان عُرِف شيء من امرهِ ولعلهُ لا يوجد في سير البشر مَن ضاهاهُ في الرقة والصبر والنجاح

ومِمَّن هم مثال للصبر والاجتهاد واستغنام الفرص وليم سمث منشئ الجيولوجيا الانكليزية فان هذا الشهير ولد سنة ١٧٦٩ من اب فلّاح ومات ابوهُ وهو صبي صغير فكان يُرسل الى مدرسة قريتهِ الَّا انهُ تعلم شيئًا يسيرًا لانهُ كان طائشًا يفضل اللعب على الدرس . ثم تزوجت امهُ وتركتهُ فضمهُ عمهُ اليهِ وهو فلّاح ايضًا . وكان مغرمًا بجمع الحجارة المتنوعة فلم يستحسن عمهُ ذلك بل اشترى لهُ كتبًا في مبادئ الهندسة والمساحة لكي يدرس فيها ويصير مسّاحًا . ومما امتاز بهِ وهو بعد حدث دقة النظر وحسن الذاكرة حتى انهُ لم ينسَ شيئًا امعن فيهِ نظرهُ . ثم اخذ يتعلم صناعة الرسم والتلوين ويستعمل المساحة وقياس الاراضي كل ذلك بدون ان يدرس على استاذ فصار معاونًا لمهندس وطني شهير فدعاهُ عملهُ ان يجول مرارًا كثيرة في مقاطعة اكسفُرْد وما جاورها واول شيء وجَّه اليهِ افكارهُ انواع تربة تلك الاراضي

وترتيب طبقات صخورها . ودُعي مرارًا كثيرة لمساحة معادن الفحم فزاد فحصًا واختبارًا حتى انهُ لما بلغ السنة الثالثة والعشرين من عمرهِ عزم ان يصنع مثالاً يشخص طبقات الارض . وفيما كان يمسح بعض الاراضي لحفر ترعة لاحظ ان الطبقات التي فوق الفحم لم تكن افقيَّة بل مائلة الى الشرق وتاكد ذلك فيما بعد بملاحظتهِ الطبقات في واديين متوازيين فرأى انها جميعها تنحدر نحو الشرق فتغور من طرفها الشرقي ويظهر فوقها نَضَد آخر ثم مكنتهُ الفرصة من ان يتاكد ذلك اذ عُيِّن لفحص الاراضي الموافقة لحفر الترع في انكلترا وويلس فجال فيها وكان يراقب هيئة اراضيها وصخورها ويخزن كل ما يراهُ في ذاكرتهِ فاثبتت لهُ المراقبة ان الصخور في الانحاء الغربية من انكلترا تميل الى الشرق والجنوب الشرقي وان الحجر الرملي الاحمر الذى فوق طبقات الفحم يمر تحت الطبقات الطفالية والكلسية وهذه تمر تحت الرمال والحجارة الكلسية الصفراء وهذه تمر ايضًا تحت الرواسب الطباشيرية الشاغلة للاجزاء الشرقية من انكلترا . ولاحظ ايضًا ان لكل طبقة من الطفال والرمل والكلس نوعًا خاصًّا من الاحافير . وبعد التأمُّل الطويل في هذا الامر استنتج منهُ نتيجةً لم يسبقهُ اليها احد قط وهي ان كل مجتمع من الحيوانات البحرية المتحجرة في هذه الطبقات يدل على انها كانت في قاع البحر وقتًا ما وان كل طبقة من الطفال والرمل والطباشير والحجر تدل على حصة مخصوصة من تاريخ الارض

فانشغف لبُّهُ بهذا الموضوع حتى لم يعد يفتكر ولم يعد يتكلم الّا به . فصار اذا حضر حفر الترع او جز الغنم او غير ذلك يفتح هذا الموضوع فلُقِّب سمث الطبقات . ومع هذا كلهِ بقي مجهولاً لدى رجال العلم . ثم اخذ في اصطناع خارطة لانكلترا حسب ترتيب طبقاتها الّا انهُ اضطرَّ الى تاجيلها بداعي اشتغالهِ في ترعة سُمرستشير ولكنهُ لم ينفك عن البحث والتنقير والمراقبة حتى صار يعرف بناء طبقات الارض من هيئتها الظاهرة وصار الناس يستشيرونهُ في انزاح مياه الارض واشتهر بذلك شهرة فائقة

وحدث ذات يوم انهُ اطَّلع على مجموع الاحافير الذي جمعهُ القس صموئيل رتشردسن في باث فقلب ترتيبهُ ورتبهُ ترتيبًا آخر قائلاً ان هذه الاصداف خرجت من الطبقة الثلاثية وتلك من الطبقة الفلانية فاندهل القس المشار اليهِ كل الاندهال وصدق قول سمث وصار من انصارهِ . الّا ان جيولوجيي العصر لم يقبلوا آراءهُ بل لم يريدوا ان يعرفوا مسّاحًا خامل الذكر يقوم ويعلمهم الجيولوجيا وكانوا يجهلون ان لهُ عينًا حادة البصر تخترق طبقات الارض وتكشف خفاياها كيف لا وقد املى مرة على مستر رتشردسن شرح ثلاث وعشرين طبقة متوالية وما فيها من الاحافير فكتب مستر رتشردسن ذلك وطبعهُ سنة ١٨٠١

ثم شرع في فحص الاراضي التي تبعد عن باث بمقدار ما سمحت لهُ وسائطهُ فجال مدة سنين عديدة وهو يعوض عمّا

يضيع من سير النهار بسري الليل وكان اذا دعي الى اماكن بعيدة لعمل مساحي يعتسف عن الطريق لكي يلاحظ صفات الارض الجيولوجية . وبقي سنين عديدة وهو يسافر من مكان الى آخر في انكلترا وايرلندا. وكان يقطع اكثر من عشرة آلاف ميل سنويًا وفي كل ذلك لم يدع امرًا مهما كان طفيفًا ان يتخطى عينيهِ بدون ان يمعن فيهِ نظرهُ ولم يترك فرصة تذهب سدًى. وتظهر شدة حذاقتهِ الجيولوجية من القصة الآتية وهي انهُ كان مارًّا ذات يوم بقرب تلال طباشيرية فقال لرفاقهِ اذا رأينا ارضًا مكسورة عند سفح هذه التلال وجدنا فيها اسنان كلب البحر فلم يتقدموا مسافة طويلة حتى التقطوا ستًّا منها من جانب حفرة محفورة حديثًا . وقد قال من فمهِ ان عادة الملاحظة رسخت في عقلهِ وصارت ملكة فيهِ وكانت تهيج عند اول فكر بالسفر حتى انهُ كثيرًا ما كان يسير مصحوبًا بخارطات وقد كتب عليها موضوع بحثهِ في سيرهِ والامور التي سيشاهدها فصار ذهنهُ كقرطاس معد لرسم كل شيءٍ يراهُ من اول وهلة

ولكن مع كل اتعابهِ واجتهادهِ وحذاقتهِ تصدَّت لهُ موانع كثيرة منعتهُ عن اشهار خارطة طبقات انكلترا وويلس التي صنعها ودام على ذلك حتى سنة ١٨١٤ حينما تمكن من نشر ثمرة اتعابهِ بمساعدة بعض اصحابهِ وقد التزم ان يصرف كل ما حصلهُ من صناعتهِ وان يبيع ما لهُ من الاملاك لكي يتمكن من طوفان

الاماكن البعيدة . ونحو ذلك الوقت فتح مقالع الحجارة بقرب باث فخسر بها والتزم ان يبيع مجموعهُ الجيولوجي للميوزيوم البريطاني وباع ايضًا اثاث بيتهِ ومكتبتهُ ولم يبقِ الّا اوراقهُ وخارطاتهِ التي لا تنفع احدًا غيرهُ . واحتمل كل هذه المصائب والخساير بصبر جميل ولم ينفك عن البحث برغبتهِ المعتادة . وتوفي في شهر آب احد شهور سنة ١٨٣٩ وهو ذاهب ليحضر الاجتماع البريطاني في برمنهام

وان القلم يضيق ذرعًا عن ان يقوم بما يستحقهُ هذا الفاضل من المدح الجزيل ولا سيما لاجل الخارطة الجيولوجية التي صنعها فانها وان كانت الاولى من نوعها فهي في غاية ما يكون من الدقة وهي اساس ما تلاها من خارطات انكلترا وغيرها من البلدان . ولم تزل في الجمعية الجيولوجية شاهدة بفضل مخططها مع ما مرَّ عليها من السنين لاننا اذا قابلناها بالخارطات الحديثة من هذا النوع وجدنا بينها موافقة عجيبة في كل الامور الجوهرية . وقد فاتنا ان نذكر ان اهل عصرهِ اقروا لهُ بالفضل ففي سنة ١٨٣١ اجازهُ المجمع الجيولوجي بلندن بنيشان وُلَستُن مجازاةً لاكتشافاتهِ الجيولوجية كوحدة طبقات الارض في كل الجهات وتمييزها بما تتضمنهُ من الاحافير . ولقد اجاد مَن قال انهُ ما من اكتشاف في هذا العلم يضاهي هذا الاكتشاف الّا اذا اكتُشف اصل الحياة وسيبقى اسم هذا الفاضل مكرَّمًا مشرَّفًا ما دام هذا العلم موجودًا

ومن الذين كانت قوة الانتباه فيهم قوية جدًا وبلغوا بها شأوًا بعيدًا ملر الذي درس العلوم برغبة وصبر لا مثيل لهما وكتب تاريخ حياته في كتاب هو غاية في الجودة والفائدة ويظهر منهُ ما كان في هذا الانسان من التعويل على نفسهِ واكرامها وهاك جملة وجيزة في سيرة حياتهِ وهي انهُ لما كان فتى صغيرًا مات ابوهُ غرقًا فلم تمكنهُ الفرص من الدرس على اساتيذ كبار الَّا انهُ طالع في كتب كثيرة فارتشف اليسير من بحر المعرفة من مصادر مختلفة وعاشر اقوامًا متنوعة صناعًا ونجارين وصيادين وملاحين واستفاد منهم جميعًا وكان يجول وبيدهِ مطرقة كبيرة يكسر بها الحجارة ويأخذ منها كسرًا من الميكا والمحبّب وما اشبهُ وكان في بعض الاحيان يقضي يومًا كاملاً في الغابات متأملاً في مناظرها الجيولوجية فيجدهُ البعض ويسألونهُ بتهكم اذا كان مفتشًا عن معدن فضة . ولما ترعرع وُضع عند بنَّاء ليتعلم صناعة البناء التي كان مغرمًا بها فابتدأ يعمل في مقلع بقرب كرُمَرْتي فرِث فانفتح لهُ باب واسع لتعلُّم الجيولوجيا في ذلك المقلع وكان يرى فيهِ امورًا كثيرة تدهشهُ بينما لا يرى احد من العاملين شيئًا فاخذ يقابل بين ما يراهُ من طبقات الارض فيرى ما بينها من المطابقة والطباق وما يتلازم بعضها عن بعض وجرى على هذا النمط فاتقنا بصرهُ وبصيرتهُ وكان رصينًا مجتهدًا مواظبًا وهذا هو سر نجاحهِ

وما زاد عجبهُ وانتباههُ البقايا الآلية التي راها في الحجارة التي

كسرها او في الصخور التي سحقتها امواج البحر كالاسماك والاصداف والاشنان ودام هذا الموضوع شاغلاً عقله سنين عديدة وفي اخرها ألّف كتابة في الحجر الرملي الاحمر القديم فحاز بهِ شهرة عظيمة بين رجال العلم وعدوّهُ من علماء الجيولوجيين . وكان هذا الكتاب ثمرة اتعاب سنين عديدة صرفها في التفتيش والتنقيب بصبر وجلد عظيمين ولقد قال في سيرتهِ التي الفها هو انني انسب نجاحي الى البحث بالصبر الامر الذي يقدر كل انسان ان يجاريني فيهِ او ان يفوقني ولا ريب عندي ان الصبر اذا استعمل حق الاستعمال نجمت منهُ نتائج خارقة العادة لا يقدر على بلوغها من كانت لهُ موهبة خاصة

وكان جون برون الجيولوجي الانكليزي الشهير في اوّل حياتهِ بنّاء مثل مِلر فاقتادتهُ الاحافير الكثيرة التي كانت تقع تحت نظرهِ الى درسها فدرسها وجمع منها مجموعًا معتبرًا من افضل المجامع الانكليزية . وهو الذي اكتشف بقايا معتبرة من بقايا الفيل والكركدن واهداها الى المتحف البريطاني ثم عطف في آخر حياتهِ على درس الاصداف التي في الطباشير واكتشف عدة اكتشافات معتبرة في ذلك . وتوفي سنة ١٨٥٩ ولهُ من العمر ثمانون سنة وكان شهمًا مفيدًا لابناء جنسهِ ومكرمًا من الجميع

من مدة وجيزة اكتشف السر رُدرك مرتشسن رئيس الجمعية الجيولوجية جيولوجيًا عظيمًا في صفة خباز في شمالي اسكتسيا

يسمى روبرت دِك ولما زارهُ السر ردرك في فرنهِ رسم لهُ روبرت دِك هيئة بلادهِ الجيولوجية بالطحين واشار الى الخطاء الذي في الخارطات الموجودة حينئذٍ قائلاً انهُ قد تاكد ذلك بطوفانهِ في البلاد في ايام العطلة . وبعد الفحص وجد السر ردرك ان ذلك الخباز الشهير كان جيولوجيًّا بارعًا ونباتيًّا من الطراز الاول وهاك ما قالهُ السر ردرك بهذا الصدد انني وجدت ان ذلك الخباز يعرف علم النبات احسن مما اعرفهُ بعشرة اضعاف وعندهُ مجموع نباتي حاوٍ كل انواع النبات الاّ عشرين او ثلاثين وهو مرتب افضل ترتيب وتحت كل نوع اسمهُ العلمي

اما السر رُدرك المذكور فعالم شهير بهذه العلوم وما قاربها وهاك ما قالهُ فيهِ بعضهم في جريدة الكورترلي رڤيو قال ان هذا الفاضل صرف اوائل حياتهِ جنديًّا ثم عكف على طلب العلم باجتهاد ورغبة لا مثيل لها ونال بذلك شهرة بعيدة واسمًا خالدًا وذلك انهُ ابتاع ارضًا قفراء وصرف سنين كثيرة يفحص في تركيب صخورها ثم رتبها حسب بنائها الطبيعي مشيرًا الى ما في كل طبقة منها من انواع الاحافير وهو اوّل من حل قضيتين كبيرتين من تاريخ الارض الجيولوجي وهما تذكار لا يمحى لاسمهِ وعلمهِ ولم يكتفِ بذلك بل جال بلدانًا كثيرة وفحصها فحصًا جيولوجيًّا مدققًا واكتشف امورًا كثيرة في هذا الفن ولم يقتصر على الجيولوجيا بل عكف على علوم كثيرة حتى صار يعد من اشهر رجال العلم

الفصل السادس

في المصورين والنقّاشين

قال ميلنس ان كان ما تراهُ عظيماً عن بعد يضمحل عند ما تصل اليهِ فلا تنال جهداً لان الفضل بالطلب لا بالجالب

وقال جوبر تقدّم تحيَ

لا نجاح الا بالاجتهاد والتعب سواءكان في التصوير والنقش ام في غيرهما ولا يمكن للصدفة ان تصور صورة جميلة ولا ان تنقش تمثالاً بديعاً لان كل لمسة من لمسات قلم المصور وكل ضربة من ضربات ازميل النقاش ناتجة من درس غير منقطع . وكان من راي السر يشوع رينلدس احد آحاد المصورين ان كل انسان يقدر ان يكون مصوراً ماهراً ولو نسبت المهارة في التصوير الى الموهبة او الذوق او العطية السموية . وقد كتب الى بري يقول كل من

يقصد ان يمهر في التصوير او في اي صناعة كانت يجب ان يوجه
كل ذهنهِ الى تلك الصناعة من ساعة قيامهِ الى ساعة منامهِ وقال
في مكان آخر ان الذين يقصدون ان يمهروا يجب ان ياخذوا في
عملهم نهارًا وليلاً ان اختيارًا وان قسرًا . الاّ اننا لا ننكر ان
الاجتهاد والتعب لا يصيران الانسان مصورًا اذا لم يكن ذا موهبة
للتصوير ولو كانا ضروريين لجعلهِ مصورًا ماهرًا . لان الموهبة
امر طبيعي ولكنها تتقوى بالتهذيب الشخصي الذي هو اقوى من
كل تهذيب المدارس

والبعض من اعظم المصورين نبغوا من وسط الفقر والمسكنة
ونجحوا رغمًا عن الصعوبات الكثيرة المحيقة بهم مثل كلود لورن
الحلواني وتِنتورِتو الصباغ وكرفدجيو ساحق الاصباغ وكرفدجيو
حمّال الطين وسَلفاتور روزا رفيق اللصوص وكِتّو الفلاح وزنكارو
النوري وكاقَدونا الشحاذ وكنوڤا القطاع فهولاء وكثيرون غيرهم
برعوا في التصوير بالاجتهاد والتعب تحت اشد المصاعب

والذين اشتهروا في التصوير في البلاد الانكليزية اكثر
من غيرهم لم تكن احوالهم افضل من احوال هولاء كثيرًا فان
كنسبرو وباكون ابنا خياطين وبَري ابن بحري ايرلندي ومكليز
كان صانعًا عند بنكيّ واوبي ورُمني وانيك وجونس نجارين
ووست ابن فلاح ونُرثكوت كان صانع ساعات وجكسن خياطًا
واتي طباعًا ورينلدس وولسن وولكي اولاد قسوس ولورنس ابن

عشار وترنر ابن حلاّق اما فلكسمن فكان ابوهُ يبيع تماثيل جبسين وبرد كان ينقش صواني الشاي ومرتن كان يدهن المركبات وريت وكلين كانا يدهنان المراكب وتشنتري كان حفارًا ومذهبًا وداود كوكس وستنفيلد وروبرتس كانوا يصورون صور المراسح . فلم يتقدم هولاء الرجال كلهم ويمهروا في التصوير بالصدفة ولا بالنصيب بل بالجهد الجهيد والتعب والنصب والسهر والارق والبعض منهم اثروا ولكنهم كانوا قلائل جدًّا بالنسبة الى البقية بل لا يمكن ان ينكر الصانع نفسهُ ويعكف على صناعتهِ اذا كان طامعًا بالربح وما من جزاء انتظرهُ هولاء الصناع ونالوهُ الاّ اللذة التي يجدها كل عامل بعملهِ . اما ما كان يتبع ذلك من الغنى فامر ثانوي لا يعتد بهِ فضلاً عن كونهِ نادرًا . وقد آثر كثير من الصناع اتباع ميلهم في اتقان صناعتهم على مساومة الناس كما ان سبنيولتو رفض كل اسباب الرفاهية بعد ان بلغها موثرًا عليها حياة الفقر والمسكنة جاريًا على مجرى اكزنيفون . قيل سُئِل ميخائيل انجلو ذات يوم عن مصوّر صوّر صورة وتعب فيها تعبًا جزيلاً قصدَ الربح فقال انهُ سيبقى فقيرًا ما دام راغبًا في الربح

وكان ميخائيل انجلو هذا يعتقد مثل السر يشوع رينلدس ان كل ما تصوّرهُ المخيلة تقدر اليد على عملهِ بشرط ان تكون مطيعة للعقل اما هو فكان لا يتعب من العمل ولا يمل وقد نسب قدرتهُ على مداومة العمل الى بساطة معيشتهِ فانهُ لم يكن ياكل في اكثر

النهار الاَّ قليلاً من الخبز والخمر وكثيرًا ما كان يقوم في منتصف الليل وياخذ في عملهِ وهو لابس قبعًا من الورق في راسهِ شمعة مضيئة وكان ينام احيانًا بالثياب التي يلبسها وقت العمل لكي يقوم الى عملهِ حالما يرى انهُ قد ارتاح وكان عندهُ صورة حظيَّة وهي صورة شيخ في مركبة عليها ساعة رملية وعلى الساعة هاتان الكلمتان Ancora imparo اي لم ازل متعلمًا

وتيشيان الشهير كان لا يمل من العمل وقد عمل في صورة بطرس الشهيد ثماني سنوات وفي صورة العشاء الاخير سبع سنوات وقال في كتاب ارسلهُ الى كارلوس الخامس انني مرسل الى جلالتكم صورة العشاء الاخير بعد ان عملت فيها سبع سنوات كاملات . وقليلون يعرفون مقدار الصبر والجلد والمزاولة الطويلة التي يصرفها المصور حتى يتمرن على صناعتهِ وتصير فيهِ ملكة او بالحري تسهل عليهِ . قال بعضهم لنقاش "انطلب مني خمسين سكونًا (سكةً اي ليرة) بتمثال عملتهُ في عشرة ايام" فاجابهُ النقاش "ألا تعلم انني تعلمت ثلاثين سنة حتى امكنني عمل هذا التمثال في عشرة ايام" . وقيل ان السر اوغسطس كلكوت صنع اكثر من اربعين رسمًا قبلما اكمل صورتهُ الشهيرة بصورة روشستر ولا عجب لان التكرار الكثير شرط لازم للنجاح في الصناعات وفي غيرها

ولا بد من التعب والعنا في اتقان الصناعة ولو مهما كانت

مواهب الانسان عظيمة وقريحته متوقدة . وكثيرون من الصناع
كانوا نبهاء من صغر سنهم ولكنّ الذين لم يجتهدوا منهم لم تنفعهم
نباهتهم شيئًا . قيل ان المصور الشهير وست رأى وهو في السابعة
ابن اخته نائمًا فاخذ قلمًا وقرطاسًا ورسم صورته بحبر اسود واحمر
ثم عكف على الرسم والتصوير حتى لم يعد ممكنًا صرفه عنهما ولكنّ
نجاحهُ وهو صغير اضرّ بهِ كثيرًا لانهُ لم يصادف صعوبات
كثيرة لم تعلمهُ التجارب بل اكتفى بما وصل اليهِ بغير تعب .
ورتشرد ولسن كان وهو ولد صغير يمسك فحمة ويرسم بها صور
رجال وحيوانات على جدران بيت ابيهِ وكان مغرمًا برسم
الاشخاص ولكن حدث مرة وهو في رومية انهُ اتى بيت زكارلّي
وكان زكارلي غائبًا فاخذ يصور الاراضي الواقعة تجاه كوة الغرفة
التي كان فيها . ثم اتى زكارلي ورأى تلك الصورة فاندهش من
حسن منظرها وقال لولسن هل تعلمتَ تصوير الاراضي فاجابهُ
كلَّا فقال لهُ اذن انصحك ان تتعلمهُ واوكد لك انك مصيب
نجاحًا عظيمًا فانتصح بهذه النصيحة وتعلم هذا الفن وتعب على اتقانهِ
تعبًا جزيلًا فصار راس مصوري الانكليز في تصوير الاراضي
ولما كان السر يشوع رينلدس صغيرًا كان يترك مثالثهُ
ويلتهي بالرسم وقد نهاهُ ابوهُ عن ذلك مرارًا كثيرة فلم يزدد الَّا
ولعًا وانشغافًا وبقي على ذلك حتى صار مصوّرًا شهيرًا . وكنسبرو
كان يمضي الى الغابات وهو ولد صغير ويمارس التصوير ولم يبلغ

الثانية عشرة حتى صار مصورًا ماهرًا. قيل انهُ لم يرَ منظرًا يستحق التصوير الاَّ صوَّرهُ . ووليم ابلك كان ابوهُ يبيع جوارب وكان يسلي نفسهُ وهو صغير برسم صورٍ على قفا قوائم ابيهِ وعلى مائدتهِ. وادورد برد كان يصعد على كرسيٍّ وهو ابن اربع سنوات ويرسم على الحائط صورًا دعاها جنودًا فرنساوية وانكليزية ولما كبر قليلاً وضعهُ ابوهُ عند رجل يصنع صواني الشاي فتعلم هذه الصناعة ثم ارتقى بدرسهِ واجتهادهِ حتى صار من اعضاء المدرسة الملكية . وهوغرث لما كان في المدرسة كان مشهورًا بالكسل وكان متاخرًا في دروسهِ الاَّ انهُ كان متقدمًا على كل التلامذة في الكتابة وفي تجميل ما يفرض عليهِ المعلم كتابتهُ . ثم وضعهُ ابوهُ عند صائغ حيثما تعلم الرسم على الملاعق والنقش عليها ثم تقدم الى النقش على النحاس وكان مولعًا بنقش صور الغيلان والتنانين وما اشبه مما كان يستعملهُ اهل الفروسة سمةً لهم ومن ثم تقدم الى رسم الصور البشرية واظهار ما بها من الامارات فبلغ في ذلك شأْوًا بعيدًا بواسطة اجتهادهِ وتدقيقهِ وكان اذا رأَى صورة غريبة رسخت في ذهنهِ بكل تفاصيلها حتى يرسمها على القرطاس حينما يريد وقد مرَّن هذه العادة وقوَّاها بالممارسة الطويلة حتى صارت مالكة فيهِ. واذا رأَى صورة بديعة او هيئة نادرة رسمها حالاً على ظفر ابهامهِ لكي ينقلها على القرطاس عندما تمكنهُ الفرصة وكان يجد لذة خاصة في كل شيءٍ جديد او غريب حتى لم يفت نظرهُ شيءٌ وكثيرًا ما

كان يعرّج عن الطريق لكي يرى امورًا جديدة فخزن في ذاكرته قدرًا جزيلاً من الرسوم والاوصاف التي ظهرت اخيرًا في مصنوعاته ولذلك ترى في تصاويره رسمًا واضحًا لعوائد اهل عصره واخلاقهم وافكارهم . ولقد كان من رايهِ ان لا مدرسة لتعليم التصوير الاّ مدرسة الطبيعة . غير انهُ لم يكن متضلعًا من العلوم والمعارف لانهُ لم يدرس في المدرسة اكثر من القراءة والكتابة ولم يكن ذا ثروة ولكنهُ عاش بحسب دخلهِ وكان يفتخر بذلك حتى بعد ان صار من ذوي الشهرة واليسار ولقد قال من جملة كلام لهُ انني لم انسَ الزمان الذي كنت اطوف فيهِ الاسواق منكسر الخاطر صفر اليدين ولكنني كنت اذا حصلت بضع دنانير تقلدت سيفي وخرجت بين الناس كمن في جيبهِ الف دينار

قيل ان النقاش بَنكس الشهير جعل انموذجهُ هاتين الكلمتين الاجتهاد والمواظبة وجرى بموجبها وحث الغير على ذلك . وقد اشتهر امرهُ باللطف والانس وسدادة الراي واخلاص النصح حتى كان يقصدهُ كثيرٌ من الشبان ليستنصحوه ويستعينوا بهِ . روي ان فتى قصدهُ ذات يوم لهذه الغاية فقرع الباب شديدًا فخرجت اليهِ الخادمة مغضبة من ذلك وانتهرتهُ واوشكت ان تطردهُ فسمعها بنكس وخرج بنفسهِ وقال للفتى ماذا تريد يا ابني فقال ارغب يا مولاي في ان تدخلني الى مدرسة التصوير وكان بيدهِ بعض التصاوير التي صورها فقال لهُ بنكس (بعد ان

افهمهُ ان ادخال التلاميذ غير منوط بهِ) ارني هذه التصاوير فاخذها وتروّى فيها ثم التفت اليهِ وقال لا تستعجل في الدخول الى المدرسة يا ولدي بل اذهب الآن الى بيتك وواظب على دروسك واجتهد لكي تصور صورًا احسن من هذه . وتعال اليَّ بعد شهر وارني تصويرك . فذهب وعكف على التصوير باجتهاد شديد ورجع اليهِ بعد شهر فرأى بنكس ان تصويرهُ صار احسن الّا انهُ نصحهُ لكي يداوم على الدرس والتصوير فرجع اليهِ بعد اسبوع واذا بتصويرهِ قد تحسن كثيرًا فطيب خاطرهُ وقال اذا فسح الله لك في الاجل صرت من المصورين العظام وهكذا كان

ان سبب شهرة كلود اللوريني اجتهادهُ العظيم فانهُ ولد في شمبانيا من والدين فقيرين ووضع في صباهُ عند حلواني ليتعلم صناعتهُ وكان لهُ اخ اكبر منهُ حرفتهُ نقش الخشب فنقلهُ الى حانوتهِ ليتعلم هذه الحرفة فاظهر فيها حذاقة شديدة وحدث ان مسافرًا مر بهِ وطلب من اخيهِ ان يسمح لهُ باستصحابهِ معهُ الى ايطاليا فقبل طلبهُ وارسلهُ معهُ فوصلا الى رومية ودخل كلود في خدمة اغستينوتسي مصور الاراضي فتعلم منهُ هذه الصناعة ثم طاف في ايطاليا وفرنسا وجرمانيا وكانت نفقتهُ مما يصورهُ في طريقهِ من المناظر الطبيعية . ثم رجع الى رومية فتقاطر الناس الى طلب تصاويرهِ فحاز شهرة عظيمة امتدت في كل اوروبا . وكان يصرف قسمًا كبيرًا من وقتهِ في تصوير الابنية والاراضي والاشجار والاوراق

وما اشبه ويبقي صورها الى حين الحاجة لكي يدخلها في ما عساهُ ان يصورهُ . وكان يراقب الجو اياماً كثيرة من الصباح الى المساء ويلاحظ تغيراتهِ بر السحاب واختلاف النور . وبمواظبتهِ على ذلك مهر في صناعتهِ مهارة فائقة فنال الاسم الاول بين مصوري الاراضي

وترنر الذي لُقب كلود الانكليزي لم يكن دون كلود الفرنساويين جدًّا واجتهادًا . قيل انهُ كان من قصد ابيهِ ان يعلمهُ حرفتهُ الحلاقة ولكن حدث انهُ رسم صورة على صينية من الفضة فرآها واحد من زبناء ابيهِ واعجبهُ منظرها فعزم ابوهُ ان يدعهُ يتعلم التصوير حسب ميلهِ وفعل فصادف ترنر صعوبات كثيرة كغيرهِ من الصناع ولا سيما لضيق ذات يدهِ الاَّ انهُ كان يحب العمل ولا يستعفي منهُ مهما كان دنيئاً لانهُ كان يربح بهِ شيئاً من المال ويمهر في صناعتهِ . ومما اشتهر بهِ انهُ لم يتهامل قط في اتقان عمل ولو كانت اجرتهُ بخسة بل كان يعمل كل شيء بكل ما يمكنهُ من الاتقان حتى انهُ لم يترك رسماً الاَّ بعد ان يجيدهُ اكثر من سلفهِ ومَن يا ترى يشك في نجاح شخص هذه حالهُ . فنجح نجاحاً عظيماً وخلَّد اسمهُ في ما صنعهُ ولا سيما في التصاوير التي وهبها للامَّة

واطالما كانت بغية المصورين والنقاشين زيارة رومية لانها مركز ارباب هاتين الصناعتين . والسفر اليها يقتضي نفقة عظيمة والصناع غالباً فقراء الاَّ انهم كثيراً ما كانوا يأتونها رغماً عن كل

الموانع كما فعل فرنسوا بَرْيه المصور الفرنساوي الذي تمكن من بلوغها بجملهِ نفسهُ قائدًا لشحاذ اعمى وكما فعل جكي كالو الذي كان ابوهُ من اكبر مضاديهِ ومانعيهِ عن معاطاة التصوير الاّ ان ذلك لم يكن ليثني عزمهُ لانهُ هرب الى ايطاليا واذ لم يكن معهُ نفقة السفر اختلط بقوم من النوَر وجال معهم من مكان الى آخر مشتركًا بسرّائهم وضرّائهم وقد درس في غضون ذلك هيئات البشر واطوارهم وظهرت نتيجة درسهِ في الصور التي حفرها بعدئذٍ ولما وصل الى فلورنسا راقت حذاقتهُ في عيني رجل من اعيانها فوضعهُ صانعًا عند نقاش الاّ انهُ لم يقنع بالاقامة هناك بل طلب البلوغ الى رومية فسدد خطواتهِ اليها ولم يلبث ان دخلها حتى تعرف بپوريجي وثومسّين اللذين تنبآ بانهُ سيكون مصورًا ماهرًا لما رأيا الرسوم التي رسمها (بالكريون) وصادفهُ هناك احد اصحاب عائلتهِ فالزمهُ ان يرجع معهُ الى بلادهِ واهلهِ ولكنهُ كان قد ولع بالجولان فترك البيت ثانيةً وضرب في البلاد فذهب اخوهُ بطلبهِ وارجعهُ قسرًا ولما رأى ابوهُ منهُ ذلك سلم لهُ مكرهًا بالذهاب الى رومية والدرس فيها فمضى اليها واقام فيها مدة طويلة وهو يدرس التصوير والنقش على مصورين ماهرين ولما كان راجعًا الى فرنسا شجعهُ كزمو الثاني على الاقامة في فلورنسا فاقام فيها سنين عديدة ممارسًا التصوير. ولما توفي كزمو المذكور رجع كالو الى بيت ابيهِ في نَنسي فاشتهر فيها شهرة عظيمة واثرى اثراءً وافرًا بقلمهِ وازميلهِ. ثم

لما أُخِذت ننسي في مدة الحروب الاهلية طلب منهُ رشلو ان ينقش رسم تلك الحادثة فلم يجبهُ الى طلبهِ لانهُ لم يرد ان يبقي ذكرًا لما اصاب وطنهُ من البلايا فلم يثنِ رشلو عن عزمهِ ولذلك طرحهُ في السجن فوجد في السجن بعضًا من اصحابهِ النور الذين سافر معهم . ولما بلغ امر سجنهِ الملك لويس الثالث عشر امر باطلاقهِ ووعدهُ بان يعطيهُ مهما اقترحهُ عليهِ فلم يقترح سوى ان يُطلَق سبيل اصحابهِ النور ويُؤْذَن لهم بالاستعطاء في باريس فاعطي طلبهُ بشرط ان ينقش تماثيلهم فنقشها وطبعها في كتاب سماهُ الشحاذين . وقد عرض هذا الملك على كالو ثلاثة آلاف ليرا جعلاً سنويًا بشرط ان لا يبابن باريس فلم يرتضِ محبة بوطنهِ بوهيميا فرجع الى ننسي وواظب على حرفتهِ الى ان ادركتهُ الوفاة فترك وراءهُ ما ينيف على الف وست مئة صورة منقوشة وهذا يدل على انهُ كان من احذق النقاشين واكثرهم جلدًا وانصبابًا هذا فضلاً عمَّا في اعمالهِ من الدقة والاتقان الغريبين

وهاك سيرة من فاق كل مَنْ ذكرناهم في اقتحام المخاطر وهو بنفنيتو سليني الصائغ والمصور وصانع التماثيل والنقاش والمهندس والمولف . وكان ابوهُ جوڤاني سليني من اللاعبين على آلات الطرب في بلاط لورنزو دى مديسي في فلورنسا وكان يأمل ان يعلم ابنهُ لعب الفلوت ولكنهُ لم يلبث طويلاً حتى فقد مركزهُ فاضطر ان يعلمهُ حرفة اخرى فوضعهُ صانعًا عند صائغ وكان لهُ رغبة طبيعية

في الرسم والتصوير فاظهر حذاقة شديدة في صناعة الصياغة . وحدث ذات مرة انهُ دخل في خصام حدث في المدينة فنفي من وطنهِ سنة فذهب الى سينا وكان يعمل عند صائغ فيها فازداد خبرة في فني الصياغة والجوهرية

وكان لم يزل من عزم ابيهِ ان يعلمهُ الغنا فبقي يمارس التغني بالفلوت كرهًا لانهُ لم يكن يلتذ الاَّ بالنقش ثم رجع الى فلورنسا ودرس اعمال لبونردو دا فنسي وميخائيل انجلو ومن ثم قصد رومية ليتقن صناعة الصياغة فاتقنها ورجع الى فلورنسا بشهرة عظيمة ولكنهُ كان نزقًا سريع الغضب فوقع في ما الجأهُ الى الهرب من فلورنسا بزي راهب فاتى الى سينًا ومنها الى رومية . فصادف في رومية حظًّا وافرًا وادخل في خدمة البابا بصفة صائغ ومغنٍ وكان يدرس مصنوعات احذق الصناع ويعمل في ترصيع الجواهر ونقش الخواتم وحفر الذهب والفضة والنحاس ففاق كل معاصريهِ ولم يسمع بصائغ مشهور في عملٍ من اعمال الصياغة الاَّ وعزم ان يفوقهُ فيهِ فلم يترك فرعًا من صناعتهِ الاَّ نال فيهِ قصب السبق وكان مع اجتهادهِ الجزيل سريع التنقل لاننا نراهُ مرةً في فلورنسا واخرى في رومية واخرى في منتوا ثم في رومية ثم في نابولي ثم في فلورنسا ثم في باريس وكان يسافر من مكان الى آخر على ظهر الخيل فلم يمكنهُ ان ياخذ معهُ امتعة كثيرة ولا آلات ولذلك كان حيثما نزل ابتدأ في اصطناع الادوات اللازمة لهُ ولم

تخرج من يدهِ قطعة من المصاغ كبيرة كانت ام صغيرة الاَّ وهي في غاية الانقان في شكلها وصوغها ونقشها لانهُ كان يصنع كل شيء بيدهِ وفضلاً عن كل ما ذكر كان سريعًا في اعمالهِ حاذقًا جدًّا.

قيل انهُ دخل جراح ذات يوم دكان دافلو دل مورو الصائغ ليعمل عملية جراحية في يد ابنتهِ فالتفت سليني الذي كان من جملة من حضر الى آلة الجراح واذا بها ضخمة عديمة الانقان فطلب منهُ ان يتمهل بضع دقائق ثم هرع الى دكانهِ واخذ قطعة من الفولاذ الجيد واصطنعها سكينًا جميلة المنظر بديعة الانقان واعطاها للجراح فعمل العملية بها

من التماثيل العظيمة التي صنعها هذا الرجل تمثال جوبيتر من الفضة صنعهُ في باريس للملك فرنسيس الاول وتمثال برسيوس من نحاسٍ صنعهُ للكران دوق كزمو الفلورنسي وصنع تماثيل من مرمر لابلو وهياسنثيوس ونرسيسوس ونبتون اما تمثال برسيوس فانهُ صنعهُ اولاً من شمع واراهُ للكران دوق فقال انهُ لمن المحال ان يسبك تمثال من نحاس مثل هذا فدبت الحميَّة في راس سليني وقال لا بد من ان اسكبهُ هكذا ومضى من ساعتهِ وصنع تمثالاً من خزف وشواهُ ثم غطاهُ بالشمع وجعل ظاهر الشمع بهيئة التمثال تمامًا ثم غطى الشمع بطبقة اخرى من الخزف وشواهُ ثانية في حفرة محفورة تحت الاتون الذي ذوّب فيهِ النحاس فذاب الشمع وترك خلاءً بين الخزفين لكي يسكب فيهِ النحاس

المصهور. ولكنهُ اوقد حطبًا من الصنوبر والصنوبر كثير المواد القلفونية فاحتدمت النار حتى احترق المكان الذي كان العمل فيهِ ثم عصفت الرياح وهطلت الامطار فاخمدت النار ولم يصهر المعدن فمضى عليهِ ساعات كثيرة وهو يحاول ابقاءها محتدمة وقاسى في ذلك تعبًا شديدًا فاعيا من شدة التعب حتى خاف ان يقضي نحبهُ قبل ان يكمل سبك التمثال فترك العمل الى معاونيهِ ومضى الى سريرهِ ولكن لم يمضِ الَّا برهة يسيرة حتى دخل واحد وقال قد فسد كل عملك فهرع اساعتهِ الى الاتون واذا بالنار قد خمدت والمعدن تجمد فارسل واستحضر حطب سنديان يابس من عند جارلهُ واخذ يوقد بكثرة فاحتدمت النار وصهر المعدن الَّا ان الرياح كانت لم تزل تعصف شديدًا والامطار تهطل غزيرًا فاقام سترة من الموائد والنُسُج وجلس تحتها يزج الوقود ثم رمى في الاتون قطعة من اللحام فوق المعدن وحركهُ جيدًا فذاب كلهُ وحان الوقت لسكبهِ في القالب واذا بصوت عظيم اشبه بالرعد القاصف ووميض برق لاح امام عينيهِ فالتفت واذا بسدادة الاتون قد انفتحت وانبثقت منهُ الصهارة ولكنها لم تجرِ بالسرعة المطلوبة فاسرع الى المطبخ واخذ كل آنيتهِ النحاسية وكانت تنيف على مئتي اناء وطرحها في الاتون فاستقام جريان الصهارة وهكذا سبك تمثال برسيوس الشهير. واسراع سليني الى المطبخ وتعريتهُ اياهُ من آنيتهِ يذكرنا بما فعلهُ پالسي لما احرق اثاث

بيتهِ كما تقدم في الفصل الثالث ✗

وممّن لهم المقام الاوّل بين المصورين نيقولاس بوسن الشهير ذو العقل الثاقب والمناقب الحميدة . وهاك طرفًا من سيرتهِ . ولد في اندليس بقرب روان . وكان ابوهُ يعلم في مدرسة صغيرة فتعلم فيها الّا انهُ كان يتغاضى عن دروسهِ ويصرف اكثر وقتهِ في التصوير على حواشي كتبهِ فحدث ان مصورًا رأَى رسومهُ فاعجبتهُ كثيرًا وطلب من والديهِ ان لا ينهياهُ عن التصوير ثم اخذ بوسن يتعلم على هذا المصور فنجح نجاحًا عظيمًا حتى انهُ فاق معلمهُ وكان قد زاد هيامهُ في هذه الصناعة فترك معلمهُ هذا ومضى الى باريس وهو اذ ذاك ابن ثماني عشرة سنة وكان يحصل ما يقوم باودهِ من تصوير (سمات الحوانيت) . فصادف في باريس ميدانًا واسعًا للصناعات ووجد فيها ما اذهلهُ فدخل مجامع التصوير ونقل صورًا عديدة ولم يلبث طويلاً حتى عزم على زيارة رومية ام المدائن ومرضعة المصورين فحرك ركابهُ نحوها ولكنهُ عجز عن البلوغ اليها وابعد مكان وصل اليهِ فلورنسا فاقام فيها برهة يسيرة ثم قفل راجعًا الى باريس وبعد قليل سدد خطواتهِ مرة اخرى نحو رومية ولكن لم يمكنهُ ان يتخطى ليون الّا انهُ لم يدع بابًا يُستفاد منهُ الّا قرعهُ ولم يترك ينبوعًا يستقى منهُ الّا وردهُ . ومضى عليهِ اثنتا عشرة سنة ونيف يتعب في اتقان هذه الصناعة وهو بين تصويب وتصعيد الى ان ساعدتهُ التقادير فاتى رومية العظمى واجال طرفهُ مليًا في

اعمال ارباب الصناعات وخصوصاً في التماثيل القديمة العهد واقام عند دوكانولي النقاش الشهير وساعدهُ في تمثيل اشهر اصنام رومية القديمة وقد ارتأى بعضهم ان هذا العمل أثّر تأثيرًا عظيمًا في ذوقهِ . ودرس في غضون ذلك التشريح ومارس تصوير الاشخاص وطالع مؤلفات كثيرة في صناعة التصوير استعارها من اصحابهِ. وكان كل هذه المدة في غاية الفقر الَّا انهُ لم يضجر من ذلك لانهُ كان يتقدم في اتقان صناعتهِ . وكان يبيع صورهُ باي ثمنٍ كان فباع صورة نبي بثماني ليرات وباع صورة الوباء الذي اصاب الفلسطينيين بستين ريالاً وقد بيعت هذه الصورة ثانيةً للكردينال ده رشلو بالف ريال . ثم اعتراهُ مرض شديد فوق ما المَّ بهِ من المتاعب فانهك جسمهُ لكن رزقهُ الله من اعتنى بهِ وهو الكافليرِ دل بسُّو فلما نقه صور لهُ صورة الراحة في البرية مجازاةً لهُ على اعتنائهِ بهِ فوفاهُ واوفى . وبقي مع كل ما بلغهُ من النجاح غير مكتفٍ فانطلق الى فلورنسا وڤينيسيا ووسع دائرة معارفهِ فظهرت اثمار اتعابهِ في صور كبيرة اخذ في تصويرها نحو ذلك الوقت منها صورة موت جرمانيكوس وصورة المن وغيرهما من الصور الشهيرة . فاشتهر صيتهُ ولكن بطيئاً لانهُ كان مائلاً الى الانفراد ومجانبة الناس حتى وصفهُ بعضهم بالتامل اكثر مما وصفوهُ بالتصوير فانهُ صرف اوقات العطلة جائلاً في البراري متأملاً في كيفيات جديدة للتصوير . وكان يحب المعيشة في رومية

ويفضلها على ما سواها لان ليس فيها تغيرات كثيرة تزعج البال فعهد على نفسهِ انهُ اذا حصل فيها ما يقوم باودهِ لا ينتقل الى غيرها وكان في هذا الوقت قد امتد صيتهُ الى خارج رومية ووردت اليهِ دعوات عديدة ليرجع الى باريس وعُرض عليهِ ان يكون رأْس مصوري الملك فتردد في اوَّل الامر في قبول هذه الدعوة قائلاً انهُ عاش خمس عشرة سنة في رومية وتزوج فيها ولم يعد ينتظر الاَّ دنو الاجل ولكن كثر الالحاح عليهِ حتى انهُ ترك رومية وعاد الى باريس فصادف فيها الجم الغفير من الحاسدين .

وصور مدة اقامتهِ في باريس صورا عديدة مثل صورة القديس زفير وصورة المعمودية وصورة العشاء الاخير وكان يصور كل ما يطلب منهُ مثل صور الكتب الملكية ورسوم البلاط والقاعات وغير ذلك فتشكى الى دوشنتالوب قائلاً " انني لا استطيع القيام بكل هذه الاعمال لان ليس لي الاَّ يدان ورأْس ضعيف ولا احد يساعدني ويخفف اتعابي

قلنا ان نجاحهُ في باريس اهاج عليهِ كثيرًا من الحاسدين فلم تطب لهُ الاقامة فيها ولذلك تركها حالما سمحت لهُ الفرصة ورجع الى رومية وسكن في بيتهِ القديم على تل بنسيو وواظب على صناعتهِ باجتهاد وكان يعيش بالبساطة ويصرف القسم الكبير من وقتهِ في المطالعة وقد قال من جملة كلام لهُ انني كلما اتقدم في السن تزيد رغبتي في احراز الدرجة العليا بين المصورين . فدام

على اجتهادهِ الى ان حضرتهُ الوفاة سنة ١٦٦٥ ولم يخلف اولادًا وكانت زوجتهُ قد توفيت قبلهُ فأُرسلت تركتهُ الى اقربائهِ في اندلوس وكانت تبلغ عشرة آلاف ريال

ومن المتاخرين الذين تستحق سيرهم ان تدوَّن في بطون التاريخ ادي شفر الذي خصص حياتهُ لخدمة التصوير. فهذا ولد في دترتخت من والد جرماني حرفتهُ التصوير فاظهر في حداثتهِ ميلاً لهذه الصناعة الَّا ان اباهُ مات وهو حدث فعزمت امهُ ان تنتقل بهِ الى باريس لكي تمكنهُ من الدرس فيها مع انها لم تكن من ذوي اليسار فوضعتهُ عند گارن المصور ولكن لم يمكنها ان تسمح لهُ بتخصيص كل وقتهِ لتعلم التصوير بسبب ضيق ذات يدها مع انها كانت قد باعت كل مصاغها وانكرت على نفسها كل تنعم لكي يمكنها ان تقوم بتعليم اولادها. فلا بد لهذا الشاب من ان يسعى في مساعدة امهِ وقد فعل لانهُ لما بلغ الثامنة عشرة شرع يصور صورًا صغيرة ويبيعها باثمانٍ معتدلة فراجت رواجًا عظيمًا. ومارس ايضًا تصوير الاشخاص فربح مالاً وتقدم في اتقان صناعتهِ. واوَّل صورة اشهرها واشهر بها هي صورة المعمودية وما زال يتقدم في صناعتهِ الى ان بلغ صيتهُ الدرجة العليا وذلك عند اشهارهِ صورة الفوست وصورة فرنسيسكا ده ريميني وصورة يسوع المعزي وصورة النساء القديسات وصورة القديس اوغسطينوس وغيرها

قال مستر كروث ان مقدار التعب والتامل الذي تكبده شفر في عمل صورة فرنسيسكا يفوق الوصف وذلك لان معرفتهُ في اصول العلوم كانت قاصرة جدًّا حتى انهُ اضطران يتسلق في عراقيبها الشاهقة وليس لهُ دليل سوى فكرهِ الثاقب وكان عليهِ ان يجرب امورًا كثيرة في تركيب الالوان قبلما يصل الى المطلوب وكثيرًا ما كان يصوّر شيئًا ثم يمحوهُ ويصورهُ ثانيًا وثالثًا الى ان يوافق ذوقهُ كأنَّ الطبيعة قد وهبتهُ قوة الصبر والمزاولة تعويضًا عن نقص معارفهِ

ومن الصناع الذين كان شفر يعجب بهم فلكسمن. قال مرةً لاحد اصحابهِ اذا كنت قد اقتبست شيئًا في فرنسيسكا وان يكن عن غير قصد فمن صور فلكسمن . اما فلكسمن هذا فهو ابن رجل فقير حرفتهُ بيع صور الجبسين وكان في صغرهِ نحيف الجسم حتى انهُ كان يوضع في دكان ابيهِ ويُسند بالمساند وكان اذ ذاك يتسلى بالقراءة والرسم . وحدث ذات يوم ان زار دكان ابيهِ الفاضل القس متيوس فرأى هذا الولد عاكفًا على قراءة كتاب فتطلع واذا الكتاب نسخة من كرنيليوس نبوس اشتراها لهُ ابوهُ من بعض المكاتب فتحدث معهُ قليلاً ثم قال لهُ ان هذا الكتاب لاتناسبك قراءتهُ ولكني سآتيك بكتاب افضل منهُ فاتاهُ في اليوم الثاني وبيدهِ نسخة من هومر ونسخة من دون كوزوت فقرأهما بلذة وللحال شغفت لبهُ حماسة هومر وكان في دكان ابيهِ كثير من

التماثيل التي تشخص اجكسس واخيليس فعزم ان يصور صور الابطال الذين قرأ سيرهم . فكانت هذه الصور خالية من كل اتقان مثل صور غيره من الاحداث المبتدئين . وفي احد الايام اخذ ابوهُ هذه الصور واراها اروبلياك النقاش فتأفف من رؤيتها ولكن ما كان ذلك ليوهن عزم فلكسمن بل زادهُ رغبة وما ابث ان صار يصنع تماثيل من جبسين وشمع وبعض هذه التماثيل باقٍ تذكارًا لأوّل اثمار قريحتهِ

ثم ان مستر مثيوس المتقدم ذكرهُ دعاهُ الى بيتهِ فقرأ على امرأتهِ هوميروس وملتون ودرساهُ كلاهما اليونانية واللاتينية وكان تصويرهُ قد تحسن في هذا الوقت حتى ان احدى السيدات طلبت منهُ ان يصور لها ست صور تشخص امور مذكورة في هوميروس فصنعها واجاد فدفعت لهُ اجرةً حسنة واثنت عليهِ ثناء جميلاً وكانت هذه الاجرة باكورة ما كسبهُ من التصوير

ولما بلغ الخامسة عشرة تتلمذ في المدرسة الملكية وفي وقت قصير اشتهر امرهُ بين الطلبة مع انهُ كان يحب العزلة فانتظروا منهُ امورًا كثيرة ولم يخب انتظارهم لانهُ نال الجائزة الفضية وهو في الخامسة عشرة وكان في السنة التالية يبين المستحقين الجائزة الذهبية وظن الجميع انهُ سينالها ولكن نالها تلميذ آخر لم يعرف عنهُ شيء بعد ذلك وقد استفاد فلكسمن كثيرًا من خيبتهِ هذه لان الفشل لا يوهن عزم اولي الهمة بل يزيدهم حزمًا واقدامًا فاسمع ما قالهُ

لابيهِ حينئذٍ قال "اعطني وقتًا فاصنع اعمالاً تفتخر بها المدرسة".
ثم اخذ يرسم ويصور باجتهاد لا يفوقهُ اجتهاد ولكن كان بيت ابيهِ حينئذٍ في ضنك عظيم لان تجارة التماثيل الجبسينية لم يكن منها ربح كافٍ فطرح هوميروس جانبًا واخذ يسعف اباهُ في عملهِ فتدرب الى احتمال المشقات واستقبالها بالصبر الجميل

وحدث ان شهرتهُ في الرسم طرقت اذني يوشيا وِدجود الخزاف المار ذكرهُ في الفصل الثالث فاستدعاهُ لكي يصنع لهُ رسومًا للخزف الصيني الذي كان يصنعهُ . وربما ظهر ان هذا العمل لا يليق بمصور ماهر كفلكسمن وليس الامر كذلك لان الآنية التي يقع نظر الناس عليها دائمًا تفيدهم رؤيتها ماديًا وادبيًا اكثر من الصور الثمينة التي تباع بالوف من الليرات لتعلق في بيت رجل غني حيث لا يراها الاَّ القليل . وكانت رسوم الآنية الخزفية قبل ايام ودجود او بالحري قبل ان استخدم فلكسمن شنيعة الى الغاية فابدلها فلكسمن برسوم جديدة تشخص اشخاصًا وحوادث مذكورة في كتب الاقدمين . واقتبس امثلة من الكؤوس الاترسكانية ونقشها نقوشًا جميلة . ثم نشر ستورت كتابهُ في اثينا وفيهِ رسوم الآنية اليونانية فاقتبس فلكسمن اجملها منظرًا وتفنن في رسمها ونقشها فوضح لهُ انهُ عاملٌ عملاً ذا طائلٍ لا يقل عن تهذيب الجمهور كلهِ . وكان يفتخر عند ما تقدم في السن انهُ هذب ذوقهُ بهذا العمل وبث محبة التصوير والرسم في اذهان العامة وكسب

مالاً غير قليل واغنى مستخدمهُ وجود

وسنة ١٧٨٦ ترك بيت ابيهِ واستأجر بيتًا صغيرًا في سوق وردُر ثم تزوج بفتاة تدعى حنة دَنْمن وكانت تحب الشعر والتصوير وتعجب بمهارة زوجها. ويقال ان السر يشوع رينلدس المصور الشهير التقى بفلكسمن بعد زواجهِ ببرهة يسيرة وقال لهُ بلغني انك تزوجت فاذا كان الامر كذلك فلم تعُد مصورًا. فمضى فلكسمن الى البيت وجلس بجانب امراتهِ وقال لها الا ترين يا حنة اني عدمت صناعتي فقالت مَنْ اعدمكها قال انتِ قالت وكيف ذلك اصدقني الخبر فقصَّ عليها ما قالهُ لهُ السر يشوع رينلدس الذي كان من رأْيهِ دائمًا ان مَنْ يقصد اتقان التصوير يجب ان يصب كل قوى عقلهِ عليهِ من الصباح حتى المساء وانهُ لا يمكن لاحد ان يكون مصورًا ماهرًا ما لم يذهب الى رومية وفلورنسا ويشاهد اعمال رافائيل وميخائيل وغيرهما ثم التفت اليها وقال وانا مرادي ان اكون مصورًا ماهرًا فقالت وستكون وتزور رومية ان كان ذلك لابد منهُ للمهارة في التصوير. قال بمَ قالت بالاجتهاد والاقتصاد لاني لا اريد ان يقال ان حنة دنمن اعدمت يوحنا فلكسمن صناعتهُ فقال اذًا سامضي الى رومية وتكونين برفقتي وسوف اري الرئيس (يريد بهِ رينلدس) ان الزواج يأول لخير الرجل لا لضررهِ

فبقيا خمس سنوات في بيتها الصغير واضعين زيارة رومية

نصب اعينهما ولم يصرفا فلسًا واحدًا بغير لزوم بل كانا يذخران كل ما يمكنهما ذخرهُ ليصرفاهُ في ذلك السفر الطويل ولم يكاشفا احدًا بما اضمراهُ ولم يطلبا مساعدة المدرسة بل اعتمدا على عمل ايديهما وميل قلبيهما . ولم يكن فلكسمن قادرًا على ابتياع المرمر ونقش التماثيل المبتكرة ولكنهُ صنع عدة تماثيل مما يوضع فوق اللحود حسب طلب اهلها فكسب بها ما يكفي لنفقة بيتهِ وذخر اجرتهُ التي كان ياخذها من ودجود . وكان اعتبارهُ يزداد بين اهل وطنهِ يومًا فيومًا حتى انهم فوضوا اليهِ جمع رسم الكنيسة

ولما صار عندهُ ما يكفيهِ للسفر قام هو وامرأتهُ وتوجها الى رومية ولما وصلاها اخذ ينقل صورًا عن التماثيل القديمة ويبيعها للزوار وفي ذلك الوقت رسم هوميروس واسكيلوس ودنتي وباع كل رسم بخمسة عشر شلنًا ثم صنع رسمًا لكوبد (اله المحبة) وآخر لاورورا (الهة الفجر) وباعها لتوماس هوب وصنع صورة فوري (الهة النقمة) لارل برستول ثم اخذ يتأهّب للرجوع الى انكلترا لانهُ كان قد نال بغيتهُ. وقبلما ترك ايطاليا انتخبتهُ جمعيتا فلورنسا وكارارا عضوًا منها . ولما وصل الى لندن وجد ان شهرتهُ قد سبقتهُ اليها وان اعمالاً كثيرة مهيأة لهُ منها التمثال العظيم الشهير الذي صنعهُ لينصب فوق لحد اللورد منسفيلد في وستمنستر ولم يزل هذا التمثال تذكارًا لحذاقة فلكسمن . قال بنكس النقاش وهو في معظم شهرتهِ عند ما رأى هذا التمثال " قد قصَّرنا كلنا

س

عن هذا القصير" (يريد بهِ فلكسمن)

ولما سمع اعضاء المدرسة الملكية برجوعهِ ورأَوا ما اذهلهم من الحذاقة التي اظهرها في تمثال منسفيلد طلبوا اليهِ بالحاجة ان يدخل بينهم عضوًا ولم يمضِ عليهِ الاَّ وقت قصير حتى انتخب استاذًا للنقش في المدرسة الملكية ولم يكن اليق منهُ لهذا المنصب كيف لا وقد حصل كل ما حصلهُ بالسعي والاجتهاد متغلبًا على كل ما حال دونهُ من الصعوبات

وعاش فلكسمن زمانًا طويلاً في الراحة والتوفيق ولم يكدر صفاء عيشهِ الاَّ موت امرأتهِ ولكنهُ عاش بعدها سنين عديدة صنع فيها صورتين تعدان من اشهر ما صنعهُ وهما صورة ترس اخيلس وصورة ميخائيل رئيس الملائكة قاهرًا الشيطان

وهاك ترجمة نقَّاش آخر وهو تشنتري الشهير الذي كان يفتخر بانهُ تغلب على الصعوبات الكثيرة المحدقة بهِ باجتهادهِ . وهو ابن رجل فقير من نرتُن بقرب شفيلد ومات ابوهُ وهو صغير فتزوجت امهُ وكان عملهُ حينئذٍ ان يحمّل حمارًا وطبَي لبن ويسوقهُ الى شفيلد فيبيعها فيها ولكنَّ زوج امهِ تذمر من وجودهِ في بيتهِ فوضعهُ صانعًا عند سمَّان . فمر تشنتري يومًا امام دكان نقاش خشب ورأى فيهِ من الادوات المذهبَّة ما اذهلهُ فاحب ان يتعلم هذه الصناعة واخذ يتوسل الى اصدقائهِ لكي يضعوهُ عند النقاش فاستحسنوا ذلك ووضعوهُ عندهُ صانعًا ليتعلم النقش والتذهيب

بشرط ان يبقى عندهُ سبع سنوات. وكان معلمهُ يصنع ايضاً تماثيل جبسين فتعلم منهُ هذه الصناعة وكان يمضي كل ساعات العطلة في الرسم والتصوير والدرس حتى انهُ كان يحيي قسماً كبيرًا من الليل في مثل ذلك ولما بلغ الحادية والعشرين وكان لم ينتهِ الاجل المعين لبقائهِ عند معلمهِ دفع لهُ كل ما كان يملكهُ حينئذٍ وهو خمسون ليرة لكي يفسخ العقد الذي بينهما ففسخهُ وانطلق الى لندن واخذ يعمل عند نقاش فيها وكان يمضي اوقات الراحة بالدرس والتصوير والتمثيل . ومن جملة الاعمال التي عملها وحدهُ نقش غرفة المائدة لمستر رُجرس الشاعر. وكثيرًا ما كان يدعى بعد ان اشتهر امرهُ لياكل في تلك الغرفة فكان يرى المدعوين معهُ عملهُ الذي عملهُ في اوائل حياتهِ

ثم دعاهُ عملهُ ان يذهب الى شفيلد فذهب اليها واعلن في الجرائد المحلية انهُ يصور الاشخاص بالكربون وبالزيت واوّل صورة صورها بالكربون اخذ ثمنها ليرة انكليزية واوّل صورة بالزيت اخذ ثمنها خمس ليرات وحذاء . ثم رجع الى لندن ليدرس في المدرسة الملكية ولم يلبث طويلاً حتى عاد الى شفيلد واعلن في الجرائد انهُ يصنع تماثيل الناس بالجبسين ويصورهم تصويرًا فطلب منهُ ان يعمل تمثالاً لقسيس متوفّى فعملهُ عملاً متقنًا . ولما كان في لندن صنع تمثال رأس الشيطان ليعرض في معرض التصوير وهو اوّل مبتكراتهِ وكان في غاية المهابة والغرابة . قيل انهُ دخل

عليهِ في اواخر حياتهِ صاحب لهُ والتفت الى هذا الراس الذي كان مطروحًا حينئذٍ في احدى الزوايا فاندهش من منظرهِ فالتفت اليهِ تشنتري وقال لهُ ان هذا الراس اوّل مصنوعاتي في لندن وقد صنعتهُ في تَكَتَة (ما بين السقف والقرميد) وعلى رأسي قلنسوة من الورق واذ لم يمكني حينئذٍ ان اشتري اكثر من شمعة واحدة كنت اركزها في قلنسوتي لكي تدور معي كيفما درت . ولما عرض هذا الراس في معرض المدرسة الملكية رآهُ فلكسمن المار ذكرهُ فاعجبهُ حسن صنعتهِ . وكان قوم يطلبون نقاشًا ليعمل اربع تماثيل لاربعة قواد فاشار عليهم فلكسمن ان يستخدموا تشنتري فاستخدموهُ فعمل التماثيل واجاد وحينئذٍ دعي لعمل تماثيل اخرى وكثر عليهِ الطلب فترك صنعة التصوير واخذ في النقش مع انهُ كان قد عمل في النقش قبل ذلك ثماني سنوات ولم يربح منهُ اكثر من خمس ليرات . ومن اشهر ما نقشهُ راس هورن توك وكان هذا التمثال سببًا لتشغيلهِ باثني عشر الف ليرا . فعُدَّ بين مهرة النقاشين واختير من بين ستين نقاشًا لعمل تمثال الملك جورج الثالث . وبعد ذلك بقليل عمل تمثال الاولاد النائمين الذي لم يزل في كنيسة لتشفيلد الكبري ومن ثمَّ اخذ صيتهُ يمتد في الآفاق وشهرتهُ تزيد يومًا فيومًا ولقد حصل كل ما حصلهُ بالصبر والاجتهاد والمواظبة نعم انهُ كان ذا موهبة فائقة ولكنهُ اجتهد على استعمالها حق الاستعمال وكان كغيرهِ من اهل زمانهِ

رصينًا فطنًا وقد ادخل البساطة التامة في جميع مصنوعاتهِ فان تمثال وط الذي صنعهُ بالغ الدرجة القصوى من الاتقان وهو في غاية ما يكون من البساطة. وكان كريمًا على ابناء صناعتهِ ووهب القسم الاكبر من تركتهِ للمدرسة الملكية لترقية صناعتَي التصوير والنقش

وهاك مثالاً آخر للاجتهاد والمواظبة في حياة داود ولكي المصور وهو ابن قسيس اسكتلندي وقد اظهر من حداثتهِ علامات تدل على ميلهِ للتصوير فكان يمضي اكثر اوقاتهِ في الرسم مستغنمًا كل فرصة لذلك فكنت ترى جدران البيوت ورمال الانهار مغطاة برسومهِ . وكان يستعمل كل قلم صادفهُ وان قطعةً من الفحم ويصور على كل سطح وجدهُ ولو صخرًا املس وقلما زار بيتًا الاَّ رسم شيئًا على جدارهِ علامة لمجيئهِ اليهِ ولو ضد خاطر صاحبة البيت وكان ابوهُ يكره هذه الصناعة محرمًا اياها ولكن ما كان ولكي ليرتدع بردع ابيهِ لهُ بل اعطى نفسهُ هواها وركب مسلكًا مفعمًا من المصاعب . فعرض نفسهُ عضوًا على مدرسة ايدنبرج فرفض لان تصاويرهُ كانت بعيدة عن الاتقان فاخذ يجتهد في اتقان التصوير الى ان قُبل فيها . وكان نجاحهُ بطيئًا جدًّا الاَّ انهُ عقد قلبهُ على النجاح فنجح ولم يقتدِ بغيرهِ من الشبان الذين لا يبالون كثيرًا بالاجتهاد لزعمهم ان لهم موهبة فائقة بل كان ينسب كل نجاحهِ الى اجتهادهِ الدائم ثم عزم على المجيء الى لندن لان فيها بابًا واسعًا

للعلم والعمل فاتاها وصور فيها صورتهُ المسماة بفَلَذْج بولينشينس (رجال السياسة القروبون) فراقت هذه الصورة في عيون الجمهور وفتحت لهُ بابًا واسعًا للعمل وكثر عليهِ الطلب ولكنهُ بقي فقيرًا وذلك لانهُ كان يصرف وقتًا طويلاً في عمل كل صورة حتى مهما كان ثمنها كثيرًا يكون قليلاً بالنسبة الى الوقت الذي اضاعهُ فيها ووضع لنفسهِ انموذجًا مثل انموذج رينلدس وكان يكرهُ المصورين الثرثارين ويقول ان المتكلم يزرع والساكت يحصد . وكان يوبخ الذين يلهونهُ بالحديث بقولهِ لهم هلمَّ نعمل عملاً ما . وقال مرةً لاحد اصحابهِ انني لما كنت ادرس في المدرسة الاسكتسية كان من عادة المعلم كراهم ان يقول لنا بكلام رينلدس اذا كان لكم موهبة فالاجتهاد يقويها وان لم يكن لكم موهبة فالاجتهاد يقوم مقامها ولذلك عزمت ان اكون مجتهدًا الى الغاية القصوى لانني اعلم ان ليس لي موهبة وكان كريمًا جوادًا فانهُ باع صورة الفلدج بولينشينس الى لورد منسفيلد بثلاثين ليرا واشترى بها اردية وارسلها هدية لامهِ واختهِ مع انهُ كان فقيرًا ومحتاجًا اليها . وفي سيرة ريباخ النقاش شذرات كثيرة تدل على كرم ولكي هذا

وهاك مثالاً آخر للاجتهاد العظيم والمواظبة المستمرة في حياة وليم أتي وهو ابن صانع كعك وامهُ ابنة صانع حبال . وقد وُضع في صغرهِ عند طباع ليتعلم صناعة الطباعة ولكنهُ كان يستغنم كل فرصة ويمارس الرسم فكان يملأُ الحيطان برسومهِ ولو

بنجمة ولما انتهت مدة بقائهِ عند الطباع عزم ان يتّبع ميلهُ الطبيعي فساعدهُ عمهُ واخوهُ حتى تتلمذ في المدرسة الكلية ولم يكن ذكيًا الّا انهُ كان مجتهدًا فارتقى باجتهادهِ الى اسمى الدرجات

ان اكثر الصناع قاسوا ضيقات عظيمة واحتملوا ضنك المعيشة الشديد قبل ان نجحوا النجاح المطلوب وربما ان كثيرين منهم برّحت بهم المصائب ولم تنفرج حتى اوردتهم حتفهم فان مرتن المصور اصابتهُ ضيقات شديدة قلَّ مَن اصابهُ نظيرها لانهُ مرارًا كثيرة اوشك ان يموت جوعًا وهو يصور الصورة الاولى الكبيرة. روى بعضهم انهُ مرةً لم يكن في كيسهِ الّا شلن واحد وكان قد عني بحفظهِ لانهُ وجدهُ لامعًا اكثر من غيرهِ اما حينئذٍ فصار مضطرًّا ان يبتاع بهِ خبزًا ليسد رمقهُ فمضى الى الخباز واشترى بهِ خبزًا وهمّ بالخروج فنظر الخباز واذا بالشلن زائف فردهُ عليهِ واخذ منهُ الخبز. فرجع الى منزلهِ منصدع الفواد واخذ يفتش في مزودهِ عساهُ ان يجد شيئًا من فتات الخبز يسد بهِ رمقهُ . وقد احتمل هذا الضنك الشديد بالصبر الجميل وجدّ في عمل الصورة حتى اكملها فعرضها واشتهر امرهُ بها وصار يعد بين المصورين العظام. وحياة هذا الرجل تبين كما تبين حياة باقي حياة المصورين ان الموهبة المعززة بالاجتهاد تكفي للنجاح مهما كانت الاحوال متعسرة وان الشهرة وان تاخرت لا بد من ان ينالها من يستحقها

وافضل الوسائط التي تستعملها المدارس لا يمكنها ان تجعل

الانسان مصورًا ماهرًا ما لم يجتهد هو على ذلك وهذا الامر يصدق على كل نوع من العلوم والصناعات . يروى ان بوجن النجار قال بعد ان تعلم من ابيهِ كل ما كان يعرفهُ من صناعة النجارة انهُ لا يعرف الَّا شيئًا يسيرًا وانهُ يجب عليهِ ان يبتدئ من المبادئ الاولى فاخذ يعمل كنجار بسيط في بعض المعامل وتقدم رويدًا رويدًا الى ان صار يصنع الاشياء الدقيقة ثم لما انتهى المكان الذي كان يعمل فيهِ اخذ يتاجر في سفينة شراعية بين انكلترا وفرنسا وكان كلما سنحت لهُ الفرصة يرسم ما يقع عليهِ نظرهُ من الابنية القديمة كالاديرة والصوامع والكنائس وكان يضرب في البلاد طويلاً لهذا المقصد ومازال على مثل ذلك حتى بلغ درجة عليا بين ارباب هذه الصناعة

ومن قبيل ذلك نجاح جورج كمب راسم مدفن سكت الشهير فانهُ ابن راعٍ مسكين مقامهُ بين تلال بنتلند وهناك تربى غير متمتع برؤية شيء من الصناعات . الَّا انهُ لما بلغ السنة العاشرة ارسلهُ صاحب الغنم التي كان يرعاها ابوهُ الى رُزلين فرأى قلعتها وكنيستها الشهيرتين فاندهش من حسن منظرهما وبقيت صورتها في فكرهِ زمانًا طويلاً . ثم طلب من ابيهِ ان يضعهُ صانعًا عند نجار لكي تكون لهُ فرصة للتمتع بصناعة البناء التي مال اليها كل الميل فوضعهُ ولما انتهت ايام تعلمهِ مضى الى غلاشيلس يطلب عملًا واذ كان مارًّا في وادي نهر تويد وادواتهُ في صندوق

على ظهرهِ مرت بهِ مركبة بقرب برج ألبنك فسالهُ السائق اين نقصد فاخبرهُ انهُ ذاهب الى غلاشلس فاشار عليهِ ان يصعد الى المركبة فصعد واذا بالسر ولتر سكوت راكب فيها وكان هو الذي امر السائق ان يصعدهُ الى المركبة . ولما كان يعمل في غلاشلس ناسبتهُ فرص كثيرة لزيارة ادبرة ملروز ودربيرغ وجدبرغ والاطلاع على ما فيها من صناعة البناء . ثم طاف اكثر شمالي انكلترا ولم يترك بناء غوطيًا الاَّ زارهُ واخذ رسمهُ بعد ان نظر فيهِ نظرًا مدققًا . ولما كان في لنكاشير ذهب الى يورك ماشيًا وذلك مسافة خمسين ميلاً وبقي اسبوعًا كاملاً وهو يبحث في بناء كنيستها الكبيرة ثم رجع ماشيًا . وبعد ذلك انتقل الى كلاسكو واقام فيها اربع سنوات وكان يذهب الى الكنيسة الكبرى كلما مكنتهُ الفرصة ويتامل في بنائها . ثم انتقل الى الجنوب ودرس كنتربري وونشستر وتنترن وغيرها من الابنية الشهيرة . وسنة ١٨٢٤ عزم على الطوفان في اوربا لهذه الغاية وكان يعول نفسهُ على الطريق من عمل يديهِ فوصل الى بولون ومنها الى باريس فصرف فيها بضعة اسابيع وكان يرسم كل ما ظنهُ يستحق الرسم وبما انهُ كان حاذقًا في عمل الآلات والمطاحن وجد عملاً يعمل بهِ حيثما توجه الاَّ انهُ كان يفضل الاقامة بقرب بناية غوطية قديمة لكي ينظر في بنائها كلما سنحت لهُ الفرصة فبقي سنة من الزمان في هذه السياحة ثم انقلب راجعًا الى اسكوتلاندا وواظب

على دروسهِ حتى صار ماهرًا في الرسم وكانت ملروز احب الخرائب اليهِ وقد رسم لها عدة رسوم وواحد منها يبين هيئتها قبل ان خربت . ثم اخذ برسم رسومًا لواحد كان شارعًا في طبع كتاب ذي صور على مبدإ كتاب برتون في اثار الكنائس وكان هذا العمل يلذ لهُ جدًّا وقد عمل فيهِ برغبة شديدة واضطر ان يجول نصف اراضي اسكتلندا لاجلهِ الّا ان المؤلف مات فجأَةً ووُقِف عمل الكتاب فطلب كمب بابًا آخر للرزق . ولم يشتهر امرهُ كثيرًا مع ما وصل اليهِ من الحذاقة واتساع العلم وطول الباع لانهُ كان يميل الى السكوت وعدم التظاهر ولو بما هو في الواقع . ولما عينت لجنة مدفن سكت جائزة لمن يرسم الرسم الافضل لذلك المدفن اختير رسمهُ من بين رسوم كثيرة اكثرها مصنوعة من امهر صناع العصر وكان حينئذٍ يعمل في دير كلوِنن فارسل اليهِ كتاب يعلمهُ باختيار رسمهِ ولكنهُ لم يعش بعد ذلك الّا وقتًا قصيرًا ولم يرَ شيئًا من ثمار اتعابهِ العظيمة راسخة في حجارة ذلك المدفن الذي هو اعظم مدفن اقيم لرجل من رجال الانشاء

ولنا مثل آخر لمحبة الصناعة في حياة جون حبسن. كان ابو هذا الرجل بستانيًا فرأَى ميلهُ الى التصوير والنقش من الخشب الذي كان ينقشهُ بواسطة سكين صغيرة فارسلهُ الى لڤربول ووضعهُ صانعًا عند نقاش خشب فاتقن هذه الصناعة في وقت وجيز وادهش الجميع بجمال منقوشاتهِ ثم انتقل من نقش الخشب

الى نحت التماثيل في الحجارة ولما كان ابن ثماني عشرة سنة صنع تمثالاً للوقت بديع المنظر فاخذهُ اولاد فرنسيس النحاتون بعد ان فكوهُ من معلمهِ الاوَّل ووضعوهُ عندهم صانعاً فعمل عندهم ست سنوات اظهر فيها الغرائب ثم انتقل الى لندن ومن ثم الى رومية وحينئذٍ انتشر صيتهُ في كل اقطار اوربا

وروبرت ثربرن ولد من والد فقير صناعتهُ السكافة وكان لهُ اخوان احدها ماهر في صناعة نقش الخشب وفي ذات يوم دخلت سيدةٌ حانوت ابيهِ فوجدتهُ يرسم رسماً على كرسي صغير فامعنت نظرها في رسمهِ فرأَت انهُ قابل للتحسين فطلبت منهُ ان يرسم لها بعض الصور وعينت لهُ اناساً يساعدونهُ ويعلمونهُ قواعد الرسم فكان غايةً في الاجتهاد والمواظبة والهدو ونحو سنة ١٨٣٠ ساعدهُ بعض محبي الخير حتى دخل مدرسة التصوير الاسكتسية في ايدنبرج فدرس فيها على اساتيذ ماهرين ونجح نجاحاً سريعاً ثم انتقل الى لندن ولاذ بدوك بكليك فعرَّفهُ بالاعيان لا غير لانهُ ما كانت صحبة الدوك ولا صحبة الملك لتصير الصانع ماهراً لان المهارة منوطة بالميل الطبيعي والاجتهاد المستمر

ونويل پاتون المصور الشهير ابتدأَ في صناعتهِ يصنع رسوماً لتطريز اغطية الموائد وكان ايضاً يرسم الصور البشرية ولم يشتهر امرهُ حتى عينت جوائز لصور البرليمنت فصور صورة روح الديانة ونال جائزة من الجوائز الاولى واشتهر بها شهرة فائقة ثم اشهر

صورة مصالحة اوبرون وتيتانيا وصورة الوطن وغيرها مما بان منهُ انهُ كان يتقدم كثيرًا في اتقان هذه الصناعة

ومن المصورين الذين هم من اشهر الامثلة للمواظبة والاجتهاد جمس شاربلس الحداد فان هذا الشهير ولد سنة ١٨٢٥ واخوتهُ واخواتهُ اثنا عشر وهو الثالث عشر وكان ابوهُ يعمل في سبك الحديد ولم يعلّم احدًا من اولادهِ في مدرسة بل كان يرسلهم الى معمل حالما يصيرون قادرين على العمل ولذلك نرى جمس هذا عاملاً في مسبك قبلما بلغ العاشرة ولما بلغ الثانية عشرة دخل معمل الآلات وكان عملهُ فيهِ احماء المسامير وتقديمها لصانع الخلاقين وقد اجتهد ابوهُ في غضون ذلك ان يعلمهُ القراءة مع انهُ كان يقيم في المعمل من الساعة السادسة قبل الظهر الى الثامنة بعدهُ . وكان من عادتهِ ان يمسك خيط الطباشير لناظر المسبك عند ما يرسم رسوم الخلاقين على الارض ويساعدهُ في الرسم فأُغرم بالرسم وصار حينما يرجع الى البيت يجلس على ارضهِ ويرسم عليها رسوم الخلاقين . وفي ذات يوم أُخبرت امهُ ان واحدة من نسيباتها آتية لزيارتهم فنظفت البيت لاستقبالها بقدر ما يمكن وخرجت فلاقتها واتت بها وكان جمس قد عاد في غيبتها من المسبك وجلس يرسم رسم خلقين على الارض كجاري عادتهِ فاغتاظت امهُ عند ما رأتهُ غيظًا شديدًا الآن نسيبتهم مدحت عملهُ هذا وطلبت من امهِ ان تعطيهُ قلمًا وقرطاسًا

ثم اخذ برسم صور الاشخاص والاراضي وينقل الصور المطبوعة وكان يجهل قوانين النور والاظلال ولكنهُ استمر على ما هو فيهِ الى ان برع في النقل . ولما بلغ السادسة عشرة دخل المدرسة الميكانيكية لكي يتعلم صناعة الرسم وكان معلم الرسم فيها حلاق قد تعلم التصوير من نفسهِ وكان جمس يتعلم في هذه المدرسة مرة واحدة كل اسبوع ودام على ذلك ثلاثة اشهر فنصحهُ معلمهُ لكي يستعير من المكتبة مقالات برنت في التصوير ولم يكن يعرف القراءة فكانت امهُ تقرأ لهُ وهو يسمع فتضايق من جهلهِ القراءة كل المضايقة وخصوصًا لرغبتهِ في هذا الكتاب فترك الذهاب الى المدرسة وخصص وقتهُ بتعلم القراءة والكتابة في البيت فنجح سريعًا ثم رجع الى المدرسة وصار يقرأ في كتاب برنت بنفسهِ ولم يكتفِ بقراءتهِ بل كان يكتب ملخص امور كثيرة منهُ ويبقيها معهُ الى حين الحاجة وكان يقوم الساعة الرابعة صباحًا ويعكف على قراءتهِ الى الساعة السادسة وحينئذٍ يذهب الى عملهِ في المسبك ويبقى فيهِ من الساعة السادسة صباحًا الى الثامنة مساء فيرجع الى البيت ويعود الى القراءة ويبقى قارئًا الى نصف الليل وكثيرًا ما كان يحيي قسمًا كبيرًا من الليل او الليل كلهُ في نقل بعض الصور. ثم قصد ان يمارس التصوير بالزيت فاشترى قطعة جنفيص ومدها على برواز ودهنها بالاسفيداج ثم ابتاع اصباغًا واخذ يصور عليها ولكنهُ لم ينجح قط لان الجنفيص كان خشنًا ولم ينشف الصبغ

عليهِ فشاور معلمهُ الحلاق في ذلك فاخبرهُ من اين يمكنهُ ان يبتاع جنفيصاً والواناً محضرة للتصوير . فابتاع المواد اللازمة للتصوير لما صار معهُ ما يكفي لابتياعها واتى معلمهُ الحلاق فعلمهُ بعض المبادئ فلم يلبث ان فاق معلمهُ واوّل صورة صورها نقلها عن صورة مطبوعة تدعى جز الغنم فباعها بنصف ريال . ثم اشترى رسالة صغيرة في فن التصوير بالزيت وصنع لنفسهِ كل الادوات التي يمكنهُ صنعها واشترى البقية بدراهم حصلها مما عملهُ في المسبك فوق المطلوب منهُ وهذا كل ما امكن لوالديهِ ان يسمحا لهُ بهِ لكبر عائلتهما . وكان يذهب الى منشستر ماشياً لكي يجلب شيئاً من الالوان والجنفيص وهي على ثلاث ساعات ويرجع والتعب آخذ منهُ كل ماخذ . وما ياتي ماخوذ من كتاب كتبهُ للمولف

قال "والصورة الثانية التي صورتها صورة ارض واقع عليها نور القمر ثم صورت اثنين او اكثر وحينئذٍ خطر ببالي ان اصور مسبكاً وكان ذلك في فكري منذ زمان طويل ولم اجسر عليهِ قبلاً خوفاً من الفشل ولكني رسمتهُ حينئذٍ على قرطاس وشرعت في تصويرهِ على الجنفيص ولم يكن صورة مسبك خاص ولذلك يمكنني ان احسبهُ صورة مبتكرة لكوني لم انقلهُ عن شيء وبعد ان رسمت الخطوط المحدِّدة رأيت انهُ يلزمني ان ادرس التشريح جيداً لكي يمكنني ان اصور اعضاء العمّال وعضلاتهم تصويراً صحيحاً . وهنا

يجب ان اعترف بفضل اخي بطرس عليَّ لانهُ اشترى لي كتاب فلكسمن في التشريح الذي لم يكن ممكنًا لي ان اشتريهُ لان ثمنهُ اربعة وعشرين شلنًا فاعتبرتهُ ككنزٍ ثمين ودرستهُ باجتهاد لا يفوقهُ اجتهاد فكنت اقوم الى درسهِ الساعة الثالثة صباحًا وغالبًا كنت اعري اخي بطرس واوقفهُ امامي لكي ادرس عليهِ وارسمهُ . وما زلت على مثل ذلك الى ان تيقنت انني صرت كفوءًا للشروع في صورة المسبك ولكنني وجدت صعوبةً في الاظلال وخطوط النظر فاستحضرت كتابًا في هذا الموضوع واخذت ادرس فيهِ . وحينئذٍ طلبت من رئيس المسبك ان يسمح لي بالعمل في الادوات الكبيرة لانهُ يقتضي لها وقت طويل لاحمائها فيمكنني في مدة احمائها ان ارسم رسومًا كثيرة على صفيحة الحديد التي على واجهة الكور" اه

وما زال يدرس ويعمل حتى اتقن فن التصوير مع كل متعلقاتهِ وصور اباهُ صورة بديعة ثم اكمل صورة المسبك ولما رأى رئيس المسبك منهُ ذلك طلب اليهِ ان يصور لهُ عائلتهُ فصورها صورة بديعة فلم يكتفِ باعطائهِ الجعل الذي قاولهُ عليهِ وهو ثماني عشرة ليرة بل اعطاهُ فوقها ثلاثين شلنًا. ولما كان يصور هذه الصورة ترك العمل في المسبك وقصد ان يتركهُ دائمًا ويخصص وقتهُ للتصوير فصور صورًا عديدة بين منقول ومبتكر ولكن لم يصر عليهِ طلب كافٍ فعاد الى صناعة الحدادة . وكان يصرف اوقات العطلة في نقش صورة المسبك التي صورها . اما سبب اخذهِ في نقشها فهو انهُ اراها

ذات يوم لبائع صور فقال انهُ لو نقشها نقاش ماهر وطبعها لخرجت ذات رونق بديع . فقال في نفسهِ على مَ لا انقشها انا الاّ انهُ كان يجهل صناعة النقش على الاطلاق وهاك وصف المشقات التي عاناها في نقشها من قلمهِ

قال "رايت اعلانًا في بعض الجرائد من رجل من شفيلد يصنع صفائح فولاذ مما يستعمل لنقش الصور وقد عرضها على البيع باثمان ذكرها في الجريدة فاخترت واحدة ذات قدر مناسب وارسلت لهُ الثمن المطلوب وزدتهُ قليلاً من الدراهم طلبت منهُ ان يرسل لي بهِ بعض ادوات النقش اللازمة ولم يمكنني ان اذكر لهُ انواع الادوات لانني لم اكن اعرف ما هي فاتتني الصفيحة مع الادوات . ولما كنت اعمل في نقش هذه الصورة اعلنت جمعية المهندسين انها تعطي جائزة لاحسن صورة تشخيصية تقدم لها فاعتمدت ان اتطفل على ارباب هذه الصناعة واطلقت فرسي في ميدانهم ولحسن حظي نلت الجائزة. ثم انتقلت الى بلكبرن ودخلت معمل الخواجات ينس حدادًا للآلات وكنت اقضي اوقات العطلة في الرسم والتصوير ونقش صورة المسبك وصادفت مصاعب كثيرة في النقش لانهُ لم يكن عندي الادوات اللازمة فخطر ببالي ان اصنع هذه الادوات بيدي وبعد تعب كثير صنعت عدة ادوات توافق ذوقي . وكنت ايضًا محتاجًا الى زجاجة مكبرة لاني نقشت قسمًا كبيرًا من صورة المسبك بعوينات ابي قبل ان

وجدت زجاجة مكبرة تفي بغرضي . وحدثت حادثة بينما كنت انقش هذه الصورة كادت تجعلني ابطل نقشها وذلك انهُ كان من عادتي ان اضع هذه الصفيحة جانبًا عند ما ادعى لعمل ٍ آخر بعد ان ادهن الجزء المنقوش بالزيت حذرًا من الصداء وذات مرةٍ افتقدتها بعد ان تركتها زمانًا طويلاً فوجدت الزيت قد جمد عليها فحاولت اخراجهُ بواسطة الابرة فوجدت انهُ يقتضي لاخراجهِ وقت قدر وقت النقش فتكدرت من ذلك كدرًا مفرطًا ولكنهُ خطر ببالي ان اغليها في ماء الصودا ففعلت ومسحتها بفرشة ناعمة فزال الزيت عنها تمامًا. ولما زالت هذه الصعوبة رأَيت انهُ لم يبقَ عليَّ الاَّ الجريان في حفرها بالصبر والمواظبة ولم يكن من يساعدني ولا مَن يرشدني في شيء ولذلك اقول بكل جراءة انهُ اذا كان في هذه الصورة شيء من الفضل فجميعهُ لي وليس لي فيهِ شريك وما من شيء يدعوني لاشهارها الاَّ اظهار ما يمكن ان يُفعل بواسطة الاجتهاد والمواظبة وهذا هو فخري"

وليس من قصدنا ان نتكلم اكثر على هذه الصورة وما تستحقهُ من الاعتبار لان جرائد التصوير قد استوفت ذلك وانما نقول انهُ نقشها في اوقات العطلة مدة خمس سنوات ولم يرَ صورة منقوشة من غيرهِ قبل ان اتم نقشها واتى بها الى المطبعة

وما رأيناهُ من الاجتهاد والمواظبة بين المصورين نراهُ بين المغنين لان صناعة الغنا من اخوات التصوير. والغنا للاصوات والتصوير للالوان كالشعر للكلمات ومن المغنين الذين نذكرهم اولاً هندل الذي لم يكن يمل من المواظبة ولم ييأس من الشغل بل كان يزيد همة كلما زاد الدهر لهُ عنادًا وعمل وحدهُ اعمالاً يعجز عنها اثنا عشر رجلاً. وقد قال عن صناعته انها تقوم باخذ الموضوع والمواظبة عليه. وقال موزارت المغني الشهير العمل لذتي العظمى. وقال بيتوفن المغني لا شيء يصد المجتهد عن التقدم. قيل عرض مشلز كتاب غناه على بيتوفن فرآهُ بيتوفن كاتبًا في آخره انتهى بعون الله فكتب تحتها يا انسان عِن نفسك وهذا انموذج بيتوفن وقال يوحنا سبستيان باخ على قدر الاجتهاد النجاح اما ميربير فقد قال فيه بيل انهُ يمارس الموسيقى خمس عشرة ساعة كل يوم وهو ليس بذي موهبة خاصة ولكنهُ مفطور على الاجتهاد

لم يشتهر الانكليز كثيرًا بالموسيقى حتى الآن ولكنهُ قد قام من بينهم من يحق لهم ان يفتخروا بهم مثل ارن وهو ابن مجلد وكان ابوهُ عازمًا ان يعلمهُ الفقه ولكنهُ كان مغرمًا بصناعة الغنا حتى لم يمكن صرفهُ عنها فتعلم لعب الرباب خفية عن ابيه. وحدث مرةً ان اباهُ دخل بيتًا فرأى فيه نفرًا من المغنين وارن بينهم فلم يعد يعارضهُ بعد ذلك عن الغنا فخسر العالم فقيهًا ولكنهُ كسب مغنيًا حسن الذوق جيد الغناء

وليم جكسن مؤلف اغنية "نجاة اسرائيل" مَّن عالجوا المصاعب بمواظبتهم وهو ابن طحان من مشاهير مدينة في شمالي يوركشير . ويظهر ان محبة الغنا كانت وراثية في عائلته لان اباهُ كان مرتلاً في الكنيسة وجدهُ كان رأس المرتلين في الكنيسة ولما بلغ وليم هذا السنة الثامنة من عمره كان يدق على صافور ابيه وكان فيهِ بعض الخلل فاشترت له امه فلوتًا صغيرًا ذا مفتاح واحد ثم اهداهُ رجل فلوتًا ذا اربعة مفاتيح من فضة ولم يكن ناجحًا في المدرسة القريبة فارسلهُ ابواهُ الى مدرسة بعيدة فدخل هناك مع زمرة المغنين وتعلم مبادئ الغنا حسب الاسلوب الانكليزي القديم ونجح نجاحًا غريبًا ولما رجع الى البيت رجع وبهِ غرام شديد بالموسيقى ثم تعلّم اللعب على بيانو ابيهِ . ونحو ذلك الوقت اشترى واحد من جيرانهم ارغنًا صغيرًا مختلاً واجتهد لكي يصلحهُ فذهب تعبهُ سدًى فاعطاهُ لجكسن هذا ليصلحهُ لانهُ كان قد اصلح ارغن الكنيسة فاصلحهُ على اتم المراد . وحينئذٍ خطر ببال جكسن ان يصنع ارغنًا مثلهُ فشرع هو وابوهُ في هذا العمل مع انهما لم يكونا نجارين . وبعد معاناة مشقات كثيرة استتب لهما عمل ارغن يدق عشرة الحان . فنظر الجميع الى هذه الآلة بعين الاندهاش وصاروا يدعون جكسن لاصلاح الاراغن فكان يأتي بالغرائب

وفي ذلك الوقت تالف صف من المغنين فصحبهم جكسن فعينوهُ قائدًا لهم وكان يدق على كل آلاتهم ونظم لهم عدة الحان.

ثم تعين للعب على ارغن جديد كان قد اهدي للكنيسة وكان قد ترك صنعتهُ الاولى الطحانة واخذ في عمل الشمع الابيض وصار يخصص كل اوقات العطلة بممارسة الموسيقى وسنة ١٨٣٩ نشر اغنية مطلعها لتغنِ الاودية المخصبة فرحًا وفي السنة التالية نال الجائزة الاولى على اغنية نظمها اسمها اخوات المرج ثم نظم ترنيمة مطلعها يا ربِّ كن لي راحمًا ونظم غناء مزدوج الدور للمزمور المئة والثالث . وفي غضون ذلك كان آخذًا في نظم خروج بني اسرائيل من بابل ثم طبعهُ في اجزاء بين سنة ١٨٤٤ و١٨٤٥ وقد انتهى من طبعهِ يوم بلوغهِ السنة التاسعة والعشرين وشهرة هذا المصنّف تغني عن التفصيل . ثم صار استاذًا للموسيقى في برَدْ فرد وتشرف بالمثول لدى حضرة الملكة ڤكتوريا في قصر بكنهام وفي قصر البلور وغنى لها شيئًا من نظمهِ ونال منها الثناء الجميل. وقبل ان انتهت الطبعة التي ترجم منها هذا الكتاب وردت الاخبار بموت هذا الشهير ولهُ من العمر خمسون سنة اما ما كتب عنهُ في هذا الفصل فقد نقلهُ المؤلف عن لسانهِ حينما كان يصنع الشمع. وهنا ننهي الكلام عن المصورين والنقاشين والمغنين الذين ارتقوا الى اسى درجات المجد بواسطة اجتهادهم في العمل ومواظبتهم وتغلبوا على كل الموانع التي حالت في طريق تقدمهم

الفصل السابع

في العمل وذوي السيادة

قال مركيز منتروز . من لا يعرّض نفسهُ للربح والخسارة فهو جبان او صعلوك

وقيل في بشارة لوقا . انزل الاعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين

ذكرنا في ما مضى ان كثيرين من عامة البشر ارتقوا من ادنى الطبقات الى اعلاها بواسطة عملهم واجتهادهم والآن نقول ايضًا ان كثيرين من الخاصة واولي السيادة نحوا هذا النحو لاننا اذا بحثنا عن سبب تقدم اشراف الانكليز واحرازهم ما لهم من السيادة جيلًا بعد جيل خلافًا لاشراف بقية الممالك راينا ان سبب ذلك هو انهُ قد دخل في سلكهم من وقت الى وقت اناس من اشد اهالي البلاد اجتهادًا واكثرهم عملًا

كل بني البشر من دم واحد وان كان كثيرون لا يقدرون ان يمتدوا في انتسابهم الى اكثر من جد واحد فالجميع بدون استثناء يمكنهم ان ينتسبوا الى آدم وحوا . والسعادة والشرف لا يدومان لفئة من البشر فكم من عظيم انحط ووضيع سما والدهر في الناس قلّب ان دان يومًا لشخص ففي غدٍ يتغلب ابن الاكاسرة الجبابرة الاولى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا بل انمحت رسومهم واختفى اسمهم واختلط نسلهم بعامة شعبهم والعباد كالبلاد تشقى وتسعد والناس بين تصويب وتصعيد لا فاذا راجعنا كتاب برك في ادوار العيال رأينا ان بلايا الخاصة اكثر واشد من بلايا العامة وقد ذكر مؤلف هذا الكتاب انه لا يوجد الآن رجل واحد في مجلس الاشراف من الخمسة والعشرين بارونًا الذين انتخبوا لاجراء البراءة العظمى لان الحروب الاهلية والثورات الوطنية اهلكت كثيرًا من الاشراف وشتتت شمل اولادهم واكثر من بقي من نسلهم مختلط بالعامة وعائش بين ادنى المراتب . قال فُلر ان كثيرين من نسل بوهن ومرتيمر وبلنتجنت اختلطوا بالعامة حتى عفا اثرهم . وقال برك انه رأى اثنين من نسل ارل كنت الابن السادس للملك ادورد الاول بهذا الاسم احدهما قصاب والآخر جابي وان حفيد مرغريت بلنتجنت ابنة ديوك كلارنس انحط الى ان صار اسكافًا وان واحدًا من نسل ديوك كلوستر ابن الملك ادورد الثالث بهذا الاسم صار قندلفتًا في كنيسة مارجرجس في

هنوفر سكويــر. ويقال ان واحدًا من نسل سيمان ده منغورت راس اشراف انكلترا يصنع الآن السروج في سوق توولي ويوجد واحد من عائلة برسي لهُ حق بان يكون دبوك نرثمبرلند وهو الآن يصنع صناديق في دبلن ومن مدة وجيزة كان واحد يعمل في منجم فحم ويدعي بلقب ارل برث. قال هيو ملر انه لما كان يبني بعض البيوت بقرب ادنبرج كان معهُ ولد يحمل الطين يدعي بارلية كروفرد ولم يكن ينقصهُ شيءٌ لتثبيت دعواهُ سوى كتاب زيجة فُقد منهُ. قال وكنا نناديهِ يا جون ارل كروفرد هات نقير طين. وواحد من احفاد اوليفر كرمول صار سمانًا وكثيرون من الاشراف ماتوا على شجرة عائلتهم بعد ان التهموا كل اوراقها وغيرهم داهمتهم المصائب فحطتهم الى حضيض الفقر والهوان. هذه هي نهاية امجاد هذا العالم الغرور

ان اكثر اصحاب السيادة الحاليين في البلاد الانكليزية قد ارتقوا الى السيادة حديثًا واكثرهم ارتقوا اليها بواسطة جدهم في عملهم اما في قديم الزمان فكان الغنى مصدر السيادة لانهُ كان ثمرة الاجتهاد فاوّل من انشا ارلية كرنولس هو توماس كرنولس التاجر وارلية اسكس وليم كابل بائع الاقمشة وارلية كرفن وليم كرفن الخياط وارلية وروك الحديثة وليم كرفل الصواف ودوكية نرثمبرلند الحديثة هو سِمْسن الصيدلي والذي اسس عائلة درتموث جلّاد وعائلة ردنور حائك وعائلة دوسي خياط وعائلة

بمفرت تاجر . والذين اسسوا بيرية تنكرفل ودُرمر وكوفنتري كانوا بائعي اقمشة . واسلاف ارل رمني ولورد ددلي وورد كانوا صاغةً واللورد داكرس نفسهُ كان بنكيًا في عهد الملك تشارلس الأوّل بهذا الاسم كما كان اللورد اوفرستون في عهد الملكة فكتوريا . وادورد أُسبرن موسس دوكية ليدس كان صانعًا عند وليم هيوت الخياط وحدث ان ابنة معلمهِ سقطت في نهر التمس فخاطر بنفسهِ وانتشلها من الماء ثم تزوج بها . ومن جملة الارليات التي اسسها ارباب الصنائع ارلية فتز وليم ولي وبيتر وكوبر ودَرنلي وهل وكرنتون . واصل عائلة فولي ونُرمنبي رجلان شهيران وفي سيرتيهما فائدة جزيلة فنختار شيئًا منها

كان ابو رتشرد فولي موسس العائلة ساكنًا في جوار ستوربردج في عهد الملك تشارلس الأوّل بهذا الاسم وكان ذلك المكان حينئذٍ مركز المعامل الحديدية فتربى رتشرد في معمل منها وتعلم صناعة عمل المسامير . وكان دائمًا يلاحظ مقدار التعب الشديد الذي يقاسيهِ العاملون في تقطيع الصفائح وعملها مسامير ثم اخذت المسامير ترد من اسوج وكانت تباع باثمان بخسة فكسدت مسامير ستوربردج . وشاع ان الاسوجيين يصنعون المسامير بطريقة سهلة حتى يمكنهم ان يبيعوها بارخص الاثمان ويربحوا واذ تاكد رتشرد فولي ذلك عزم ان يكتشف سر هذه الصناعة فاختفى بغتةً من ستوربردج ولم يعرف احد الى اين

ذهب حتى ولا اهل بيتهِ لانهُ لم يخبر احدًا مخافةً ان يخيب مسعاه فمضى الى هل ورأى سفينة ذاهبة الى اسوج فنزل فيها وكان يعمل فيها بما يقوم باجرة سفرهِ كما يحدث كثيرًا ولم يكن معهُ شي لا سوى عود يغني عليهِ . ولما وصل الى اسوج قوَّم خطواتهِ نحو معادن دلنمورا التي بقرب ابسالا وهو يتسول في طريقهِ ويلعب على العود وكان جيد اللعب لطيف المحضر فانس بهِ الحدادون واكرموا مثواهُ فكان يلاحظ اعمالهم والآلات التي يستعملونها ويذخر ذلك في ذهنهِ ولما ظن انهُ قد فهم كل شيء اختفى من بينهم ولم يعلم احد منهم الى اين ذهب . اما هو فرجع الى انكلترا وكاشف مستر نيط ورجلًا آخر بما فعلهُ وطلب منهما ان يمداهُ بالمال لبناء معمل وعمل الآلات اللازمة ففعلا ولكن لما ترتب كل شيء رأى ان الآلات لا تصلح للعمل فاختفى ثانيةً وحينئذٍ زعم البعض انهُ هرب خجلًا ولن يرجع ابدًا ولكن لم يكن الامر كذلك بل انهُ رجع الى اسوج لكي يعرف ما هو النقص في الآلات التي عملها فلما دخل معامل الحديد قابلهُ العمال بكل ترحاب وكان يلعب على العود كجاري عادتهِ فنوَّموهُ بينهم داخل المعامل مخافة ان يهرب كما هرب اولًا ولم يرتابوا فيهِ قط بل ظنوهُ مغنيًا مسكينًا ولم يخطر ببالهم انهُ اتى ليسرق صناعتهم . فاخذ يمعن نظرهُ في الآلات فعرف سبب النقص في آلاتهِ وبقي زمانًا كافيًا لطبع الآلات في ذهنهِ بعد أن صور البعض منها حسب طاقتهِ ثم ترك المعامل على

حين غفلة ورجع الى بلاده وعاد الى مشروعه واصلح حالهُ ونجح فيهِ نجاحًا كاملاً وكسب غنًى وافرًا وهيأ عملاً لكثيرين من الصناع وكان يساعد في كل الاعمال الخيرية وانشأ مدرسة مجانية في ستوربردج على نفقتهِ . وابنهُ توماس صار رئيس وسترشير وانشأ مقامًا لتربية الاولاد في أُلدسونفورد . وقد أُدخلت هذه العائلة في سلك العيال الشريفة في خلافة الملك تشرلس الثاني بهذا الاسم

وليم فبس موسس عائلة ملكريف اونرمنبي كان ابوهُ فرداحيًّا ساكنًا في ولويك احدى مهاجر الانكليز في اميركا . ولد سنة ١٦٥١ وكان له عشرون اخًا وخمس اخوات ولم يكن لهم ميراث من ابيهم الاَّ صحة اجسادهم اما وليم هذا فكان يحب سفر البحر ويفضلهُ على عيشة الرعاية التي صرف صباهُ فيها وكان يشتهي دائمًا ان يصير بحريًا ويجول في العالم وحاول الدخول في مركب فلم يجد بابًا لذلك فمضى وصار صانعًا لباني مراكب وتعلم هذه الصناعة جيدًا واتقن القراءة والكتابة في اوقات الفراغ ثم انتقل الى بُسْتُن وتزوج بارملة غنية وانشأ مبنًى للمراكب وبنى مركبًا ونزل فيهِ واخذ يتجر بالاخشاب وبقي على ذلك عشر سنين

وحدث انهُ كان مارًّا ذات يوم في اسواق بستن فسمع بحريًّا يقول لآخر قد انكسر مركب اسبنيولي فيهِ مال كثير عند جزائر بهاما فلما سمع فبس ذلك جمع فرقة من البحرية ونزل في مركبهِ

وقصد السفينة المكسورة فاهتدى اليها وخلص كثيرًا من شحنها ويسيرًا من الدراهم وكل ما خلصه لم يزد على النفقة التي انفقها الا ان نجاحه هذا اضرم فيه رغبة شديدة في اقتحام المخاطر. ثم بلغه ان سفينة اخرى انكسرت بقرب بورت ده لا بلاتا منذ خمسين سنة وكانت مشحونة بالذهب والفضة فعزم ان يذهب في طلبها ويصطادها اصطياد السمك . ولكن هذا العمل يقتضي نفقة وافرة ولم يكن معه شيء منها فمضى الى انكلترا وكان خبر تخليصه شحن السفينة المكسورة في جزائر بهاما قد سبقه اليها فلما بلغها طلب مساعدة الدولة واقنع عقول رجال السياسة بصحة طلبه حتى ان الملك تشارلس الثاني بهذا الاسم سلمه قيادة سفينة فيها ثمانية عشر مدفعًا وخمسة وثمانون بحريًا فاقلع بهم الى شاطئ هسبنيولا ولكنه رأى امامه شاطئًا واسعًا وبحرًا لا نهاية له فاخذت رجاله تغوص الى اعماق البحر يومًا بعد يوم واسبوعًا بعد اسبوع لعلها تجد اثرًا يدل على بقايا تلك السفينة التي كان قد مضى عليها في قعر البحر خمسون سنة وكانت كل اخبارها منقولة واكثرها مبهم . ولكن فيبس كان رجلًا لا يقاس به رجل في شدة العزم وعلو الهمة وعظم الامل فدام على هذا الامر مدة حتى قلق البحرية واي قلق واخذوا يتناجون قائلين ان رئيسهم من اضل الناس سبيلًا ثم جاهروا بالعصيان وهجم قوم منهم على الغرفة وطلبوا منه ان يرجع بهم الا انه لم يخف من وعيدهم بل قبض على روسائهم وارسل البقية الى اعمالهم المتنوعة . وعند ذلك الوقت

اضطروا ان يشططوا على جزيرة لكي يصلحوا السفينة فشططوا وانزلوا قسمًا من المؤونة الى البر فاتفق البحرية على ان يقبضوا على السفينة ويقتلوا فبسًا ويصيروا قرصانًا ويغزوا المراكب الاسبانيولية في الابحر الجنوبية ولكنهم راوا انهُ من اللازم ان يكون معهم رئيس نجاري المركب فكاشفوهُ بمكيدتهم فمضى من ساعتهِ واخبر فبسًا بذلك فجمع فبس الذين يعلم انهم مطيعون لهُ وامر ان تحشى المدافع التي تجاه الجزيرة وان يرفع سلم السفينة فلما اقبل البحرية الذين صمموا على العصيان منعهم عن الدخول وقال لهم انهُ يطلق عليهم المدافع اذا اقتربوا من المؤونة التي كانت لم تزل على البر فتنحوا عنها فامر ان ترجَّع الى المركب تحت حماية المدافع فلما رأى العصاة ذلك خافوا ان يتركوا على تلك الجزيرة القفراء فيموتون جوعًا فطرحوا سلاحهم وتوسلوا اليهِ ان يردهم الى السفينة ويعفوا عن ذنبهم فعفا عنهم وردهم الى وظائفهم الَّا انهُ اخذ الاحتياطات اللازمة خوفًا من مكيدة اخرى . وحالما امكنهُ ترك المتذمرين منهم تركهم واستخدم غيرهم مكانهم . وحينئذٍ رأى نفسهُ مضطرًّا ان يرجع الى انكلترا لكي يصلح السفينة فرجع وعرض كيفية فحصهِ على وزير البحر وكانت الدولة وقتئذٍ في اضطراب فلم تسمح لهُ بمركب آخر ولكنهُ لم ينفك عن عزمهِ بل اخذ يحث الاغنياء والشرفاء على مساعدتهِ في هذا المشروع وتنظيم لجنة لذلك وما زال يقرع آذانهم مدة اربع سنوات حتى انتظمت لجنة لهذا العمل

رئيسها ديوك البارل ابن الجنرال مُنك وجمعت له الاموال اللازمة. فكان سفرهُ الثاني ناجحًا مثل سفر فولي لانهُ وصل بسرعة الى بورت ده لابلاتا في جوار الصخور التي يظن ان السفينة الاسبانيولية انكسرت عليها وبنى قاربًا قويًّا يسع ثمانية مجاذيف او عشرة وكان يعمل فيها بنفسهِ ويقال انهُ اخترع آلة تشبه ناقوس الغواصين ولم يكن هو اوّل من اخترعها ولكنهُ لم يكن عارفًا بها والارجح ان اختراعهُ اياها من باب توارد الخواطر. واستخدم ايضًا غواصين من الهنود لانهم اقدر من غيرهم على الغوص فبقي الغواصون يغوصون ويبحثون في قاع البحر عدة اسابيع على غير فائدة وذات يوم كان واحد من الملاحين يتطلع الى البحر وهو في القارب فنظر في العمق نوعًا من النبات بديع المنظر ناميًا في شيء كنقر الصخر فطلب الى غواص هندي ان يغوص ويأتي بهِ فغاص ولما طلع على وجه الماء قال انهُ رأى كثيرًا من مدافع السفن مطروحةً في القعر فلم يصدق احد قولهُ ولكنهم وجدوا لدى الفحص انهُ مصيب ثم وجد واحد من الغواصين سبيكة كبيرة من الفضة فلما راها فبس قال الحمد لله قد نجحت مساعينا. ثم انزل الغواصين والنواقيس حيث وجدت السبيكة وفي ايام قلائل استخرج من الفضة والذهب ما قيمتهُ ثلاث مئة الف ليرا انكليزية فعند ذلك اقلع راجعًا الى انكلترا ولما بلغها حسّن قوم للملك ان يقبض عليهِ وعلى المال الذي رجع بهِ زاعمين انهُ لما اخبرهُ بهذا

المشروع لم ينصلح كما ينبغي فلم يعقد الملك اليهم بل قال انا اعلم ان فبسًا امين صادق ولذلك هو والذين ساعدوه احق بهذا المال من كل واحد فاقتسم فبس واعضاء الجمعية المال فكان له منه عشرون الف ليرا ثم ان الملك لقبه بلقب نبيط اظهارًا لامانته ونشاطه وجعله هاي شريف نيو انكلند فخدم الدولة خدمًا كثيرة ثم صار واليًا على ولاية مستشوستس وبعد ذلك رجع الى انكلترا ومات فيها سنة ١٦٩٥ ولم يكن يخجل من ذكر اصله الوضيع بل كان يفتخر انه رُبِّي نجار مراكب فصار نبيطًا ثم واليًا وحين كانت تشكل عليه المهام السياسية كان يقول انه يفضل الرجوع الى قدومه على الولاية . وقد ترك اسمًا مخلدًا في الاستقامة والشجاعة ومحبة الوطن يحق لعائلة نرمنبي ان تفتخر به على مدى الاجيال

وليم بتي اصل بيت لنسدون ولد سنة ١٦٢٣ وكان مثل فبس في الاجتهاد والمنفعة للجمهور . كان ابوهُ خياطًا فقيرًا فلم يتعلم في صباهُ الا بعض المبادئ ثم انتقل الى مدرسة كاين المكلية في نرمندي وكان يبيع شيئًا من البضاعة فيربح ما يقوم بنفقته ثم رجع الى انكلترا وخدم ربان سفينة لكي يتعلم سلك البحر فاحتقرهُ الربان لقبح منظره فترك البحر وعزم على درس الطب فمضى الى باريس واخذ يمارس التشريح العملي وكان في غضون ذلك يرسم اشكالًا لهبس الذي كان آخذًا في تاليف مقالة على البصريات وكان ربحه من ذلك يسيرًا جدًّا فوصل الى الفاقة الشديدة حتى

انهُ اقتات ثلاثة اسابيع على الجوز فعاد الى البيع والشراء ولم يمضِ عليهِ الاَّ قليلاً حتى رجع ما امكنهُ من العود الى انكلترا فعاد اليها واخذ يولف في الصنائع والعلوم واستعمل الكيميا والطبيعيات واشتهر امرهُ فيها . ثم عرض على البعض من اصحابهِ العلماء انشاء جمعية علمية فوافقوهُ وانشأوا الجمعية الملكية وكانت جلساتها الاولى في بيتهِ. ثم عُين نائبًا لاستاذ التشريح في اكسفُرْد. وسنة ١٦٥٢ عين طبيبًا للجنود في ارلندا وطبَّب فيها ثلاثة من روساء الجيش وهم لمبرت وفليتوُد وهنري كرُمْوِل . وحين اخذت الدولة تهب الاراضي المضبوطة لبعض العساكر رأى ان تقويمها لم يكن صحيحًا فاخذ على نفسهِ امر تقويمها بالضبط ولما كثرت اعمالهُ واجورهُ اتهمهُ الحساد بالارتشاء فعزل ثم رد الى مناصبهِ بعد حين

وكان بتي من نوادر الزمان في الاجتهاد والاقدام والاختراع فقد اخترع اختراعات كثيرة منها مركب مزدوج القعر يسير ضد المد والنو والف كتبًا في الصباغة والفلسفة البحرية ونسج الصوف والحساب السياسي وفي مواضيع اخر مختلفة واسس معامل حديد وفتح معادن رصاص وانشأ تجارة في الاسماك والاخشاب ومع كل هذه الاشغال لم يتأخر عن القيام بواجباتهِ في الجمعية الملكية . وترك لاولادهِ ثروة وافرة واكبرهم صار بارون شلبرن. ووصيتهُ في غاية الغرابة وتظهر منها صفاتهُ على اجلى بيان قال فيها لما الفقراء والمساكين الذين يستعطون فلا اوصي لهم

شيئًا واما المصابون من الله فعلى الامة ان تعتني بهم واما الذين لا حرفة لهم ولا مقتنى فيجب ان يعتني بهم انسباؤهم . . . الى ان قال واني عالم اني قد ساعدت كل انسبائي الفقراء ودربت بعضهم على تحصيل معيشتهم بكدهم وقد اشتغلت في المصالح الجمهورية واخترعت اختراعات كثيرة قاصدًا بها خير البشر واني انذر الذين يرثون تركتي ان يفعلوا مثلي دائمًا. وجريًا على العادة الجارية اهب لاشد مساكين قريتي فاقة عشرين ليرا . ثم مات ودفن في كنيسة رُمزي حيثما ولد ولم يزل قبرهُ الى الآن في تلك الكنيسة جنوبي الخورس وعليهِ هذه الكتابة "ضريح السر وليم بتي"

ومن العيال التي ارتقت الى منصب الشرف في ايامنا بواسطة الاختراع والصناعة عائلة سترت وبلپر واول من احرز لها الشرف جدّ ياسترت سنة ١٧٥٨ لما اخترع آلة لاصطناع الجوارب المضلّعة وهذا الاختراع سبب غناهُ وغنى نسلهِ من بعدهِ. كان ابوهُ فلاحًا ولم يعلم اولادهُ الّا قليلًا ولكنهم افلحوا جميعًا وجديا هذا ثاني اولادهِ وكان يساعدهُ في الفلاحة فاظهر من حداثتهِ ميلًا الى عمل الآلات وعمل عدة تحسينات في ادوات الفلاحة المستعملة وقتئذٍ ثم مات عمهُ فاخذ حقلهُ وتزوج بس وُلوت ابنة رجل حرفتهُ بيع الجوارب فاخبرهُ اخوها ان كثيرين قد اجتهدوا على اختراع آلة لعمل الجوارب المضلعة ولم يقدروا فعزم جديا ان يمعن ذلك فاستحضر

آلة لاصطناع الجوارب ونظر فيها جيدًا حتى عرف كيفية العمل بها ثم اخذ يغير تركيب ابرها ويزيدها حتى صارت تصنع اجربة مضلعة فعرضها على الدولة ونال اجازة الحصر ثم انتقل الى دربي واخذ يعمل الجوارب المضلعة فيها ثم اشترك مع اركريت المار ذكرهُ وفتحا معامل في كرنفورد بفي دربيشير وبعد انتهاء مدة الشركة انشأ سترت واهلهُ معمل قطن في ملفورد قرب بلپر فلقبوا عائلة بلپر. وكان اولاد جديامثلة في الاجتهاد والحذاقة. قيل ان احدهم وليم اخترع آلة تشتغل من تلقاء نفسها ولكن بما ان معرفة اصطناع الآلات كانت قاصرة في تلك الايام اهمل امرها . وادورد ابن وليم اخترع الدولاب المعلق وصنع ثلاث مركبات دواليبها معلقة وقد اشتهرت هذه العائلة شهرة فائقة لانها استخدمت ثروتها لاعمال حميدة ولا سيما لانها لم تترك واسطة لتهذيب اخلاق العاملين في معاملها الاّ استخدمتها وكانت تشترك في كل عمل خيري بسخاء من ذلك الروض الواسع الذي وهبهُ يوسف سترت لاهل مدينتهِ وقال من خطبة وجيزة تلاها عليهم حينما وهبهم اياهُ "بما ان السعد قد خدمني مدة حياتي فلا يليق بي الآن اخصص قسمًا من ثروتي بالذين ربيت بينهم واعتضدت بهم"

ويمكننا ان نقول ان اكثر الذين احرزوا الشرف والسيادة برًا وبحرًا قديمًا وحديثًا احرزوها بكدهم واجتهادهم فمنهم من احرزها في حومة الوغى كنلسن وسنت فنسنت وليونس وولنتن

وهل وهردن وكليد وغيرهم ممن نالوا شرفهم بذراعهم ولكن اكثر اشراف الانكليز ارتقوا الى سدة الشرف بالعمل والكدح لا بقيادة الجيوش فان نحو سبعين شريفًا حصلوا الشرف بواسطة الفقه وكثيرون غيرهم من اشرافنا كانوا ابناء محامين وسمانين وقسوس وتجار وغيرهم من اهل الكدح . فاللورد لندهرست ابن مصور وسنت ليونرس ابن مزيّن وادورد صكدن كان خادمًا . واللورد تنتردن من اصل حقير جدًّا ولكنهُ لم يكن يخجل بهِ قيل انهُ اخذ مرةً ابنهُ تشارلس بيدهِ واراهُ دكانًا صغيرًا وقال لهُ انظر الى هذا الدكان فان ابي جدك كان يحلق فيهِ للناس وياخذ على الراس عشرين بارة وهذا هو فخري العظيم . وارتقاء كنسيون والنبرو الى منصب امانة ختم الملك ليس اقل غرابة من ارتقاء اللورد تنتردن وكذا ارتقاء اللورد كمبل الذي هو ابن مغنٍّ قيل انهُ لما ارتقى الى هذا المنصب كان يجول ماشيًا لفقرهِ ولكنهُ تدرَّج في مراقي الشرف والاعتبار كشأنِ كل عامل امين مجتهد

وبين كل الذين ارتقوا الى هذا المنصب ليس مَن ارتقاؤهُ اغرب من ارتقاء اللورد ألدُن فانهُ ابن بائع فحم من نيوكسل وكان في صغرهِ طائشًا مشهورًا بسرقة الجنائن فقصد ابوهُ ان يضعهُ صانعًا عند سمان ولكنهُ عدل عن ذلك وعزم ان يعلمهُ حرفتهُ وهي بيع الفحم . وحينئذٍ ارسل اليهِ ابنهُ وليم (وهو الذي دعي فيما بعد اللورد ستول) وكان تلميذًا في اكسفرد يقول ابعث جاكا

اليّ لعلي اد برا له عملاً مناسباً فمضى الى اكسفورد وتتلمذ فيها بواسطة اجتهادهِ واجتهاد اخيهِ ولكنهُ لم يلبث طويلاً حتى هوي فتاة فخطفها ومضى بها وقطع الحدود بين انكلترا وسكوتلاندا وتزوج بها ولا بيت لهُ ولا مال فرُفض من المدرسة ومن الكنيسة (لانهُ كان معيناً للقسوسية) فعزم على درس الفقه وكتب الى صاحب لهُ يقول قد تزوجت جهلاً ولكني عازم ان ابذل جهدي لاقوم باحتياجات المرأة التي احببتها . ثم اتى لندن واستأجر بيتاً في زقاق كرسيتور واقام فيهِ يدرس الفقه برغبة شديدة فكان يقوم الساعة الرابعة صباحاً (قبل الظهر بثماني ساعات) ولا يلقي الكتاب حتى يمضي اكثر الليل واذا داهمهُ النعاس ربط رأسهُ بمنديل مبلول بالماء حتى لا ينام . ولم يكن قادراً ان يدرس على مشترع فنسخ بيدهِ ثلاثة مجلدات كبار من كتب الدعاوي ولما صار امين الختم قال لكاتم اسرارهِ وهما ماران في ذلك الزقاق هنا كان مقري الاول وكثيراً ما يخطر ببالي كم كنت امر بهذه السوق وبيدي ثلاثة غروش لابتاع بها عشاء ثم مضى الى المحكمة لكي يستعمل المحاماة فانسدت في وجههِ كل الابواب ولم يربح في السنة الاولى اكثر من تسعة اشلان وبقي اربع سنوات ملازماً محاكم لندن وغيرها وهو على مثل ذلك فعزم ان يترك محكمة لندن ويقيم في بعض المدن الصغيرة محامياً ولكنهُ نجا من ذلك كما نجا من ان يكون سمّاناً وفحّاماً وقسيساً لانهُ صادف فرصة لاظهار كل معارفهِ

الفقهية وذلك انهُ كان يحامي في دعوى فحُكم لخصمهِ فاستأنف الدعوى الى مجلس الاشراف فنقض اللورد ثرلو الحكم الأوَّل وحكم لهُ وهذه اوَّل درجة في سلم ارتقائهِ . كان من عادة اللورد منسفيلد ان يقول لا اعرف انهُ كانت فترة بين المدة التي كنت فيها بلا عمل والمدة التي صارت فيها اجرتي ثلاثة آلاف ليرا سنويًّا وهذا يصح ان يقال في هذا الرجل لان نجاحهُ كان سريعًا جدًّا لانهُ عين مشيرًا للملك وصار رئيس الدائرة الشمالية وعضوًا في البرلمنت قبل ان ناهز الثانية والثلاثين من عمرهِ وما زال يرتقي من درجة الى اخرى بجدهِ واجتهادهِ الى ان صار امين ختم الملك وهو اعلى منصب يستطيع الملك ان يرقي اليهِ وبقي في هذا المنصب نحو خمس وعشرين سنة

وهنري بكرستث كان ابن جراح ودرس الطب في ادنبرج واظهر في دروسهِ اجتهادًا عظيمًا وبعد ان اكمل دروسهُ في المدرسة رجع الى بيت ابيهِ وكان يساعدهُ في الجراحة الاَّ انهُ كان يكره هذه الصناعة فالح على ابيهِ حتى ارسلهُ الى كمبردج وكان مرادهُ ان ياخذ ديلوما تلك المدرسة لكي يسوغ لهُ التطبيب في لندن الاَّ ان اجتهادهُ العظيم في الدرس القاهُ في مرض . فعرض عليهِ ان يكون طبيبًا للورد اكسفرد وهو مسافر فارتضى املاً بارجاع صحتهِ وسافر مع ذاك اللورد فدرس وهو في السفر اللغة الايطالية وغرم بآدابها ثم رجع الى كمبردج واخذ الديلوما والرتبة . وكان

عازمًا ان يدخل العسكرية فلم يُبح له ذلك فدخل المدرسة الفقهية واخذ في درس الشريعة وكل الذين رأوهُ تنبأوا بنجاحهِ لما راوا فيهِ من الاجتهاد . ولما صار له ثمانية وعشرون من العمر اذن له بالدخول الى المحكمة ولم يكن معهُ مال فاضطر ان يعيش من احسان اصحابهِ ومضت عليهِ عدة سنين قبل ان مسك دعوى فضاق بهِ الامر واشتدت عليهِ الفاقة فكتب الى اصحابهِ الذين يعاونونهُ انهُ قد يئس من النجاح وعزم ان يرجع الى كمبردج فارسلوا لهُ شيئًا من المال ونشطوهُ على الصبر ريثما يفتح الله بابًا للفرج فلم يلبث طويلاً حتى اقبلت عليهِ الدعاوي ونجاحهُ في الدعاوي الصغيرة اتاهُ بدعاوي كبيرة فصار يربح ما يكفيهِ ثم زاد ربحهُ وكان مقتصدًا فوفى كل ما استقرضهُ من اصحابهِ مع الربا وما زالت تنقشع الغيوم عن سعدهِ حتى اضاء كالبدر في كبد السماء وصار عضوًا في مجلس الاشراف باسم البارون لندال وقد نال ما ناله من الشرف والفخر بصبرهِ وكدهِ ومواظبتهِ

فهذه امثلة قليلة من الرجال العظام الذين مهدوا لانفسهم طريقًا للبلوغ الى اعلى المراتب باستعمالهم قواهم الطبيعية وتقويتها بالصبر والكد والمواظبة

الفصل الثامن

في النشاط والشجاعة

قال جاكس كر . لامستحيل على القلب الشجاع
وقال المثل الجرماني . الارض للنشيطين
وقيل عن الملك حزقيا ان كل عمل ابتدأ بهِ انما عملهُ بكل قلبهِ وافلح
٢ اي ٣١:٢١

يُروَى ان احد جاهلية الجرمانيين قال اني لاأركن الى الاصنام ولااخاف من الشياطين بل انما ثقتي بقوة جسدي وعقلي وقيل ايضًا ان اهالي اسوج ونروج كان لهم الهٌ حامل مطرقة وهذا دليل على اجتهادهم لان حمل المطرقة من علامات الهمة والنشاط . وقد يستدل على اخلاق الانسان واحوالهِ من اعمال طفيفة يعملها . قيل ان رجلًا فرنساويًا قال لصاحب لهُ وهو عازم على الانتقال الى ما بين قوم والسكنى في بلادهم "اياك وهولاء الناس لاني رايت ان ضربة مطرقة اولادهم الذين يدخلون مدارس البيطرة ضعيفة دلالة على انهم ليسوا من ذوي النشاط

فاذا سكنت بلادهم خسرتْ ولم تربح" . ولقد اصاب في ما قال لانهُ كما يكون الاحاد يكون الشعب وكما يكون الشعب تكون البلاد

والنشاط والهمة اساس لكل نجاح (وما احسن ما قالهُ بعض بلغاء العرب قال الارتكاض باب الافلاح والنشاط جلبابهُ والفطنة مصباحهُ والهمة سلاحهُ ويجب على طالبهِ ان يقرع باب رعيهِ بسعيهِ وان يجوب كل فج ويلج كل لج ويتجع كل روض ويلقي دلوهُ في كل حوض وان لا يسأم الطلب ولا يمل الدأب لان من طلب جلَب ومن جال نال والكسل عنوان النحوس ولبوس ذوي البوس ومفتاح المتربة ولقاح المتعبة وشيمة العجزة الجهلة وشنشنة الوكلة النكلة وما اشتار العسل من اختار الكسل ولا ملأ الراحة من استوطأ الراحة . والخور صنو الكسل وسبب الفشل ومبطأة للعمل ومخيبة للامل اه) والنشاط يوصل الانسان الى اعلى مراقي النجاح مهما حال دونهُ من الموانع ومن اتصف بهِ سبق المتكلين على مواهبهم غير معرض نفسهُ للفشل مثلهم . والموهبة من النشاط كالاهلية والارادة فاذا كان الانسان اهلاً لان يعمل عملاً لا يعملهُ ما لم يكن مريدًا فكما ان الارادة هي التي تعمل كذلك النشاط هو العامل فينا فهو الانسان الادبي . والامل الحقيقي مبني على النشاط. قال المثل ما اضيق العيش لولا فسحة الاملِ وقال ابن سيراخ ويل لخائر العزم . فلا بركة تضاهي ثبات العزم وحسن

الرجاء فائته وان خابت اكثر مساعي الانسان يبقى بالهِ مطمئنًا بانهُ قد فعل ما في طاقتهِ. ومَنْ يضع ملاك الامل نصب عينيهِ يحتمل المتاعب بالصبر الجميل ويلقى المحن متهللاً مسرورًا واتعب الناس واكثرهم شغلاً من قصرت مقدرتهُ واتسعت مطامعهُ

واتعب خلق الله من زاد همهُ وقصر عما تشتهي النفس وجدهُ

ومن كان غذاؤهُ الاماني فقط عاش خائر القوى . واكثر الناس عرضة لهذا الداء العضال هم الشبان فيجب ان يُدرَّبوا من صغرهم على اخراج كل شيء من حيز الامل الى حيز العمل

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن الق دلوك في الدلاء

تجئْ بملئها طورًا فطورًا تجئْ بحمأةٍ وقليل ماء

قال اري شفر لا شيء يثمر الاَّ بتعب العقل والجسد. والحياة جهاد مستمر كما ارى بنفسي وما فخري الاَّ بنشاطي فان عزيز النفس شريف المطالب يستطيع ان يفعل كل ما يشاء . وقال هيو ملر "ان المدرسة الوحيدة التي تعلمت فيها العلم الحقيقي هي مدرسة العالم التي يُعلَّم فيها التعب والعناء معلمان صارمان ولكنهما شريفان" . ومن يتردد في عملهِ ولا يقتحم المصاعب بقدم راسخة وعزيمة ماضية تحبط مساعيهِ ويعود بالفشل واما اذا نهض لعملهِ بهمة وحزم انقشعت غيوم مصاعبهِ كما ينقشع الضباب بحر الشمس

والانكباب عادة كبقية العوائد والمواظبة تجعلهُ ملكةً وكل من انكب على عملهِ بجد افلح فيهِ ولو كان معتدل القوى . قيل ان

قول بكستون التكل على الوسائط الاعتيادية والانكباب الشديد جاريًا على قول الحكيم كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك . ونسب نجاحه الى انكبابه بكليته على امرٍ واحد في وقت واحد . ولا يبلغ الانسان امرًا ذا طائل الّا بالعمل المقرون بالشجاعة . والانسان ينمو باقتحام المصاعب وهذا هو الجهاد ونتائج هذا الجهاد تدهش كل من ينظر فيها حتى ان توقع المستحيل يصير المستحيل ممكنًا والامال طلائع الاعمال . واما ضعيف الهمة والمتردد في اموره فيرى الممكن محالًا . حكي ان جنديًا فرنساويًا كان يتمشى في غرفته ويقول لابد من ان اصير مرشالًا وما به من شدة الامل هوَّن عليه كل امر عسير فنال مبتغاه وصار مرشالًا عظيمًا . وقيل ان مستر والكر مرض مرةً فعزم ان يشفى فشفي من تلقاء عزمه . وهذا السبيل اسهل من اخذ الادوية الّا ان نجاحهُ دائمًا غير موكد . وقيل ان المولى مولك القائد المراكشي كان مصابًا بمرض عضال حين انتشبت الحرب بين جيوشه والجيوش البرتوغالية فلما سمع صرخات الحرب نهض من عن سريره واقتاد جيشهُ وبعد ان فاز بالغلبة على العدو وقع لساعته ميتًا

فالارادة هي التي تُقدِر الانسان على عمل ما يريد عملهُ قال بعض الافاضل الانسان كما يريد فمن اراد ان يكون مطيعًا صبورًا حليمًا صار كذلك . حكى بعضهم انه رأى نجارًا يصلح كرسيًّا لاحد القضاة وكان يعتني باصلاحهِ اكثر من المعتاد فقال له يا هذا

مالك تعتني باصلاح هذا الكرسي اعتناء شديدًا قال لاني اريد
ان اجلس عليهِ يومًا ما وهكذا كان لان ذلك النجار درس الفقه
وجلس على ذلك الكرسي. ولا داعي لما اقامهُ المنطيقيون من الادلة
على ان الانسان حر الارادة لان كل انسان يحس بانهُ متروك
لحريتهِ ولهُ ان يختار الخير او الشر . وليس الانسان ورقةً ترمى في
النهر لتدل على سرعة مجراهُ بل هو سبَّاح نشيط يقاوم المجاري
ويصارع الامواج ويسير الى حيث اراد بقوة ذراعيهِ . نعم اننا
احرار ولنا حرية ادبية لنعمل ما اردنا ولسنا مرتبطين بطلسم او
سحر يربطنا بعمل من الاعمال ومن لا يشعر هذا الشعور لا يرجى منهُ
كبير فائدة . ومهام الحياة وعلاقات البشر العائلية والمدنية والعلمية
تصرح بلسان واحد ان الانسان حر الارادة ولولا ذلك ما كان
الانسان مطالبًا ولا كانت فائدة من التعليم ولا من النصح ولا من
الوعظ ولا من الحث ولولا حرية الارادة ما وجدت الشرائع لان
وجودها يستلزم كون الانسان حرًّا ان يطيعها او يعصاها حسب
موافقتها او مضادتها ونحن نحس في كل دقيقة من حياتنا اننا
ذوو ارادة حرة سواءٌ استعملناها في المليح او في القبيح . وليس
الانسان عبدًا لعوائدهِ وتجاربهِ بل سيدًا عليها ويرى في نفسهِ ما
يحثهُ على مقاومتها واو اطاعها فلا يصعب عليهِ قهرها اذا اراد .
قال لامنيس لاحد الشبان قد بلغتَ السن الذي يجب ان تنهج
فيهِ منهجًا لا تحيد عنهُ والاَّ فستَمُتْ داخل القبر الذي تحتفرهُ

لنفسك غير قادر ان تزحزح غطاءهُ عنهُ والارادة اسهل القوى انقيادًا واسرعها تملكًا لذلك تعلَّم من الآن ان تكون قوي الارادة شديد العزم لئلاَّ تبقى محمولاً بكل ريح

كريشة بمهبّ الريح ساقطةٍ لا تستقر على حالٍ من القلقِ

وكان بكستون يرى ان الشاب يمكنهُ ان يكون كما يريد بشرط ان يكون من اولي الحزم وكتب مرةً الى احد بنيهِ يقول لهُ "قد حان لك ان تميل يمنة او يسرة فعليك ان تظهر حزمك واقدامك والاَّ فستكون خامل الذكر ضعيف الهمة وتتملك منك صفات الكسل والتواني واذا سقطت في مثل ذلك لا سمح الله صعب عليك النهوض. واني لمتيقنٌ ان كل شاب يقدر ان يكون كما يشاءُ. هكذا كان امري. وكل سعادتي ونجاحي نتج من المنهج الذي نهجتهُ لنفسي وانا في سنك فاذا عزمتَ الآن ان تكون مجدًا ومجتهدًا فستفرح كل حياتك بانك عزمت هذا العزم". والارادة هي الدأب والمزاولة والمواظبة والثبات فلذلك لا تحتاج الاَّ التدريب فان دُرِبت على الشر كانت شيطانًا مريدًا وكان العقل لها عبدًا ذليلاً وان دربت على الخير كانت ملكًا عادلاً وكان العقل لها وزيرًا فاضلاً وعكفا كلاهما على خير الانسان

والارادة لغةً نزوعِ النفس وميلها الى الفعل بحيث يحملها ذلك الميل عليهِ فمن اراد امرًا فنفس ارادتهِ تحملهُ على عملهِ بل تسهل لهُ العمل وتهون عليهِ المصاعب حتى ان من اطاق التماس شيء غلابًا

واغتصاباً لم يلتمسهُ سواهُ . والعزم لغةً عقد القلب على الشيء فمن عقد قلبهُ على امر واراد عملهُ قدر عليهِ . ألا ترى ان رشليو ونبوليون الاوّل طلبا ان تلغى كلمة مستحيل من كتاب اللغة اما نبوليون فكان اكره شيء عنده هذه الكلمات "لا اقدر . لا اعرف . مستحيل" فكان جوابهُ للاولى حاول وللثانية تعلم وللثالثة امتحن . وكاتبو سيرة حياتهِ يقولون انهُ مثال النشاط في استعمال القوى التي لا يخلو قلب من جراثيمها . وكان من امثالهِ ان من الحزم الحكمة . ولا يمكن ان يظهر مقدار ما تفعلهُ الارادة اكثر مما ظهر في حياة هذا الانسان العجيب لانهُ صب كل قوى عقلهِ وجسدهِ على عملهِ فاخضع امماً وقهر ممالك . وقيل لهُ يوماً ان جبال الالب الشاقة تمنعك عن التقدم فقال يجب ان تُلغى ثم اختط طريقاً لم يكن يُجتاز من قبل . وهو الذي قال ان كلمة مستحيل لا توجد الاَّ في قاموس المجانين . وكانت اشغالهُ تفوق الوصف فكان يشغل اربع كتبة وينهكهم من التعب وقد القى النخوة في قلوب كثيرين وقال مرة انني صنعت قوادي من التراب . لكن يغمنا ان نقول حبهُ لنفسهِ اضرَّهُ واضرَّ قومهُ معهُ بعد ان تركهم فوضى ويظهر من حياتهِ ان القوة غير المؤسسة على المبادئ الحسنة تضر باصحابها وان الفطنة بدون الصلاح مبدأ شيطاني

واما ولنتون الشهير فلم يكن اقل من نبوليون عزماً واقداماً ولكنهُ كان منكراً نفسهُ عفيفاً محباً لوطنهِ . كان غرض نبوليون

الاقصى المجد وغرض ولتون القيام بواجباتهِ حتى قيل ان كلمة مجد لم ترد في كل كتاباتهِ واما كلمة واجبات فكثيرًا ما وردت ولكن ليس بالعجب والافتخار . واقوى الصعوبات لم توهن عزم هذا البطل بل كانت قوتهُ تعظم بتعاظم المصاعب المحيطة بهِ. وما اظهرهُ من الصبر والثبات والحزم في حروب اسبانيا يفوق وصف الواصفين لانهُ اقام هناك قائدًا وحاكمًا وكان غاية في حدة الطبع الاَّ ان عقلهُ حكم على طبعهِ فظهر لمن حولهُ غايةً في الصبر والجلد ولم يشب اخلاقهُ الحميدة شيء من الطمع او الحسد او الهوى فاجتمعت فيهِ خبرة نبوليون وجسارة كليف وحكمة كرمول وعفة وشنطون وخلَّد اسمهُ في رياض الحكمة والاقدام والصبر

واوَّل ظواهر النشاط السرعة . قال الشاعر

وربما فات قومًا جل امرهمِ   من التأني وكان الحزم لو عجلوا

قيل سأَلت اللجنة الافريقية لديرد السائح متى تسافر الى افريقية (بعد ان عينتهُ للذهاب اليها) فاجاب غدًا . ولما سُئل جون جرفيس (وهو الذي لقب بعدئذٍ ارل سنت فِنسنت) متى تكون مستعدًّا للنزل في سفينتك اجاب الآن . ولما عُيّن السر كولن كمبل قائدًا للجيش الهندي سُئل متى تكون مستعدًّا للسفر فاجاب غدًا . وبالسرعة وانتهاز الفرص يُكتسَب الظفر . قال نبوليون انني ظفرت في واقعة اركولا بخمسة وعشرين فارسًا وذلك انني انتهزت فرصة تعب العدو واقحمتهُ بهذا العدد

القليل فتغلبت عليهِ والجيوش المتحاربة شبه رجلين يتصارعان فان اخطأ احدهما خطاء صغيرًا واستغنم قرينهُ فرصة خطائهِ غلبهُ وقال مرةً اخرى انهُ كسر النمساويين لانهم لم يعتبروا وقتهم (١)

ولقد كانت بلاد الهند في القرن الماضي ميدانًا للنشاط الانكليزي فان من كليف الى هفلوك وكليد حكامًا وقوادًا طارت شهرتهم في الافاق كولسلي ومتكلف وأُترَم وادوردس ولورنس وورن هستنس وورن هستنس هذا من عائلة قديمة شهيرة دهمها الفقر لتبذيرها وانتصارها لآل ستورت فانحط شانها وساءت حالها فالجأها الفقر الى بيع دالسفرد التي استولت عليها مئات من السنين ولما ولد ورن كانت العائلة قد انحطت من درجة الاعيان الى السوقة فتعلم في مدرسة القرية مع اولادِ الفلاحين وكان يلعب في الاراضي التي كانت تخص لاسلافهِ الّا انهُ لم يبرح من بالهِ ما

---

(١) العرب تقول ان الحرب خدعة اي تنقضي بخدعة ويقال ان معنى كون الحرب خدعة ان الظفر بها يكون بحسن التدبير والحزم لا بمجرد الشجاعة والاقدام كما قال ابو الطيب المتنبي

ولربما طعن الفتى اقرانهُ بالراي قبل تطاعن الاقران

ومن هذا القبيل ما حكي عن عنترة العبسي انهُ قيل لهُ انت اشجع العرب واشدهم بطشًا فقال لا فقيل لهُ كيف شاع لك هذا الاسم بين الناس قال اني اقدم اذا رايت الاقدام عزمًا واحجم اذا رايت الاحجام حزمًا ولا ادخل مدخلًا الّا اذا رايت لي منهُ مخرجًا واعتمد الضعيف الساقط فاضربهُ ضربة يطير منها قلب الشجاع فانثني عليهِ فاخذهُ والحرب خدعة اه

كان لهم من المجد والشرف قبل انهُ وهو في السابعة اتكأ على ضفة غدير جارٍ في املاك اسلافهِ وجعل يتأمل في ما كانوا عليهِ فختم على نفسهِ ان يسترجع املاكهم واسمهم . فكر صبي غر ولكنهُ عاش حتى اخرجهُ من حيز الفكر الى حيز الفعل لانهُ ربي معهُ واصبح جزءًا من حياتهِ . وبعزمهِ واقدامهِ صار من اعظم رجال عصرهِ فاسترد املاك اجدادهِ وبنى بيت عائلتهِ. قال فيهِ ماكوي انهُ فيما كان يتسلط على خمسين مليونًا من اهالي اسيا ويقوم بادارة امورهم وحروبهم كانت امالهُ موجهة لرد السفرد ولما انتهت اتعاب حياتهِ اعتزل اليها ليموت فيها

والسر تشارلس نپير قائد آخر من قواد جنود الهند يضرب بهِ المثل في الشجاعة والحزم . قال مرةً عن الشدائد الكثيرة التي كان محاطًا بها في احدى المواقع انها لا تزيدني الاَّ ثباتًا ورسوخًا. وواقعة مياني التي انتصر فيها من اعجب المواقع التي حدثت على وجه الارض لانهُ تغلب على خمسة وثلاثين الف بلوخي شاكي السلاح بالفي رجل اربع مئة منهم فقط اوربيون وذلك انهُ كان يثق بنفسهِ وبقوة جنودهِ فاقتحم بهم العدو بقلب اشد من الحديد وانتشب بينهم القتال ودام ثلاث ساعات متواصلة فقهر العدو واضطرهُ الى الهزيمة بعد ان اهلك منهُ خلقًا كثيرًا فلم يفز الاَّ بثباتهِ. وكثيرًا ما يكون بين الغالب والمغلوب فرق يسير وقد لا يوجد فرق سوى ان الغالب يثبت بضع دقائق اكثر من المغلوب

وثبات خمس دقائق كافٍ للظفر كما ان السابق من خيل الرهان لا يفوت المصلي الاَّ بمسافة يسيرة جدًّا . قال شاب اسبرطي لابيهِ وقد قلده سيفًا يا ابتِ هذا السيف قصير فقال تقدم بهِ خطوة فيصير طويلاً

وما من وسيلة استخدمها نبير لالقاء الحماسة في قلب جنودهِ الاَّ شجاعتهُ الشخصية فكان يتعب كما يتعب كل جندي ويقول ان القيادة لا تقوم الاَّ بمقاسمة الجنود اتعابها ولا ينجح القائد ما لم يصب كل قوة عقلهِ وجسدهِ على عملهِ ويحتمل كل المتاعب ويعرض نفسهُ لكل الاخطار . قال بعض الشبان في واقعة كتشي وكان تحت قيادتهِ كيف يمكنني ان اتكاسل وانا ارى هذا الشيخ (يريد بهِ نبير) على ظهر جوادهِ دائمًا فلو امرني ان ازج نفسي في فم مدفع محشو لفعلت . وبلغ نبير هذا الكلام فقال ان هذا جزاء كافٍ لكل اتعابي . ومما يظهر شجاعة هذا البطل واخلاص نيتهِ الحادثة التي وقعت لهُ مع المشعوذ الهندي وهي ان مشعوذًا هنديًّا شهيرًا لعب امامهُ وامام عائلتهِ وحواشيهِ العابًا كثيرة في جملتها انهُ وضع ليمونة صغيرة كالجوزة في كف رفيقهِ وضربها بالسيف فقطعها شطرين فارتاب الجنرال نبير في صحة ذلك ونسبهُ الى مواطاة بين السياف ورفيقهِ ودفعًا للريب طلب ان يمسك الليمونة بيدهِ ومد يمينهُ فنظر اليها السياف وقال لا يمكنني ان افعل ذلك فقال نبير هكذا ظننت فقال السياف مدَّ شمالك فمدها فقال لهُ اذا

كنت قادرًا ان تثبتها فانا اضرب الليمونة فيها فقال ولمَ لا تضربها في اليمين فاجاب لان كفك اليمنى مقعرة فاخاف ان اقطع ابهامك واما الشمال فليست كذلك فيكون الخطر اقل . قال نپير وحينئذٍ ارتعدت فرائصي لانني تاكدت انهُ يضرب الليمونة حقيقة ولو لم اكن قد نسبتهُ الى الخداع امام حشمي لعدلت عن المخاطرة بيدي فمددت شمالي ووضعت الليمونة في كفها فاستل سيفهُ وضربها فقطعها شطرين فشعرت كان خيطًا باردًا مرّ على يدي الى ان قال انظروا الى مهارة فرسان الهند الذين غلبهم رجالنا في واقعة مياني

والحوادث الاخيرة التي حدثت في الهند اظهرت جليًّا اكثر من كل الحوادث التاريخية همة الامة الانكليزية وتعويلها على نفسها ففي شهر ايار من شهور سنة ١٨٥٧ ثارت الفتنة في كل بلاد الهند وكانت الجيوش الانكليزية حينئذٍ في معظم قلتها وكانت متشتتة في كل انحاء البلاد. والجنود البنكالية عصت روساءها وانطلقت الى دلهي . وامتدت الثورة في كل الولايات والقي النفير في كل البلاد وقام جميع الاهالي على الانكليز حتى خيل لاعين الرائي ان الدولة الانكليزية قد فقدت بلاد الهند وفقدت رجالها الذين فيها. وقبلما امتدت الثورة استشار هلكار احد امراء الهند المنجمين فقالوا لهُ اذا لم يبقَ من الاوربيين الّا رجل واحد فلا بد من ان يتغلب علينا اخيرًا. وكان في لكنو قليلون من الانكليز فتحصنوا هم

ونساؤهم وبقوا عدة اشهر ولا اتصال بينهم وبين الانكليز الذين في باقي الجهات وكانوا يجهلون اذا كانت البلاد باقية في حوزة دولتهم او تحررت الّا انهُ لم يخر عزمهم ولم تضعف ثقتهم برجال بلادهم بل كانوا متاكدين انهُ ما دام رجل انكليزي في الهند فهو يفتكر فيهم ولم يخطر على بالهم الّا الثبات ولو الى آخر نسمة من حياتهم. ومَن يجهل اعمال هقلوك وانكلز ونَيل وأترام الذين قال فيهم منتالنبر انهم شرفوا الجنس البشري. وقد اظهر الجميع حينئذٍ شجاعة تفوق الوصف من قواد العساكر الى النساء والاولاد ولم يكن هولاء الناس متميزين من بني البشر او ممتازين عنهم بل كانوا كغيرهم ممن يقع نظرنا عليهم كل يوم في الشوارع والمعامل والحقول والمزارع ولكن لما انتابتهم المصائب اظهر كلٌّ منهم من البسالة والاقدام ما يفوق التصديق قال منتالنبر ما من احد منهم خاف او ارتعب بل الجميع من القواد العظام حتى الاولاد الصغار دافعوا عن نفوسهم الى آخر نسمة من حياتهم. ففي مثل هذه الاحوال تظهر فائدة التربية الانكليزية التي تدعو كل انكليزي لكي يستخدم قوتهُ وحريتهُ في كل حال من احوال الحياة

ويقال ان دلهي اخذت والهند انقذت بواسطة مناقب السر جون لورنس لان اسمهُ في الولايات الشمالية الغربية كان رمزًا للقوة ومناقبهُ تساوي قوة جيش جرار وما قيل فيهِ يقال في اخيهِ السر هنري لورنس وكان الجميع يحبون هذين الاخوين

محبة شديدة ويثقون بهما ثقة قوية لما رأوهُ فيهما من الشفقة والصلاح. قال القائد ادوردس "انهما طبعا في عقول الشبان من الاخلاق والمحامد ما فعل بهم فعل الديانة فكانهما انشأا ديانة جديدة" وكان مع السرجون لورنس منتكمري ونكلصن وكُتن وادوردس وكلهم من النبلاء الحاذقين الحازمين ونكلصن كان من اشجع الناس واكملهم خلقًا وخلقًا حتى لقبهُ الاهالي حكيمًا ودعاهُ اللورد دلهوسي برج قوة وكانت كل اعمالهِ من الطراز الاول لانهُ ما عمل شيئًا الّا انصب عليهِ بكليتهِ ولذلك قام قوم من الدراويش وعبدوهُ وقد قاصَّ كثيرًا منهم بسبب عبادتهم اياهُ الّا انهُ لم يقدر ان يردعهم عنها

اما حصار دلهي والضيقة التي صارت على الجنود الانكليزية الذين لم يكونوا اكثر من ثلاثة آلاف وسبع مئة وعدد جنود العدو المحصور اكثر من ٧٥٠٠٠ جندي متعلم فمن الامور النادرة المثال لان هذه الحفنة من الانكليز غلبت اخيرًا كل قوات الهند وفتحت دلهي ورفعت فوقها الراية الانكليزية بعد ان هاجمتها وارتدت عنها ثلاثين مرةً. وقد اظهر كل جندي من الجنود الانكليزية بسالة يعجز القلم عن وصفها. ولا ننكر ان هذا الفصل من تاريخ الامة الانكليزية قد كلفها كلفة باهظة ولكن اذا اعتبرنا الفوائد الجزيلة التي سيحصدها من يطّلع عليهِ من اولادها رأينا ان المثمن ليس دون الثمن

وقد ذهب الى الهند اناس من امم مختلفة واظهروا همة واقداماً في امور اكثر نفعاً للجنس البشري من الحرب . واذا ذكرنا ابطال السيف وجب ان لا ننسى ابطال الانجيل فاننا اذا تتبعنا حياة هولاء الافاضل من زفير حتى مرتن ووليمس رأينا عدداً من الدعاة الذين ضحوا حياتهم وصوالحهم على مذبح محبة الجنس البشري غير مفتشين عن شيء من الفخر والشرف العالميين وغير قاصدين سوى خلاص البشر . كيف لا وقد احتملوا كل نوع من المتاعب والبلايا وكانوا عرضة لكل نوع من المخاطر حتى الاستشهاد ومع ذلك لم يثنوا عن عزمهم ولا خارت عزائمهم . ومن اوّل هولاء الدعاة واشهرهم فرنسيس زفير الذي ولد من عائلة شريفة وكان محاطاً من صغره بالغنى والشرف الّا انهُ برهن بحياته وجود امور اشرف من شرف العالم وتستحق الاقتناء اكثر من كل مقتنياته . وكان من افضل الرجال مناقب واشجعهم قلباً والينهم عريكة واوطاهم جانباً واصدقهم فعالاً واقواهم جناناً والحمهم حجة واكثرهم جلداً واثبتهم عزماً . ولما بلغ الثانية والعشرين كان يعلم الفلسفة في مدرسة باريس الجامعة فتعرف بلويولا وصار من اعز اصدقائهِ

ثم ان الملك يوحنا الثالث ملك البرتوغال عزم على نشر الديانة المسيحية في الولايات الهندية الخاضعة لهُ واختار لهذا العمل بوبادِلاّ ولكنهُ لم يمكنهُ الذهاب لسبب انحراف صحتهِ فاختار زفير

عوضًا عنهُ فقام ورفاً جبتهُ الخَلَق واخذ معهُ كتاب الصلوات وانطلق الى لسبون واقلع منها الى الشرق وكان ذاهبًا في السفينة التي ذهب فيها حاكم كوا ومعهُ كتيبة من الف جندي فعينت لزڤير قمرة لينام فيها الاّ انهُ اختار المنام على ظهر السفينة ومخدتهُ لفة حبال وكان ياكل مع الملاحين ويلاعبهم ويمرّضهم فاحبوهُ واعتبروهُ اعتبارًا عظيمًا

ولما وصل الى كوا اندهش من فساد السكان من اوربيين ووطنيين لان الاوروبيين جلبوا معهم كل قبائح اوربا والوطنيين لم يقتدوا بهم الاّ في القبيح فجال في الشوارع وكان يدعو الناس ويستعطفهم ليرسلوا لهُ اولادهم لكي يعلمهم ولم يمضِ الاّ برهة قصيرة حتى صار عندهُ عدد وافر من التلامذة فعلمهم باجتهاد عظيم وكان مواظبًا على افتقاد المرضى والبرص والبئسين من كل صف ورتبة لكي يخفف مصائبهم ويهديهم طريق الحق ولم يسمع بانسان مصاب الاّ زارهُ وفرج كربهُ بقدر امكانهِ وسمع مرةً ان الغواصين في منار في حالة يرثى لها فمضى اليهم حالاً وكان يعمدهم ويعلمهم بواسطة الترجمان واما تعليمهُ الاعظم فكان بواسطة اعمال الرحمة التي عملها لهم . ثم طاف كل شطوط كومورن وجال في المدن والضياع ودخل البيوت والهياكل معلمًا ومبشرًا وكان قد سعى في ترجمة التعليم المسيحي وقانون الايمان والوصايا العشر والصلاة الربانية وبعض قوانين الكنيسة فتعلم كل ذلك غيبًا بلغة الاهالي

وكان يتلوهُ على الاولاد حتى يتعلموهُ هم ايضاً ثم يرسلهم لكي يعلموهُ لوالديهم وجيرانهم. واقام ثلاثين كنيسة في راس كومرن وعين لها ثلاثين معلمًا ومن هذه الكنائس ما كان كوخًا صغيرًا على ظهرهِ صليب فقط. ومن ثم انتقل الى تراڤنكور وجال في قراها وهو يعمد ويعلم حتى كلّت يداهُ وبح صوتهُ . ولقد قال ان نجاحهُ فاق انتظارهُ كثيرًا جدًّا. وكثيرون اعتنقوا الديانة المسيحية من نظرهم الى طهارة سيرتهِ واستقامة اعمالهِ

وكان يحزن كثيرًا لان الحصاد كثير والفعلة قليلون ثم مضى الى ملقا ويابان فوجد نفسهُ بين اقوام يجهل لغاتهم كل الجهل فكان يصلي ويبكي ويتفقد المرضى والمصابين وكثيرًا ما كان يبل كم جبتهِ بالماء لكي يعصر منهُ قطرات قليلة يعمد بها المرضى قبل موتهم وكان مفعمًا من الايمان والاجتهاد راجيًا كل شيء وغير خائف من شيء . ومن جملة ما قالهُ انني مستعد ان احتمل كل نوع من الموت والعذاب لاجل خلاص نفس واحدة . وما من احد يقدر ان يصف مقدار الاتعاب التي كابدها والمخاطر التي وقع فيها مدة احدى عشرة سنة . وفيما كان عازمًا على الدخول الى الصين اصابتهُ حمى شديدة في جزيرة سنكيان انهت حياتهُ السعيدة وتوجتهُ بتاج المجد . ولعلهُ لم يدس دنيانا هذه رجل اشجع منهُ ولا اشرف ولا افضل

وتبع زفير مبشرون اخرون منهم شورتس وكاري ومرشمن

في الهند وكتزلف ومريصن في الصين ووليمس في الابحر الجنوبية وكمبل ومُفات ولفنستون في افريقية . اما جون وليمس الذى استشهد في ارومنكا فكان في صباهُ صانعًا عند رجل يبيع الادوات الحديدية وكان ماهرًا في صناعة الحديد ومغرمًا في تعليق الاجراس وفي كل عمل يبعدهُ عن دكان معلمهِ . ثم حدث انهُ سمع عظة موثرة اثرت فيهِ تاثيرًا عميقًا وصيرتهُ معلمًا في مدرسة من مدارس الاحد ثم طرق اذنيهِ امر التبشير في الاصقاع البعيدة فعزم ان يخصص نفسهُ لهذه الخدمة وعرض نفسهُ على جمعية التبشير الانكليزية فسمح لهُ معلمهُ ان يتركهُ قبل نهاية المدة المعينة فمضى الى جزائر الاوقيانوس الباسيفيكي الى هواهين في تاهيتي وديانيا وراروتُنكا وكان يعمل بيديهِ في الحدادة والحراثة وبناء السفن واجتهد على تعليم الاهالي هذه الصنائع فيما كان يبشرهم بالديانة وبينما هو في وسط اتعابهِ هجم عليهِ البرابرة في ارومنكا وبطشوا بهِ وما من احد احق منهُ بلبس اكليل الاستشهاد

اما الدكتور لفنستون فقد قص سيرتهُ بنفسهِ على اسلوب وضيع كما هو شانهُ وبيّن فيها ان اسلافهُ كانوا فقراء ولكنهم من ذوي الاستقامة وان واحدًا منهم مشهودًا لهُ بالحكمة والفطنة دعا اولادهُ عند ما حضرتهُ الوفاة واوصاهم قائلاً انني قد نظرت بالتدقيق في كل اخبار عائلتنا التي وصلت اليها فلم اجد بين كل اسلافنا رجلًا عديم الاستقامة فلذلك اذا سار احدكم او احد

اولادكم في طرق معوجة فلا يكون لاصل وراثي . ووصيتي الاخيرة لكم ان تسيروا بالاستقامة . ولما بلغ لفنستون العاشرة من عمرهِ وُضِع في معمل قطن بالقرب من كلاسكو فاخذ اجرة الاسبوع الاوَّل واشترى بقسم منها كتاب نحو لاتينيًا وعكف على درس هذه اللغة في مدرسة ليلية وكان يحيي اكثر من نصف الليل في الدرس فقرأ فرجيل وهوراس وكل كتاب وصلت اليهِ يدهُ الاَّ القصص والروايات وكان مغرمًا بقراءة الكتب العلمية والرحلات وعكف ايضًا على درس علم النبات مع ضيق وقتهِ وطاف اراضي كثيرة ليجمع منها النباتات وكان ياخذ كتبهُ معهُ الى المعمل ويضع الكتاب امامهُ وهو آخذ في عملهِ فارتشف قدرًا جزيلاً من بحر العلم والمعرفة ولما تقدم في السن قام فيهِ ميل لتبشير الوثنيين فعزم على درس الطب لكي يصير انسب لهذا العمل ولذلك اخذ يقتصد في نفقتهِ حتى صار معهُ ما يكفيهِ من المال فدخل مدرسة كلاسكو وكان يدرس في الطب واليونانية واللاهوت ويعمل مدة الفرص في معمل القطن ولم يقبل مساعدةً من احد بل كان يحصل كل ما يكفيهِ ويكفي لدفع مطلوب المدرسة بتعب يديهِ ولقد قال بعد ذلك بسنين عديدة انني عند ما التفت الى حياتي الماضية حياة التعب اشكر الله لانني حصلت ما حصلتهُ بتعبي واجتهادي واود ان ابتدئ بحياتي جديدًا على ذات المنهج الاوَّل من التعب والاجتهاد اه . وبعد ان انهى دروسهُ في المدرسة

الطبية وكتب الرسالة اللاتينية اعطي ديبلوما الطب والجراحة وكان من قصده حينئذٍ الذهاب الى الصين ولكن كانت الحرب منتشبة في تلك البلاد فعدل عن الذهاب اليها وعرض نفسهُ على جمعية التبشير الانكليزية فارسلتهُ الى افريقية فوصلها سنة ١٨٤٠ ولم يكن شيء يزعجهُ في ذهابهِ الى افريقية ويكدر صفاء عيشهِ الاَّ ذهابهُ اليها على نفقة غيرهِ لانهُ قال لا يليق بشخص اعتاد ان يفتح طريقهُ بيدهِ ان يعتمد على غيرهِ. ولما وصل الى افريقية لم يرد ان يبشر حيثما بشر غيرهُ بل اختط لنفسهِ قسماً من البلاد لم يبشر فيهِ احد قبلهُ وكان يبشر ويعلم ويعمل بيديهِ كل الاعمال الممكنة من الفلاحة والنجارة والبناء وحفر الترع وتربية المواشي وعلَّم الاهالي هذه الصنائع ايضاً ولم يضع دقيقة من الوقت سدًى. وفي ذات يوم سافر مع نفر من الاهالي ماشياً فسمع البعض منهم يقولون انهُ ليس قوي البنية ولكن بما انهُ مكيَّس (يريدون انهُ لابس البنطلون) تظهر لهُ مهابة وهو دوننا قوةً فحرك فيهِ هذا الكلام النخوة الاسكتسية فواصل السير اياماً عديدة وهو دائماً امامهم الى ان اعياهم التعب وسمعهم يتعجبون من استطاعتهِ على السير. ولما ذهب الى افريقية اخذ معهُ باخرة صغيرة ولكنهُ لما وصل الى هناك وجدها لا توافق مطلوبهُ فارسل الى انكلترا يطلب ان تبنى لهُ سفينة بالفي ليرا وكان قد كسب هذا المبلغ من كتب اسفارهِ وقصد ذخره لاولادهِ ولكنهُ قال حينئذٍ يجب على اولادي ان يهتموا بامر انفسهم

ومما يشابه حياة لفنستون حياة الشهير يوحنا هَوَرْد الذي دلّت حياتهُ على ان الضعف الطبيعي يقدران بزحزح جبالاً من المصاعب . كان كل اهتمام هذا الرجل موجهًا الى اصلاح شان المسجونين وقد تمكن فيهِ هذا الاهتمام حتى صار ملكة ولم يثنهِ عنهُ تعب ولا خطر ولا مرض ولا امر من الامور . وكان خاليًا من المواهب الفائقة ومعتدلاً في قواهُ العقلية الّا انهُ كان ذا عزيمة ثابتة وقلب رحب فحاز شهرة عظيمة واثر تاثيرًا عظيمًا في المحاكم الانكليزية وغير الانكليزية ولم يزل تاثيرهُ حتى يومنا هذا

ويونس هنوي رجل آخر من الرجال العظام الذين اوصلوا انكلترا الى ما هي عليهِ بجدهم ودابهم وافلحوا في العمل الذي كان نصيبهم في هذه الدنيا وتركوا بعدهم ذكرًا جميلاً وايادي لا تنسى ولد سنة ١٧١٢ في بُرتسمَوْث ويتم من ابيهِ وهو صغير فانتقلت امهُ الى لندن لكي تعلم اولادها واجتهدت كثيرًا على تربيتهم وتهذيبهم . ولما بلغ السابعة عشرة أُرسل الى لسبون ليكون صانعًا عند تاجر من تجارها وبحذاقتهِ وتدقيقهِ واستقامتهِ اكتسب محبة كل من تعرف بهِ . ثم رجع الي لندن سنة ١٧٤٣ ودخل في شركة تجار مركزهم في بطرسبرج وتجارتهم في بحر قزبين فمضى الى هناك ولم يلبث ان وصل حتى انطلق الى بلاد العجم وبمعيتهِ حمل عشرين مركبة من الاقمشة الانكليزية فوصل الى استرخان واقلع الى استرباد في الجنوب الشرقي من بحر قزبين وحالما وصل الى

الشاطئ هاج عليهِ قوم من العصاة ومسكوا بضاعتهُ غير انهُ استخلص اكثرها . ثم علم انهم كانوا قاصدين مسكهُ ومسك الرجال الذين معهُ فحذر الخطر قبل وقوعهِ ووصل بالسلامة الى غيلان بعد ملاقاة اخطار كثيرة . ونجاتهُ العجيبة في هذه النوبة جعلتهُ ان يقول الكلام الذي صيرهُ دستورًا لحياتهِ وهو "لا تيأس قط" ثم رجع الى بطرسبرج واقام فيها خمس سنوات سائرًا في سبيل النجاح وفي غضون ذلك مات احد انسبائهِ وترك لهُ ميراثًا ليس بقليل وكان هو قد كسب غنًى وافرًا فرجع الى وطنهِ سنة ١٧٥٠ قاصدًا اصلاح صحتهِ المنحرفة وعمل الخير لابناء جلدتهِ . فصرف باقي حياتهِ في الاعمال الخيرية . واوَّل عمل خيري شرع فيهِ اصلاح طرق لندرا فنجح في ذلك واي نجاح . ثم شاع ان الفرنساويين عازمون على غزو انكلترا . فوجه اهتمامهُ الى ايجاد وسيلة لتقوية رجال البحر فاستدعى مجلس شوري من التجار واصحاب السفن وتذاكر معهم بهذا الشان وطلب منهم ان يعقدوا لجنة مآلها اعداد رجال متطوعين ليحاربوا في سفن الدولة فلبوا طلبهُ وتألفت لجنة هي اللجنة البحرية وعين مستر هنوي مدبرًا لها ولم تزل هذه اللجنة قائمة حتى يومنا هذا وقد اتت بفوائد عظيمة للامة . وقبلما مضى عليها ست سنوات اعدت ٠٣٢٨ ارجلًا منهم ٥٤٥١ ليحاربوا في البحر والبقية في البر

ثم خصص بقية وقتهِ لانشاء المباني العمومية في القصبة من

ذلك اصلاح شان مستشفي فوندلن الذي ابتدا في انشائهِ تومس كورام وانشأ مستشفى مكدلين الآن معظم اهتمامهِ كان موجهًا الى تربية اطفال الفقراء فان اولئك الاولاد كانوا في حالة يُرثى لها من الشقاء وكان يموت منهم عدد غفير لقلة الاعتناء بهم فعقد قلبهُ على هذا العمل الخطير وبحث في هذه القضية بنفسهِ حتى عرف اتساع خرقها لانهُ دخل مساكن الفقراء في لندن وسوادها ولا سيما المرضى منهم وعرف احوالهم تمامًا. ثم انطلق الى فرنسا على طريق هولندا وزار بيوت الفقراء المقامة ملجأ لهم لكي يرى ما يمكن اقتباسهُ منها في اقامة بيوت مثلها ببلاد الانكليز فقضى في ذلك خمس سنوات ثم عاد الى انكلترا ونشر خلاصة بحثهِ في البلاد فكانت سببًا لاصلاح شؤون فقرائها. وقضى حياتهُ باسرها يغيث الملهوف ويعين المحتاج وينهض الدولة الى سن الشرائع التي تعود على الفقراء بالنفع . وكان لا يتعب ولا يمل ولا يأنف من امرٍ مهما عدَّهُ الناس زريًّا اذا كان هو متيقنًا نفعهُ وهو اوَّل مَن سار في شوارع لندن حاملاً مظلة ولا يخفى ما لحقهُ بذلك من الاهانة لمخالفتهِ زي البلاد ولكنهُ ما انفك يحملها مدة ثلاثين سنة حتى شاع استعمالها كثيرًا . وكان صادقًا مستقيمًا ثقةً لا لوم في سيرتهِ . خدم الدولة في منصب ابواب الرشوة واسعة فيهِ ولكنهُ لم ياخذ شيئًا بل كان يرد الهدايا الى اصحابها قائلاً اني حتمت على نفسي الاَّ اقبل شيئًا من مثل ذلك . ولما حضرتهُ الوفاة تأهَّب لها تاهبهُ

للسفر فوفى كل ديونهِ ورتب كل امورهِ وودع اصدقاءَهُ وانضم الى آبائهِ وهو في الرابعة والسبعين ولم تبلغ تركتهُ سوى الفي ليرا وكان قد اوصى بها لبعض الايتام والبئسين اذ لم يكن لهُ وريث

وهاك مثالاً آخر للنشاط في حياة كرنڤيل شرْب الذي هو اوَّل من اجتهد في الغاء العبودية ثم سلَّم هذا العمل العظيم الى اناس مشاهير منهم كلركسن وولبرفورس وبكستون وبروَم وهولاء الرجال من الافراد النادري المثال ولكنَّ كرنڤيل اعظمهم بل هو فريد زمانهِ في المواظبة والنشاط والبسالة . وقد ابتدأ في العمل صانعًا عند رجل يبيع الاقمشة ولما انتهت مدتهُ جعل كاتبًا في بيت الاسلحة وهناك شرع في هذا العمل العظيم اي عتق الرقيق. وكان من صغرهِ ينتدب لكل عمل نافع من ذلك انهُ وهو صانع عند بائع الاقمشة كان لهُ رفيق من الموحدين (فئة من النصارى تنكر التثليث) فتناظرا في بعض المواضيع الدينية فادعى الموحد ان كرنڤيل بانِ اعتقادهُ في التثليث على آيات من الكتاب لا يفهمها لانهُ لا يعرف اللغة اليونانية فتأثر من هذا الكلام واخذ يدرس اليونانية باجتهاد شديد فلم يمضِ عليهِ وقت طويل حتى صار يعرفها معرفة كافية لغرضهِ . ثم حدثت مناظرة اخرى بينهُ وبين رجل يهودي من جهة تفسير النبوات فاضطر الى تعلم اللغة العبرانية فتعلمها

وكان لهُ اخ طبيب اسمهُ وليم كان يشاهد المرضى والمصابين

فاستشارهُ رجل افريقي مسكين اسمهُ يونائان استرن في مسئلة
جراحية وهذا المنكود الحظ عبد لفقيه بربدوزي كان حينئذٍ في
لندرا وقد اساء معاملته حتى كاد يصيرهُ اعمى واعرج ولما رأى انهُ
اضحى عديم النفع طردهُ من بيتهِ ليهلك جوعًا فاخذ يستعطي
ليقوت نفسهُ مع ما بهِ من الادواء الى ان ساقهُ سعدهُ الى وليم
شرْب فعالجهُ قليلاً ثم ادخلهُ مستشفى ماربرثلماوس فبقي فيهِ الى
ان شفي. ولما خرج من المستشفى عالهُ وليم واخوهُ الى ان وجدا لهُ
عملاً عند صيدلي فبقي في خدمة الصيدلي سنتين . وحدث يومًا
انهُ كان ذاهبًا مع امرأة معلمهِ الصيدلي فمرّ بهِ سيدهُ القديم اي الفقيه
ولما رأى انهُ قد ملك صحتهُ استدعى اثنين من الحراس وامرهما ان
يقبضا عليهِ عازمًا ان يرسلهُ الى الهند الغربية ففعلا ووضعاهُ في
محرس فلما رأى نفسهُ في هذه الحالة التعيسة تذكر كرنفيل شرْب
وما عملهُ معهُ من الاحسان فارسل اليهِ كتابًا يخبرهُ بحالهِ ويطلب
مساعدتهُ اما شرب فكان قد نسيهُ تمامًا ولذلك ارسل رسولاً
ليفحص ويرى من هو استرن هذا فانكر الحراس ان عندهم رجلاً
بهذا الاسم ولما أُخبر شرْب بذلك كثرت عندهُ الظنون فقام
لساعتهِ وانطلق الى المكان الذي كان فيهِ العبد ولم يرجع حتى
رآهُ فعرفهُ واوصى رئيس السجن ان لا يسلمهُ لاحد حتى يعرض
امرهُ لحاكم المدينة ثم مضى الى الحاكم وعرض لهُ واقعة الحال
فاستدعى الحاكم العبد واللذين مسكاهُ وكان سيدهُ السابق

قد باعهُ حينئذٍ من رجل آخر فحضر هذا ايضاً وادَّعى به ولكنه
ان الحاكم لم يكن قادرًا ان يحكم بحريتهِ ولا بعبوديتهِ ولا كانت له
دعوى جنائية اطلقهُ فتبع مستر شَرْب ولم يجسر احد ان يدنو منهُ
الَّا ان سيدهُ استخرج امرًا من الدولة بارجاعهِ

وكانت حرية الرعايا في ذلك الوقت اي نحو سنة ١٧٦٧
قائمة بالقول لا بالفعل لانهُ كان في كل المدن الكبار قوم دابهم
القبض على الناس وارسالهم الى الهند خدامًا للشركة الهندية واذا
استغنت الشركة عنهم في الهند كانت ترسلهم الى المهاجر الانكليزية
في اميركا ليكونوا فيها عبيدًا وكان بيع العبيد يُعلَن في الجرائد
بل كان يعلن حلوان من دلَّ على عبد ابق وكانت مسئلة
الاستعباد غامضة والحكم فيها متقلبًا غير ثابت وكان الراي العام
ان من دخل انكلترا تخلص من ربقة العبودية الَّا ان اناسًا
كثيرين من ذوي الشهرة والمكانة كان رايهم خلاف ذلك وهذا
كان راي القضاة الذين استغاثهم مستر شَرْب على عتق يوناثان
استرن حتى ان رئيس القضاة اللورد منسفيلد واكثر ارباب
المجلس كان رايهم ان العبد يبقى عبدًا ولو دخل انكلترا وان ابق
وجب ردهُ الى سيدهِ شرعًا وهذا كان يجب ان يقطع آمال مستر
شرب من اطلاق سبيل يوناثان ومن الانتصار للعبيد ولكنهُ زادهُ
همةً ونشاطًا فعزم ان ينتصر للعبيد ويدافع عن حريتهم الى آخر
نسمة من حياتهِ ولذلك رأى ان لا بدَّ له من تعلم الفقه لان الفقهاء

الذين التجأ اليهم لم يكونوا من رايهِ . ولم يكن قد فتح كتابًا فقهيًّا قبل ذلك فابتاع كتبًا كثيرة واخذ يطالع فيها صباحًا ومساء لانهُ كان يعمل النهار كلهُ في بيت الاسلحة كما قدمنا فصار عبدًا وهو يحاول تحرير العبيد . وكتب مرةً الى احد اصحابهِ يقول لهُ اعذرني لعدم مجاوبتي كتابك في حينهِ لان الوقت الذي كنت املكهُ من الليل ملّكتهُ لمطالعة بعض الكتب الفقهية وهي تستدعي وقتًا طويلاً واجتهادًا عظيمًا

ودام على مثل ذلك سنتين كاملتين وهو يطالع في كتب كثيرة ويدون كل ما يوافقهُ من آراء القضاة وبنود المجلس العالي واحكامهِ ولم يكن لهُ مساعد ولا مرشد بل لم يجد قاضيًا واحدًا من رايهِ الآن نتيجة درسهِ كانت حسب مطلوبهِ الامر الذي اندهل منهُ كل المفتين . ومن جملة ما كتبهُ حينئذٍ قولهُ الحمد لله لانني لم ارَ في كل شرائع دولتنا الانكليزية ما يجيز استعباد البشر . ثم كتب نتيجة بحثهِ في ملخص سهل العبارة واضح الاشارة سماهُ بطلان اباحة العبودية في انكلترا ونسخ منهُ عدة نسخ بيدهِ ووزعها على اشهر مفتي عصرهِ فلما رأى سيد استرون من شرْب ذلك حاول تاخير المرافعة ثم طلب ان تصير بينهم مراضاة بلا مرافعة فلم يقبل شرْب بذلك واستمر على توزيع النسخ على القضاة حتى ان المحامين الذين اختارهم سيد يوناثان تحولوا عن المحاماة فالتزم ان يدفع ثلاثة اضعاف المصاريف لانهُ لم يمكنهُ اثبات دعواهُ .

وحينئذٍ طبعت رسالة شرب المار ذكرها

ونحو ذلك الوقت حدثت في لندن حوادث كثيرة من اختطاف السودان وارسالهم للبيع في الهند الغربية اما شَرْب فكان يخلص كل من عثر عليهِ من هولاء المنكودي الحظ بامر الدولة ومن ذلك امرأة رجل افريقي اسمهُ هيلاس خطفها البعض وارسلوها الى بربادوز فانتصر لها شرْب وخلصها بقوة الحكومة من النخّاسين وردها الى انكلترا. وكان في انكلترا زنجي اسمهُ لويس ادعى بهِ رجل وارسل اثنين فمسكاهُ وقيداهُ ومضيا بهِ الى سفينة مسافرة الى جمايكا فسمع البعض صراخهُ ومضوا واخبروا مستر شَرْب الذي كان قد اشتهر امرهُ حينئذٍ بتخليص العبيد فعرض الدعوى للحكومة وحصل على امرٍ باطلاق العبد ولما اخرج الامر كانت السفينة قد سافرت فاخرج اوامر مشددة من الحكومة تقضي باتباع السفينة ورد العبد فأُتبعت قبل ان باينت شواطئ انكلترا واذا بذلك المسكين مقيد الى السارية مغتسل بدموعهِ فاطلق وجيء بهِ الى لندن وأُلقي القبض على النخاس فرفع دعواهُ الى رئيس القضاة منسفيلد وقد تقدَّم بان رايهُ يخالف راي شَرْب فلم يرد ان يحكم في هذه الدعوى لا سلبًا ولا ايجابًا ولكنهُ اطلق العبد لان النخاس لم يقدر على تقديم بينة ان العبد ملكهُ

وحتى ذلك الوقت لم تكن حرية العبيد مثبتة في لندن غير ان شَرْب لم يكف عن انقاذ من مكنتهُ الفرصة من انقاذهِ واخيرًا

تصدرت دعوى جمس سمرست الشهيرة ويقال ان هذه الدعوى تصدرت بتواطوء اللورد منسفيلد ومستر شرب لكي يثبت الحكم في مسئلة تحرير العبيد بتّا شرعيًّا نهائيًا . وسمرست هذا عبد جلبهُ سيدهُ معهُ الى لندن ثم قصد ان يرسلهُ الى جمايكا ويبيعهُ فيها فقام مستر شرب حسب عادتهِ ومسك دعوى العبد اما اللورد منسفيلد فقال ان هذه الدعوى مهمة جدًّا فيجب ان يوخذ فيها راي كل القضاة . فقامت على مستر شرب جميع قوات الملكة الَّا انهُ رأى نفسهُ كفئًا لهذا الامر لما عندهُ من ثبات العزم . ولحسن حظهِ وجد كثيرين من القضاة قد غيروا رايهم وصاروا من رايهِ (من قراءتهم رسالتهُ المار ذكرها) فالتأم مجلس قضائي من اللورد منسفيلد وثلاثة من رؤساء القضاة وجرت المذاكرة فيهِ في امر حرية الرعايا ولزومها وكيف انها لا تفقد الَّا لعلة شرعية توجب النفي وبعد مباحثة دامت اياما كثيرة خرج حكم اللورد منسفيلد (الذي كان قد تغير رايهُ بواسطة رسالة شرب) ان لا شيء في الشرائع الانكليزية يعضد العبودية او يجوزها ولذلك يجب ان يطلق سبيل جمس سمرست . وبهذا الحكم نُقضت تجارة العبيد التي كانت جارية علانية في اسواق لندن ولفربول واثبت القول القائل ان العبد يُعتَق عند ما تطأ رجلهُ ارضًا انكليزية كل ذلك باجتهاد مستر شرب وحدهُ

ولم يكتفِ هذا الشهم بالفوز العظيم الذي حصل عليهِ بل

لازم اعمال البر بهمة لا يخامرها كلل ولا ملل وبهمته ناسس مهجر سرّاليون لسكنى العبيد المعتقين وأصلح شان هنود اميركا والغي اجبار الناس على الخدمة البحرية لان شرْباً كان يقول ان الملاحين الانكليز حقوقهم حقوق بقية الرعايا واجتهد ايضاً في ارجاع الصلات الحبية بين الدولة الانكليزية ومهاجرها في اميركا . ولما انتشبت حرب الحرية بين انكلترا واميركا كانت ضد رايهِ على خط مستقيم فتنحى عن وظيفتهِ في بيت الاسلحة لانهُ لم يطق ان يعمل في عمل لهُ شركة في تلك الحرب القبيحة . وبقي الى آخر نسمة من حياتهِ مهتمًّا بالغاء العبودية تمامًا وبمساعيهِ انتظمت لجنة الغاء العبودية التي قام منها اناس متقدون غيرةً واجتهادًا وانكبوا على تنفيذ ماربهِ ولا عجب اذا فعلوا ذلك لانهم كانوا مضطرمين بما بثهُ في صدورهم من محبة عمل الخير ولم يساعدهُ هولاء وحدهم بل كل الامة الآن رداءَهُ سقط على كلاركصن وولبرفورس وبروم وبكستون الذين اشتغلوا في هذه المسئلة باجتهاد يوازي اجتهادهُ الى ان الغيت العبودية من كل السلطنة الانكليزية . وهولاء الرجال العظام فعلوا كثيرًا في الغاء العبودية الآن مصدر كل ذلك كرنفيل شرْب الذي شرع في هذا العمل وكل رجال المملكة ضدهُ وقد صارعهم جميعًا قضاةً وروساء وتغلب عليهم بثباتهِ واجتهادهِ وصيرهم لهُ انصارًا . والعالم كلهُ مديون لهذا الرجل لانهُ نزع منهُ شرًّا عظيمًا حط شأن الانسان زمانًا طويلاً وكل ما حدث بعدهُ

هو نتيجة تعبهِ . فهو اوّل من مسك هذه الشعلة بيدهِ واضرم بها بعض العقول فاستنارت وعم ضياؤها العالم اجمع

وقبلما توفي شرْب قام كلاركصن ووجه اهتمامهُ الى هذه المسئلة حتى انهُ اختارها موضوعًا لرسالة مدرسية (رسالة ينشئها الطالب عند ما ينتهي من المدرسة) ثم ترجم هذه الرسالة من اللاتينية الى الانكليزية ونقحها وطبعها وكانت قد تالفت لجنة الغاء العبودية فانضم اليها وضحى كل صوالحهِ لاتمام غرضها وكان شغلهُ جمع البيّنات التي تعين على ابطال العبودية . وكان المحامون عن العبودية يدعون ان العبيد انما هم اسرى اخذوا في الحروب وابتياعهم خير لهم من العذاب والقتل حسب عوائد بلادهم الآ ان كلاركصن كان يعرف ان الذين يتجرون بالعبيد يصطادونهم صيد الوحوش غير انهُ لم يقدر ان يثبت ذلك بالبينة وحدث يومًا انهُ التقى بصاحب لهُ وفيما هما يخوضان في بحر الحديث قال لهُ صاحبهُ انهُ يعرف نوتيًا كان عملهُ اقتناص العبيد الاّ انهُ لا يعرف اسمهُ ولا يقدر على وصفهِ ولا يعرف مقرهُ وكل ما يعرفهُ من امرهِ انهُ في احدى السفن الحربية فعزم كلاركصن ان يفتش عن هذا الشاب وياتي بهِ شاهدًا فتفقد كل المرافئِ البحرية بنفسهِ وفتش كل السفن الحربية واخيرًا وجد الشاب المذكور في آخر مرفاٍ وصل اليهِ وفي آخر سفينة دخلها فاتى بهِ شاهدًا على صدق دعواهُ فكان من اقوى شهدائهِ . وبقي عدة سنين يفتش عن

شواهد وادلة اخرى فكاتب اكثر من اربع مئة رجل وسافر نحو خمسة وثلاثين الف ميل حتى اضناهُ التعب وخارت قوتهُ ولكنهُ لم يترك هذا الميدان حتى نبه افكار الجمهور وحرّك ذوي الشهامة الى المعاضدة على الانتصار للعبيد والشفقة عليهم

وبعد معاناة مشقات كثيرة الغيت تجارة العبيد تمامًا ولكن بقي امر اهم من الغاء التجارة وهو الغاء العبودية نفسها وعتق العبيد وهذا ايضًا تمّ بواسطة نشاط النشيطين واشهر الذين لهم اليد الطولى في اتمامهِ فول بكستون . كان هذا الرجل في صباهُ مشهورًا بالعناد والمكابرة فانهُ تيتّم من ابيهِ وهو حدث وكانت امهُ امرأة فاضلة حكيمة فاجتهدت كثيرًا على تربيتهِ تربية حسنة وردع اهوائهِ ولكنها كانت تبيح لهُ الحكم في بعض الامور الطفيفة مرتئية ان الارادة القوية صفة حميدة . وكان بعض معارفها يلومونها لانها ربت في ولدها هذه القوة فتجيبهم بقولها لا بأس عليهِ من ذلك فان هذه الارادة سيكون منها افادة. ثم ارسلتهُ الى المدرسة فلم يستفد منها شيئًا لطيشهِ وكسلهِ ورجع الى البيت وهو في الخامسة عشرة وكان مولعًا بالصيد وركوب الخيل وفيما هو في السن الذي تبتدئ فيهِ حياة الشاب اما في المليح واما في القبيح القتهُ التقادير في بيت كرني بيت مشهور بالفضل والتهذيب . وقد شهد من نفسهِ فيما بعد انهُ يعزي تقدمهُ في العالم الى دخولهِ في هذا البيت. وهو الذي ساعدهُ على تهذيبهِ نفسهُ ودخولهِ مدرسة دبلن الكلية وقد

افلح في تلك المدرسة افلاحًا عظيمًا وكان احب شيء لديهِ ان يرى اهل ذلك البيت ان تعبهم لم يذهب سدًى . ثم تزوج بواحدة من بناتهم ودخل عند اخوالهِ في لندن كاتبًا. والملكة التي تاسست فيهِ وهو ولد ظهرت الآن في كل اعمالهِ وسببت كل نجاحهِ لانهُ قدر بواسطتها ان يعمل كل ما وصلت اليهِ يدهُ بلا كلل ولا ملل وكان يصب كل قوتهِ على كل عمل اخذ فيهِ . وصار هذا الجبار العظيم (وذلك لانهُ كان كبير الهامة) من اكثر من رجال عصرهِ جلدًا ونشاطًا ونجح في كل اعمالهِ لانهُ عملها بكل قوتهِ . وبعد ان بقي مدةً كاتبًا صار شريكًا ثم صار المعمل كلهُ تقريبًا في يدهِ وكان نجاحهُ يزداد يومًا فيومًا . ولم يكتفِ بالتقدم والغنى بل خصص لياليهُ لترويض عقلهِ بالدرس فقرأ بلاكستون ومنتسكيو ومؤلفات كثيرة في الفقه وجعل دستورًا لحياتهِ ان ياتي على آخر كل كتاب شرع فيهِ وان لا يحسب انهُ اتم قراءة كتاب ما لم يكن قد استوعبهُ تمامًا

ولما صار لهُ اثنتان وثلاثون سنة من العمر صار عضوًا في البرلمنت فوجه معظم اهتمامهِ الى عتق العبيد في المهاجر الانكليزية وكان يقول ان الذي وجه افكارهُ الى هذه المسئلة السيدة برسكلا كرني وكانت هذه المرأة مشهورة بالفضل وجودة العقل . ولما كانت على فراش الموت سنة ١٨٢١ استدعتهُ مرارًا كثيرة وحثتهُ على جعل عتق العبيد غرضهُ من الدنيا وهذا كان كلامها الاخير.

فلم ينسَ وصيتها قط وسمّى واحدة من بناتهِ باسمها تذكارًا لها . ولما تزوجت هذه الابنة في اوّل آب من شهور سنة ١٨٤٣ اليوم الذي صار فيهِ عتق العبيد كتب الى صاحب لهُ يقول الآن تركتنا برسكلاً وذهبت مع عريسها وقد تمَّ كل شيء كما يجب ولم يبقَ عبد في كل المهاجر الانكليزية

ولم يكن بكستون ذا موهبة فائقة ولا من ذوي العقول الثاقبة ولكنهُ كان شديد العزم عالي الهمة وتظهر اخلاقهُ من قولهِ الذي يحق لهُ ان يطبع على قلب كل شاب وهو انني ارى بالاختبار ان الفرق بين البشر بين القوي منهم والضعيف بين العظيم والحقير هو في قوة العزم حتى اذا عزم المرء على امرٍ لا يرتد عنهُ الاَّ بالغلبة او بالمنية ومن كان ذا عزم قوي امكنهُ ان يفعل كل ما يمكن فعلهُ في هذا العالم ولا يمكن للمواهب ولا للاحوال ولا للفرص ان تجعل الرجل رجلاً اذا لم يكن ذا عزم

الفصل التاسع

في رجال الاعمال

قال سليمان الحكيم . ارايت رجلاً مجتهدًا في عملهِ أمام الملوك يقف (ام ٢٢:٢٩)

وقال اون فلثام . من لم يتعلم صناعةً ولا عملاً فهو حقير

قد شبَّه هَزْلِت رجل العمل بانسان محتار مفيد بنير حرفتهِ لا يقدر ان يحيد عنهُ يمنةً ولا يسرةً وليس عليهِ سوى ان يسير في السبيل المطروق الذي سار فيهِ مَن احترف هذه الحرفة قبلهُ . ولكن هذا القول على حرف بل هو عن الصحة بمعزل ومع هذا لا ننكر انهُ يوجد بين اصحاب الاعمال من عقلهُ محصور في دائرة ضيقة لا يتجاوزها كما يوجد بين اصحاب الاقلام ورجال العلم والسياسة . ولكنَّ هذا لا ينفي ان بين اصحاب الاعمال اناسًا كبار

العقول يستطيعون المعاطاة في اوسع اعمال الدنيا كما قال برك انهُ يعرف رجالاً من اشهر رجال السياسة كانوا تجارًا وباعةً ٠

ولو التفتنا الى ما تستدعيهِ الاعمال لنجاحها من الاهلية والسرعة وادارة العَمَلة والعلم بطبائع البشر وازدياد الاختبار وغير ذلك لرأينا جليًّا ان مدرسة العمل ليست ضيقة النطاق بل واسعتهُ وتقبل الاتساع الى ما شاء الله. ولقد اصاب مستر هلبس اذ قال ان رجال العمل الماهرين نادرون كالشعراء المفلقين واندر من القديسين والشهداء الحقيقيين الاَّ ان من الجهال من يزعم انهُ لا يليق بذوي المواهب الفائقة ان يتعاطوا الاعمال الاعتيادية. ومن برهة وجيزة انتحر شاب لانهُ على ما زعم مولود ليكون من ذوي الوجاهة وحكم عليهِ ان يكون سمَّانًا فاثبت بعملهِ هذا انهُ لا يستحق ان يكون شيئًا . والحرفة لا تحط شان الرجل بل الرجل يحط شان الحرفة . وكل الاعمال الجسدية والعقلية مكرمة على حدٍّ سوى بشرط ان يكون ربحها جائزًا. وقد تغوص الاصابع في الاقذار ويبقى القلب طاهرًا لان النجاسة امر ادبي لا مادي . قال المتنبي

يهون علينا ان تصاب جسومنا ... وتسلم اعراض لنا وعقول

وقال ايضًا

غثاثة عيشي ان تغثَّ كرامتي ... وليس بغث ان تغث المآكل

واشهر الرجال لم يستنكفوا من معاطاة الاعمال لاجل

تحصيل معيشتهم وهم يطلبون اسمى المطالب فان طاليس المليطي
راس الحكماء السبعة وصولون الموسس الثاني لاثينا وهيبرانيس
الرياضي كانوا من رجال الصناعة وافلاطون الحكيم كان يبيع
الزيت وهو يطوف بلاد مصر وينفق مما يربحهُ منهُ. وسبينوزا
حصل معيشتهُ بصقل زجاجات المناظر لما كان آخذًا في
امتحاناتهِ الفلسفية . ولينيوس النباتي العظيم تتبع العلم وهو يعمل في
السكافة . وشكسبير راس شعراء الانكليز كان يدبر الملاعب
ويفتخر بادارتها اكثر مما بالنظم . وقد ارتأى الشاعر بوب ان
قصارى شكسبير في اتقانهِ الشعر والانشاء تحصيل معيشتهِ
والظاهر انهُ لم يقصد الشهرة ولا طبع شيئًا من نظمهِ ولكنهُ كسب
مالاً كافيًا من الملاعب حتى صار لهُ منهُ دخل كافٍ فاعتزل
حينئذٍ الى المدينة التي ولد فيها . وتشوسر الشاعر كان في اوَّل
حياتهِ عسكريًّا ثم دخل بيت المكس وصار ناظرًا على الاراضي
الاميرية . وسبنسر كان كاتب سر لنائب ارلندا ثم صار رئيس
حرَس كرك . وملتن كان معلمًا ثم ارتقى الى رتبة كاتب سر لمجلس
ادارة البلاد في ايام الثورة . والسر اسحق نيوتن كان في مضرب
النقود والنقود التي ضربت ١٦٩٤ ضربت تحت مراقبتهِ .
ووردسورث كان يوزع اوراق البريد . وسكت كان كاتبًا وكلاهما كانا
غاية في المحافظة على الوقت . وداود ريكردو كان تاجرًا فحصل
على ثروة وافرة ووضع علم الاقتصاد السياسي وهو آخذ في عملهِ

فجاء علماً نفيساً مبنياً على اختبار تاجر حاذق وفيلسوف نفريس وبَيلي الفلكي كان سمساراً . والن الكيماوي حائكاً

وفي وقتنا هذا اناس كثيرون يبين منهم ان اسمى القوى العقلية حليف للعمل والتعب فان غروت المؤرخ كان صرافاً ويوحنا ستورت مل الفيلسوف الشهير كان فاحصاً في شركة الهند الشرقية وكان العاملون معهُ يعتبرونهُ اعتباراً عظيماً لا لآرائهِ الفلسفية بل لنشاطهِ في عملهِ . والنجاح في الاعمال مثل النجاح في العلوم تماماً لا يحصل الاَّ بالصبر والتعب والانصباب . قال قدماء اليونان لا ينجح الانسان في عمل الاَّ بالرغبة والدرس والمزاولة وسر النجاح المزاولة ورب قوم ينجحون قليلاً بالصدفة ولكن نجاح الصدفة كربح المقامر آلة لخرابهِ . كان من عادة الفيلسوف باكون ان يقول ان الاعمال كالطرق فالمعاجيل اوعرها ومن طلب الراحة فعليهِ بالطرق الطويلة وان اضاع فيها وقتاً طويلاً

وما قيل في خرافات اليونان عن هرقل ومشقاتهِ التي عاناها قبل ان نجح يصح ان يكون مثالاً لنجاح كل البشر . فليعلم كل شاب ان سعادتهُ وارتقاءهُ يتوقفان عليهِ وعلى اجتهادهِ لا على مساعدة الغير لهُ وما احسن ما كتبهُ المرحوم اللورد ملبرن الى اللورد جون رُسّل جواباً عن كتاب توصية باحد اولاد الشاعر جون مور . قال ايها العزيز اري ان الافضل لنا ان نساعد موراً نفسهُ لا ابنهُ لان مساعدة الشبان في غير محلها بل تضرهم اذ

نجعلهم يعتمدون بذواتهم ولا يعولون عليها ويجب ان لا نخاطب الشاب الا بقولنا اعتمد ايها الشاب في امر معاشك على نفسك فان تكاسلت ومت جوعًا فدمك على راسك

والاعمال المبنية على مبادئ صحيحة لغايات حميدة لا بد من ان تنتج منها نتائج حميدة هذا فضلاً عن انها ترقي شان الانسان وتصلح صفاته وتحرك همة غيره للاقتداء به. ولا يمكنا ان نطمع بان الجميع ينجحون على حدٍ سوى ولكن كلٌ ينجح على قدر اجتهاده واستحقاقه كما قال الشاعر

على قدر اهل العزم تاتي العزائمُ وتاتي على قدر الكرام الكرائمُ

وعلى كلٍ لا يناسب البشر ان تكون طرقهم مسهلة اكثر من اللازم. والافضل للانسان ان يكون مضطرًا لان يعمل بالكدح ويعيش بالتقطير من ان يرى رزقهُ مسهلاً ميسورًا ومهدهُ رطبًا طريًا. ومن الموكد ان الذين يدخلون في ميدان الحياة وزادهم قليل يكونون اكثر رغبة من غيرهم حتى ان ذلك شرط لازم للنجاح. قيل سئل احد القضاة بما يرتقي الناس الى منصب القضاء فقال "البعض يرتقون بالذكاء والبعض بالشرف والبعض بالمعجزة والاكثر بالفقر"

وحقًا ان العمل اصل نجاح العباد وعمران البلاد ولا لعنة على الانسان اعظم من ان يتمتع بكل امانيه هنيئًا مريئًا بلا تعب ولا كد . والامة التي ليس في افرادها ميل للعمل والكد

والاستقلال يجب حذفها من سلك الام . قيل سأل المركيز ده سبنولا السر هوراس فير قائلاً مما مات اخوك فاجابه من عدم العمل فقال المركيز اصبت ولعلّ ذلك كافٍ لان يميت كل جنرال منا

ومن الغريب ان الذين تخيب مساعيهم ينسبون خيبتهم غالبًا الى غيرهم وحسبنا دليلاً على ذلك ان احد الكتاب الف كتابًا من عهد قريب وعد فيهِ الاعمال الكثيرة التي اخذ فيها ولم ينجح وذكر من جملة ما ذكرهُ انهُ يجهل جدول الضرب وبعد كلام طويل قال ان عدم نجاحهِ حدث من ان العصر الذي هو فيهِ عصر عبادة المال . ولمرتين الشاعر الفرنساوي لم يخجل من ذكرهِ ازدراءهُ بعلم الحساب وربما لو اعتبر هذا العلم الشريف حق الاعتبار ما رأينا اصحابهُ يهتمون بجمع الاحسان لهُ في شيخوختهِ

ومن الناس من يزعم انهُ ولد في طالع نحس فلا يمكنهُ ان ينجح في عمل ياخذ فيهِ. قال واحد انهُ لو كانت صناعتهُ عمل الطرابيش لولد الناس بلا رؤوس اما المثل المسكوبي فيقول ان النحس جار الكسل . واذا دققنا النظر رأينا ان الناس الذين يتشكون من النحس يحصدون ثمر اهمالهم وعدم اهتمامهم وقلة انصبابهم . قال الدكتور جنسن الذي اتى لندن وفي جيبهِ دينار واحد ان كل شكوى الناس من الدهر بطل وظلم لانني لم ار رجلاً نشيطًا مهملاً وكل من تخيب مساعيهِ لومهُ غالبًا على نفسهِ . وقال وشنطون

ارڤن المؤرّخ الاميركاني الشهير" انني كثيرًا ما اسمع الكَسِل الوَكِل يتشكى من ظلم الزمان وجوره على ذوي الفضل وما تلك الّا تعلة باطلة لانهُ ما من احد من ذوي الفضل الّا وهو مفلح اذا كان من ذوي التدبير والسعي لا من الجبناء الذين يتروون في بيوتهم ويتوقعون ان يسوق القدر اليهم رزقهم. ومن الاقوال المتداولة ان الدهر يخفض الفضلاء ويرفع الجهلاء ولعل ذلك لا يخلو من الصحة لان جهلاء القوم قد يكونون من اهل النشاط والهمة . أَوَلا ترى ان الكلب النابح انفع من الاسد النائم"

والنجاح في العمل يستدعي وجود الانتباه في العامل والانصباب والتدقيق والترتيب والمحافظة على الوقت . واذا نظرنا الى هذه الصفات رأَيناها من اول وهلة امورًا طفيفة لكن بعد التروي نجد انها امور جوهرية لراحة البشر وتقدمهم ونجاحهم وان تكن صغيرة فالعالم مركب من الصغائر وصفات الامم مولفة من تكرار اعمال صغيرة مثل هذه . وما من شعب حطَّ شانهُ الّا بسبب اهمالهِ هذه الامور الصغيرة وامثالها وعلى كل احد واجبات ان كانت عائلية كتدبير المنزل او خارجية كاحتراف الحرف اى جمهورية كسياسة الامة ولا بد في كل حال من القيام بها

وقد تقدمت امثلة كثيرة من الذين نجحوا في كل نوع من الصنائع والعلوم والفنون بواسطة انصبابهم فلا حاجة الى تكرار ذلك اما الانتباه فليسَ اقل من الانصباب لزومًا للنجاح. والتدقيق

صفة ضرورية وسمة من سمات حسن التهذيب ولا بد من التدقيق في الملاحظة وفي الكلام وفي اجراء الاعمال والافضل للانسان ان يعمل عملاً صغيرًا بدقة من ان يعمل عشرة اضعاف ذلك العمل بغير دقة . ولكن كثيرين لا يبالون بهذه الصفة مع انهم يشعرون بالمضار الناتجة من اهمالها . ومن لم يكن مدققًا في اعماله لا يُؤتمن عليها ولو كان امينًا ماهرًا حسن التصرف لانهُ لا يعملها جيدًا. يحكى ان تشارلس جمس فُكس لما عين كاتب اسرار البلاد عيبت عليهِ رداءة خطهِ فلم يستنكف ان اتى معلمًا يعلمهُ الخط وواظب على ذلك حتى اجاد خطهُ. وتدقيقهُ في ذلك يظهر تدقيقهُ في الامور الكبيرة . والترتيب ضروري لانهُ يعين على اتمام قدر جزيل من العمل في وقت قصير اتمامًا مرضيًّا. قال رتشرد سسل ان الترتيب في الاعمال يشبه وضع الامتعة في الصناديق فالانسان الحاذق في ذلك يضع في صندوق واحد مضاعف ما يقدر على وضعهِ غير الحاذق . وترتيب سسل هذا يضرب بهِ المثل حتى انهُ جعل لهُ دستورًا "ان الطريق الاخصر لاتمام الاعمال ان لا يُعمل في وقت واحد الاَّ عمل واحد" . ولم يترك عملاً حتى اكملهُ تمامًا . ولما كانت تتكاثر عليهِ الاعمال كان يواصل العمل بها دائمًا متعديًا على اوقات الاكل والراحة حتى يتمها . وكان دستور ده وت مثل دستور سسل اي عمل واحد في وقت واحد قال انهُ ما ترك عملاً وشرع في آخر الاَّ بعد ان اكمل الاوَّل جيدًا . سئل احد

الوزراء الفرنساويين وكان ينجز اعمالاً كثيرة في وقت قصير لم تنجز هذا المقدار من الاعمال فقال بعدم تاخيري للغد ما يمكني عملهُ اليوم . قال اللورد بروم ان احد الانكليز من رجال السياسة اخذ هذا القول وجرى على عكسهِ اي لم يعمل الاَّ ما لا يمكن تاخيرهُ الى الغد . والظاهر ان كثيرين ينهجون هذا المنهج ناسين انهُ داب الكسالى الذين يتكلون على غيرهم لتنفيذ مآربهم واتمام اعمالهم ولكن اسمع ما قال المثل ان اردت قضاء حاجتك فاقضها بنفسك واذا لم ترد قضاءها فوكل بهِ غيرك . وما حك ظهرك مثل ظفرك

روي ان احد الاغنياء الكسالى كان لهُ ارض دخلها خمس مئة ليرة في السنة فكثرت عليهِ الديون حتى التزم ان يبيع نصفها ويضمن النصف الاخر لاحد الفلاحين النشيطين وبعد مضي مدة من الزمان اتى الفلاح المذكور الى صاحب الارض وسالهُ اذا كان يريد ان يبيعهُ بقية الارض فقال لهُ وهل تقدر ان تشتريها قال اقدر اذا اتفقنا على الثمن فقال ان في ذلك عجبًا فاخبرني لماذا لم يكن الدخل من مضاعف هذه الارض يكفيني ولم اكن ادفع عليها شيئًا واما انت فتدفع لي مئتي ليرا سنويًّا ضمانًا وقد صرت قادرًا ان تشتري كل الارض وليس لك مدة طويلة فيها فاجابهُ ان سبب ذلك واضح جدًّا وهو انك تجلس في بيتك وتقول اذهب ولكني انا اقوم واقول تعال انت تنام في سريرك

ونصرف اموالك وانا اقوم صباحًا وادبر اعمالي

كتب احد الشبان الى السر ولتر سكوت يطلب نصحهُ وكان قد دخل في منصب فكتب لهُ الجواب بهذه الصورة احترس من البطالة وليكن دستورك Hoc age (افعل هذا) ولا تؤخر عملًا يجب عملهُ ولتكن اوقات الراحة بعد العمل لا قبلهُ . اذا سار جيش واضطربت مقدمتهُ قليلاً حدث اضطراب عظيم في ساقتهِ وهكذا الحال في الاعمال فان لم تكمل ما بيديك من العمل فعما قليل تزدحم عليك الاعمال فتضيق بها ذرعًا

اما المحافظة على الوقت فتظهر قيمتها من اعتبار قيمة الوقت قال واحد من الفلاسفة الايطاليين ان الوقت عَقَار كل انسان ولكن هذا العقار لا ينتج شيئًا ما لم يفلح ويصلح فمن عملهُ جنى ثمر اتعابهِ ومن اهملهُ لم يحصد منهُ سوى الشوك والحسك وكل المضار ومن فائدة المحافظة مع الوقت انها تمنع ارتكاب الشرور . قال المثل راس الكسلان خان الشيطان وفي عقل البليد شيطان مريد . ألا ترى انهُ اذا كان الانسان بطالاً وكانت ابواب ذهنهِ مفتوحة تجد التجارب اليهِ سبيلاً وتتقاطر الهواجس الى عقلهِ ولقد لوحظ ان النوتية تكثر بينهم الفتن والمقالات عند ما يكونون بطالين ولذلك كان من عادة احد الربانيين انهُ اذا لم يبقَ عملٌ للملاحين امرهم بصقل المراسي

من عادة رجال الاعمال ان يسموا الوقت مالاً ولكنهُ اكثر

من مال واستغنامهُ يزيد الانسان علمًا وتهذيبًا وشهرةً. ولو مضى الانسان ساعة كل يوم في تهذيب نفسهِ بدلاً من تمضيتها بالكسل او بامور لا طائل تحتها لصار حكيمًا في سنين قليلة . ومن خصص ربع ساعة كل يوم بتوسيع معارفهِ رأَى لها نتيجة كبيرة في سنة واحدة. والتفكر الحسن والاختبار الصحيح لا يضيعان شيئًا من وقتنا بل يمكننا ان نصحبهما معنا في كل اعمالنا ولا نخسر عليهما شيئًا . والواسطة الفضلى لجعل الوقت كافيًا للعمل والراحة هي انجاز الاعمال في اوقاتها والاَّ تراكمت على الانسان ولبكتهُ وصار عملها كلها فوق طاقتهِ . ومن الناس من لا يعتبر قيمة الوقت حتى يفوت كما ان منهم مَن لا يعتبر قيمة المال حتى ينفد فاذا اعتاد الانسان على البطالة تملكت فيهِ هذه الخلة حتى اذا اراد النهوض للعمل رأَى نفسهُ مقيدًا بسلاسل الكسل التي ارتبط بها بارادتهِ . من يخسر مالاً يستردهُ بالاجتهاد ومن يخسر علمًا يستردهُ بالدرس ومن يخسر صحة يستردها بالدواء واما من يخسر وقتًا فلا يقدر ان يستردهُ بواسطة من الوسائط

واعتبار الوقت يعين على المحافظة عليهِ قال الملك لويس الرابع عشر "المحافظة على الوقت من كمالات الملوك" وهي ايضًا من واجبات الاشراف وضروريات الصناع ولا شيء يقوي ثقتنا بانسان مثل وجود هذه الصفة فيهِ ولا شيء يقلل ثقتنا بهِ مثل اهمالهُ اياها فمن انجز كل شيء في وقتهِ ظهر انهُ معتبر وقتهُ ووقت غيرهِ

ومن ارتبط بعمل ولم ياخذ فيهِ كل يوم في الوقت المؤجل عُدَّ مخلفًا العهد حانثًا بل كاذبًا بل مجرمًا . ومن لا يهتم بالوقت لا يهتم بالعمل ولا يستحق ان يؤتمن على اعمال ذات طائل. حكي ان كاتب اسرار وشنطون تأخر يومًا عن المجيء اليهِ في الوقت المعين والقى اللوم على ساعتهِ فقال لهُ وشنطون ابدل ساعتك باخرى والاَّ بدلتُكَ بآخر

والذين يتأخرون عن عمل كل شيء في وقتهِ يذهبون الى السفينة بعد ان تسافر ويكتبون مكاتيبهم بعد ان يسير البريد فتكون كل اعمالهم في ارتباك واضطراب دائمين . والاختبار يرينا ان الذين لا يحافظون على الوقت لا يصلون الى النجاح بل يطرحهم العالم وراء ظهرهِ ليرثوا نصيب الكسالى البطالين الذين دابهم التذمر من صروف الدهر

وعلى رجال العمل ان يكونوا سريعي الخاطر ايضًا في اجراء مقاصدهم شديدي الثبات في اتمامها . وسرعة الخاطر والثبات ضروريان جدًّا وهما وان كانا بالطبع لا بالوضع فالاختبار والملاحظة يقويانهما ومَن قاماتا فيهِ يرى من اول وهلة منهج العمل الذي يقصد الاخذ فيهِ حتى اذا كان ذا عزم جرى في عملهِ وبلغ منهُ امانيهُ . وهاتان الصفتان اعني سرعة الخاطر والثبات ضروريتان جدًّا لكل احدٍ ولاسيما للذين عليهم ادارة الاعمال الكبيرة مثل قيادة الجيوش لانهُ لا يكفي ان يكون القائد بطلاً

متضنكًا بل يجب ان يكون من اهل العمل نبيهًا خبيرًا باحوال البشر واخلاقهم قادرًا على تنظيم عدد وافر من الرجال على ان يطعمهم ويكسوهم ويدبر امر منامهم وقيامهم ورحيلهم ونزولهم وصفهم في الحرب والاعتناء بالجرحى منهم الى غير ذلك . والمرجح انه ليس بين قواد الارض من هو اشهر من نبوليون وولنتون . فنبوليون كان يحب تفصيل الامور محبة فائقة وكان قوي التصور متدبرًا للامور وناظرًا في عواقبها نظر الخبير الحازم وكان غايةً في الزكانة والفراسة ينظر الى الرجل فيعرف اطوارهُ ولذلك قلما اخطأ في اختيار رجالهِ ولكنهُ لم يعتمد عليهم كثيرًا في المسائل الكبيرة ذات القدر ومن اراد الاطلاع على اطوار هذا الرجل العظيم بالتفصيل فعليهِ بمراسلات نبوليون المطبوعة في باريس بامر نبوليون الثالث وبالمجلد الخامس عشر منها المتضمن مكاتيبهُ التي كتبها وهو في حدود بولونيا سنة ١٨٠٧ بعد غلبة ايلو . كان نبوليون بونابرت في ذلك الوقت نازلًا على نهر بَسَرْج والروسيون امامهُ والنمساويون عن يمينهِ والبروسيانيون وراءهُ وكان عليهِ ان يتراسل مع فرنسا في امور مهمة جدًّا وهو في بلاد العدو ولكنهُ كان قد سبق فدبر امر ذلك فواصل الرسائل ولم يفقد لهُ كتاب واحد وكان يلتفت دائمًا التفاتًا لا يفوقهُ التفات الى حركات العساكر وطلب النجدات من اقاصي فرنسا واسبانيا وايطاليا وجرمانيا وفتح الخلجان وتمهيد الطرق لجلب المؤونة من بولونيا

وبروسيا وكانت اوامرهُ تصدر لجلب الخيل وعمل السروج والاحذية واستحضار المؤونة الكافية من الخبز والمشروبات معينًا انواعها ومقاديرها . وفي الوقت نفسهِ كان يكتب الى باريس في شان ترتيب مدرستها الكلية وسن شرائع التعليم العمومي ويكاتب جريدة المونيتر ويراجع تقارير وكلاء المال ويرشد العاملين في التويلري وفي كنيسة المدلين ويرد على جرنالات بروسيا ويندد بدام ده ستيل ويسعى لازالة النزاع من الملعب الكبير ويكاتب سلطان الاتراك وشاه العجم الى غير ذلك من الاشغال الكثيرة فكان جسدهُ في فنكنستن وعقلهُ يشتغل في اكثر من مئة مكان في باريس واوربا وفي كل العالم وكان يهتم بالكبائر والصغائر على حدٍ سوى فانك تراهُ يكتب الى نابي يسالهُ اذا كانت البنادق وصلت اليهِ في حينها والى البرنس جيروم يرشدهُ في امر القمصان والجبب والاحذية والشواكي[1] والاسلحة التي يريد ارسالها الى كتائب ورتمبرج والى كبسره ايرسل حنطة كافية للجنود بكل سرعة قائلاً لهُ ان إنْ ولكن لامحل لها في ذلك الوقت والى باروان الجنود في احتياج الى القمصان والى دوك برج العظيم قائلاً ان الجنود تحتاج سيوفًا فارسل مَن يجلبها من بوزن وخوذًا فَمُر ان تصنع في ابلن الى ان قال ولايمكننا ان نتم عملاً ونحن نيام . وقد فعل كل ذلك في وقت واحد ولم يترك امرًا

(١) جمع شاكو كمة تلبسها جنود الافرنج

صغيرًا كان او كبيرًا الاَّ اعطاهُ حقهُ الواجب من التروي والاجراء وكان يقضي اكثر اوقاتهِ في افتقاد احوال جيوشهِ فيضطر احيانًا ان يسير ثلاثين او اربعين غلوة في اليوم راكبًا ومع ذلك لم يهمل شيئًا من مهام السلطنة بل كان يشتغل اكثر لياليهِ بمراجعة الحسابات وتعديل الدخل والخرج وكتابة الاوامر وسن الشرائع وتدبير بقية احوال السلطنة التي كان مركز دولابها في راسهِ

ودبوك ولنتون يُعدُّ من رتبة بونابرت في الاقدام على الاعمال الكثيرة . ومن المعلوم ان هذا الديوك انتصر في كل حروبهِ بلا استثناء وقد نسب البعض ذلك الى طاقتهِ على العمل . فانهُ لما كان جنديًّا لم يكتفِ بالتقدم البطيء الذي كان يتقدمهُ فانتقل من المشاة الى الفرسان ولكن بدون تقدم فطلب من اللورد كمدن الذي كان حينئذٍ حاكمًا على ارلندا ان يستخدمهُ في الخزينة ولو استخدمهُ فيها لافلح وصار رئيس العمل ولكنهُ لم يستخدمهُ والاَّ لما صار اعظم قواد الانكليز . واوَّل ما انتظم في الجند كان في جيش ديوك بُرك والجنرال ولمودن في هولاندا والفلمنك فتعلم في وسط البلايا الكثيرة التي المت بذلك الجيش ان سوء القيادة يفسد آداب الجند ولما صار لهُ عشر سنوات متجندًا صار كرنالاً في الهند وكان ممدوحًا من روَّساء الجيش الذين كانوا يقولون انهُ غاية في الاقدام والانصباب ثم اخذ ينظر في اسرار عملهِ واجتهد في ترقية شأن رجالهِ الى اسمى الدرجات حتى ان الجنرال هرِّس كتب سنة

١٧٩٩ ان كتيبة الكرنال ولسلي (ولسلي اسم ديوك ولنتن) قدو
لبقية الكتائب في النظام والترتيب والتهذيب والانقياد حتى ان
القلم قاصر عن القيام بمدحهِ ومدحها . فاعدَّ نفسهُ لمناصب
اسمى ولم يمضِ عليهِ الاَّ برهة يسيرة حتى عُين حاكمًا لقصبة مهسور .
ثم لما انتشبت حرب المهرتات جُعل جنرالاً ولهُ من العمر اربع
وثلاثون سنة وانتصر في واقعة اساي الشهيرة ولم يكن معهُ سوى
١٥٠٠ عسكري من الانكليز و٥٠٠٠ من الهنود وجيوش المهرتات
مولف من عشرين الف راجل وثلاثين الف فارس ولكن ما كان
هذا الفوز العظيم ليحملهُ على العجب والخيلاء . ثم حدث ما اظهر
حكمتهُ وانصافهُ وذلك انهُ ولي بُعيد الغلبة امارة ولاية ذات اهمية
وكان غرضهُ الاوَّل تنظيم رجالهِ الذين اخذوا يتورطون في
السكر والخلاعة بعد الظفر كما هو شان الجنود فقتل المذنبين منهم
فرجع النظام الى الجيش كلهِ ومن نظر الى هذا العمل راهُ في بادئِ
الامر قساوة بربرية الاَّ انهُ اذا تروَّاهُ راهُ خيرًا عظيمًا للجنود كفاهم
شر الانكسار مرارًا عديدة والقتل انفى للقتل . ثم وجه اهتمامهُ الى
فتح الاسواق وارجاع دولاب الاعمال لكي يبتاع موُونة كافية
للجيش باثمان مناسبة فنجح وايَّ نجاح . ومما يستحق الالتفات انهُ
كان يمكنهُ وهو في ميدان الحرب وحومة الوغى ان يجمع افكارهُ
ويوجهها الى كل امرٍ ارادهُ

وسنة ١٨٠٨ عُقِد لهُ على عشرة آلاف جندي معدة لتحرير

البرتوغال فمضى اليها وحارب العدو وانتصر في واقعتين عظيمتين وامضى معاهدة سنترا . ثم عُقِد لهُ على جيش آخر بعد وفاة السر جون مور ولكنهُ كان في كل مدة بقائهِ في اسبانيا في مركز خطر لقلة جيشهِ في جنب جيش العدو فان جيشهُ لم يزد على الثلاثين الفًا وجيوش العدو تنيف على ثلاث مئة وخمسين الف جندي فرنساوي ممَّن حنكتهم الحروب المتواصلة وقوادهم من افضل قواد نبوليون الَّا انهُ سلك منهجًا يخالف المنهج الذي سلكتهُ جنود اسبانيا اي انهُ كف عن ملاقاة جنود فرنسا في السهول وارتد الى البرتوغال ونظم جنودًا من البرتوغاليين واقام عليهم روساء من الانكليز وترك الحرب مدةً من الزمان لكي يضعف حماسة الجيوش الفرنساوية التي لا تثور الَّا عند الانتصار عازمًا ان يقع عليها عند ما يرى جيوشهُ مستعدة وهي (اي الجيوش الفرنساوية) متكاسلة من جرى البطالة ومتوغلة في الشرور والقبائح . ومن تتبع الوسائل التي استعملها ولنتون في حروب اسبانيا ونال بها الظفر رأى مقدار الحكمة المذخرة في راس ذلك الرجل العظيم . كيف لا وقد كان محاطًا بصعوبات لا تصدق واكثرها ناتج من النفاق والمين وسوء التدبير وغير ذلك من الشرور التي كانت رائجة حينئذٍ في الحكومة الانكليزية ومن جبانة الشعب الذي مضى لانفاذهِ وبلادتهِ وعجبهِ حتى يمكننا ان نقول انهُ اقام بحروب اسبانيا بنفسهِ وبثبات عزمهِ الذي لم يفارقهُ قط . ولم يكن عليهِ ان يحارب ابطال فرنسا فقط

بل ان يقاوم مجالس اسبانيا والبرتوغال وكان اصعب شيء عليهِ تحصيل القوت والكسوة لجنودهِ . ومما يستحق الذكر ان جنود اسبانيا التي هربت في واقعة تلافرا سرت على امتعة عساكر الانكليز ونهبتها والديوك مع العدو في ساحة النزال فاحتمل هذه البلية وغيرها بصبر وجلد عجيبين . ولما رأى انهُ لم يعد الطعام ياتيهِ من انكلترا ولا يرجى اتيانهُ منها اخذ يتجر بالحنطة وعقد معاهدات مع كثيرين من التجار في لسبون وغيرها وكانت السفن تجلب لهُ الحنطة من اماكن بحر الروم وجنوبي اميركا فملأ مخازنهُ وباع ما فاض للبرتوغاليين الذين كانوا حينئذٍ في احتياج شديد للحنطة فاعدَّ كل شيء واهتم بكل شيء ولم يتكل على الصدف . وكان يهتم بالاشياء الطفيفة ايضاً كالاحذية والقدور والعليق ونحو ذلك وتغلب على اسبانيا بحسن ادارتهِ التي بها جعل رعاع الناس من افضل جنود اوربا تعلماً وتهذيباً وكان مستعداً ان يلقى بهم اقوى جيوش الارض

قد اشرنا سابقاً الى صفة عجيبة فيهِ وهي قدرتهُ على سلخ افكارهِ عن الامور التي في يدهِ مهما كانت مهمة وتوجيهها الى امور بعيدة عنها كل البعد ومن ذلك ما حكاهُ نبير وهو انهُ بينما كان آخذاً في الاستعداد لواقعة سلامنكا كان يكتب الى الوزراء في لندن مبرهناً عدم فائدة الاعتماد على القرض . وحينما كان في ساحة القتال على اعالي سان كريستوفال اثبت عدم امكان انشاء

بنك برتوغالي. ولما كان محاصرًا في حواجز برغس حلل مذهب فنكل في المالية واظهر جهل مَن ارتأى بيع اوقاف الكنائس . والخلاصة انهُ اظهر نفسهُ عارفًا بحقائق هذه الامور مثل معرفتهِ باحوال الحرب

ومما يظهر كونهُ من رجال العمل المستقيمين امانتهُ العظيمة وشرف نفسهِ فان القائد سُلْت الفرنساوي نهب من اسبانيا صورًا عديدة ثمينة جدًّا اما هو فلم يأخذ من اسبانيا ما قيمتهُ فلس واحد وحيثما سار سار على نفقتهِ حتى في ارض العدو . ولما اجتاز تخوم فرنسا تبعهُ اربعون الف اسبانيولي قاصدين الغنيمة فوبخ روساءهم ثم لما قنط من اصلاحهم ردهم الى بلادهم . ومما يستحق العجب ان فلاحي فرنسا كانوا يهربون من وجه جنود بلادهم ويحملون امتعتهم ويأتون يحتمون عند جنود الانكليز . وفي ذلك الوقت نفسهِ كتب ولنتون الى انكلترا يقول قد تراكمت علينا الديون من كل ناحية ولا اجسر على الخروج من بيتي لان عددًا وافرًا من المداينين ينتظرونني خارجًا طالبين وفاء ما لهم عليَّ . قال يوليوس مُرل "ان هذا البطل قد خاف من مداينيهِ وهو يقود عسكرًا جرارًا في بلادهم فلا شيء اعجب من ذلك ولا اشرف منهُ. وهذا الخوف لم يخامر قلب منتصر قط" اما هو فلم يفعل ذلك طمعًا بتخليد ذكرهِ واكتساب المدح بل حسب ان وفاء ديونهِ في ميقاتها من افعل الوسائل لاجراء مقاصدهِ

ومن الامور الجوهرية لنجاح رجال الاعمال الامانة وهي لازمة للصانع لزوم الشجاعة للجندي والمحبة للمسيحي ولا ينجح صانع غير امين وكل الصناع مهما اختلفت صنائعهم لهم باب واسع لاظهار امانتهم. قيل ان رجلاً صناعتهُ استخراج البيرة كان يجول في معملهِ ويذوق البيرة وهي تُعمَل فيقول للصانع زيدوا خميرها لئلاَّ تخرج ضعيفة فاشتهرت بيرتهُ بجودتها في بلدان كثيرة فربح ارباحًا وافرة وصار من الاغنياء العظام. وقال هيو ملر عن البنَّاء الذي تعلم هو منهُ صناعة البناء انهُ كان يوقف امانتهُ امامهُ كلما بنى حجرًا ومن سار بالامانة اشتهر اسمهُ كعرف طيب وراجت بضاعتهُ وافلح واثرى. قال البارون دوبِن لما اراد ان يثبت ان امانة الشعب الانكليزي سبب نجاحهِ "لربما ننجح بالغش والخداع ولكن نجاحنا يكون قصير الاقامة واما اذا عملنا بامانة نجحنا نجاحًا ثابتًا. وحكمة التاجر واقتصادهُ وامانتهُ اقدر على انجاحهِ من نشاطهِ وحذاقتهِ واقدامهِ وحسن بضائعهِ ولو فقد تجارنا وصناعنا الاوصاف الاولى لكسدت بضائعنا في كل الدنيا وارتدت سفائننا عن موانيها بالخسارة والخذلان

ومن المعلوم ان التجارة امتحانًا لامانة الانسان وانكارهِ ذاتهُ واستقامتهِ وصدقهِ والذين يخرجون من بوتقة هذا الامتحان ولا غش فيهم يستحقون اكرامًا نظير اكرام الجنود الذين اثبتوا بسالتهم امام افواه المدافع. ويحق للشعب الانكليزي ان يفتخر بان اكثر

رجاله الذين يمتحنون هذا الامتحان يثبت انهم خالصون كيف لا
واكثرهم يؤتمنون على اموال وافرة وهم لا يملكون الاَّ قسمًا صغيرًا
منها والنقود التي تمر في ايديهم يوميًّا تفوق الاحصاء وقلَّ من
يختلس منها شيئًا. الامانة اشرف الاخلاق اذا لم يرافقها العجب .
واركان الناس بعضهم الى بعض الذي نراهُ كل يوم في اسواقنا
هو اعجب اعمالهم ولو لم نكن قد اعتدنا عليهِ لحسبناهُ من الخوارق .
قال الدكتور تشلمرس ان اركان التجار الى عملائهم وائتمانهم اياهم
على مبالغ كبيرة من المال وهم لم يعرفوهم ولا دخلوا بلادهم افضل
نوع من الاعتبار بل يقرب من الاعتبار الديني . ولكن لا تخلو
قاعدة من شذوذ لان من الناس من يقتادهُ طمعهُ وخيانتهُ الى
تلبيس الباطل بالحق وارتكاب الغش والخداع يغش بضاعةً
باخرى ويجعل وجه البضاعة من نوع وباطنها من نوع آخر الى
غير ذلك من ضروب الغش التي تزيد بازدياد العمران . ولكن
الذين يفعلون ذلك لا يؤمَّل نجاحهم وان نجحوا وكسبوا شيئًا من
المال فكثيرًا ما لا يتمتعون بهِ وعلى كلٍّ يكون اسمهم مرذولًا مهانًا
اما الامناء فقد لا يتقدمون في اول امرهم كالخادعين ولكن
تقدمهم يكون ثابتًا وان كان بطيئًا ولا بد من ان يربحوا كثيرًا في
الآخر وان لم يكن ربحهم الاَّ الاسم الطيب فيهِ الكفاءة لان الاسم
ثروة ومجلبة للغنى والشرف قال الشاعر وردسورث الانكليزي
وانما رجل الدنيا الذي شهدَتْ   لهُ التجارب ان الصدق شيمتهُ

يغار للحق لا قسرًا ولا طمعًا بثروةٍ او بجاهٍ فيهِ رغبتهُ
لكنما المال والجاهُ اختصاصهما بالحازم الندب ان صحت طويتهُ

وليس بين التجار على ما نظن من هو اشهر من داود بركلي الذي يضرب المثل بصدقهِ واستقامتهِ وهو تاجر بقي يتجر زمانًا طويلاً بين انكلترا واميركا ولما انتشبت الحرب بين الانكليز والاميركانيين ساءهُ امرها كثيرًا فعزم على ترك التجارة مطلقًا . وقد اشتهر وهو تاجر بالذكاء والخبرة كما اشتهر بعد ان ترك التجارة بالشهامة وعمل الخير وكان مثلاً للصدق والامانة وسدادة الراي حتى ان الوزراء كانوا يستشيرونهُ في المسائل الكبيرة. ثم لما اعتزل عن التجارة لم يختر عيشة الكسل والترف بل عيشة العمل والتعب في خير الجمهور فاقام دارًا للصناعة انفق عليها النفقات الوافرة فجاءت ملجأً للفقراء ومرقية لشؤونهم. ثم ابتاع ارضًا في جاميكا وعتق عبيدها وثمنهم عشرة آلاف ليرا انكليزية وارسل لهم سفينة نقلتهم الى ولاية من ولايات اميركا فقطنوا فيها ونجحوا نجاحًا عظيمًا رغمًا عن الذين حاولوا اقناعهُ ان العبيد اجهل من ان يستاهلوا العتق. وعوضًا عن ان يترك اموالهُ ليقتسمها ورثاؤهُ بعد موتهِ مدهم بها في حياتهِ . ولم يمت حتى رأى كثيرين منهم راقين قمم النجاح . ولم يزل حتى يومنا هذا رجال اغنياء في انكلترا مصدر نعمتهم روبرت بركلي. فرجل مثل هذا يحق للتجار والصناع ان يفتخروا بهِ ويتخذوهُ مثالاً لهم

الفصل العاشر

في استعمال المال

قال الشاعر برنس ما ترجمتهُ

وما المال للاخفاء في طي حفرةٍ ولا للتباهي بالمواكب والعليا
ولكن ليغني المرء عن مال غيرهِ وهذا قصارى الحرِّ في دارنا الدنيا

وقال شكسبير ما معناهُ

لا استدين ولا ادين فانما الدَّين طريق للخراب

وقال السر باور لتون اياك واحتقار المال لان المال كالصيت

اكتساب المال وحسن القيام بهِ وانفاقهُ تستدعي حكمة وافرة ولا يليق باحد ان يزدري بالمال كما يفعل كثيرون من المدَّعين الفلسفة ولا يحسن ايضًا ان يعتبرهُ كغايتهِ العظمى . والمال اصل لكثير من الفضائل والرذائل فبهِ الكرم والامانة والاستقامة والاحسان والاقتصاد والتدبير وبهِ ايضًا الطمع والبخل والرشوة

ومحبة الذات والاسراف وما احسن ما قالهُ الحريريُّ في مدح الدينار وذمهِ

وكل الناس جديرون بنوال الراحة في هذه الدنيا بشرط ان يستعملوا لذلك وسائط جائزة لانهم اذا نالوا راحتهم المادية تمكنوا من اصلاح شانهم الادبي والقيام بواجباتهم العائلية الا ترى ان الرسول قال ان من لا يعتني باهل بيتهِ شرٌّ من غير المؤمن . وما يستحق الالتفات ايضاً انهُ بمقدار ما يستفيد الانسان من فرصهِ ووسائطهِ يزداد اعتبارهُ في عيون الناس. ومن سار واضعاً نصب عينيهِ اجتناء الفائدة من كل فرصة تقوّت قواهُ العقلية وازدادت ثقتهُ بنفسهِ وتعويلهُ عليها وتملكت فيهِ افضل الصفات المعدّة للنجاح كالاجتهاد والصبر والمواظبة وما اشبه . ومن كان عليهِ ان يهتمّ بغيرهِ ويذخر لمستقبلهِ يصر حريصاً مقتصداً منكرًا على النفس لذاتها . قال جون سترلسن علم رديٌّ يعلم انكار الذات خير من علم جيد يعلم كل شيء الّا انكار الذات . ومنزلة انكار الذات من القوى الادبية منزلة الشجاعة من القوى الجسدية ونريد بانكار الذات تضحية اللذة الحاضرة لاجل نوال الخير المقبل

على الناس الذين يعملون الاعمال الشاقة ان يعتبروا الدراهم اليسيرة التي يربحونها ولكنهم بشرههم في المعيشة يصرفون حالاً ما يصل الى يدهم فيمسون في غاية العوز والاحتياج ومنهم من دخلهُ يكفي لنفقتهِ ويزيد عليها اذا تدبرهُ جيدًا ولكنهُ يتوغل في الاسراف

غير ناظر الى المستقبل فاذا حدث ضيق او انقطع عملهُ امسى في اسوإ حال. قيل تشكّى بعضهم الى اللورد يوحنا روسل من الجزية التي وضعتها الدولة على الفعلة فقال لهُ اللورد يا هذا ان الدولة لا تاخذ من الفعلة ربع ما تاخذهُ منهم المسكرات. واصلاح شان الفقراء مسئلة معضلة لم يهتدِ الناس الى وجهها حتى الآن. ولكنهم مجمعون على ان علاجها تعليم الفقراء الاقتصاد والتدبير. قال صموئيل درو الفيلسوف الاسكاف "الفطنة والاقتصاد والتدبير من خير مصلحات الاحوال وهي تشغل حيزًا صغيرًا من المنزل ولكنها افعل من كل لائحات الاصلاح. ولا اصلاح الَّا اذا اصلح كل امرء نفسهُ وهذا يخالف اميال البشر لانهم اميل الى اصلاح غيرهم من اصلاح نفوسهم" وكل من لا تلبث الدراهم ان تصل الى يدهِ حتى ينفقها يظل في الذل عرضةً لصروف الزمان. قال مستر كبدن "الناس رجلان مقتصد ومسرف اي موسر ومعسر فالبيوت العظيمة والمعامل الوسيعة والسفن الكبيرة والقصور الشاهقة عملها المقتصد الموسر على كتف المسرف المعسر هذه هي شريعة طبيعية وكل من يعد الناس بالتقدم بواسطة الاسراف والكسل فهو كذاب خداع". ويماثل ذلك ما قالهُ مستر برَيت وهو "ليس الَّا سبيل واحد لبقاء الانسان في الحالة التي هو فيها اذا كانت حسنة ولارتقائهِ الى احسن منها اذا كانت رَديئة وهو ممارسة الاجتهاد والاقتصاد والنزاهة والاستقامة هذا هو

السبيل الوحيد للتقدُّم وهذه هي الواسطة التي يتقدَّم الناس بها على الدوام" . وما من مانع يمنع الفقراء عن الجري بحسب ذلك وبالنتيجة عن الارتقاء الى اسمى المراتب وقد ارتقى بعضهم اليها وما كان ممكنًا للبعض فهو ممكن للكل لان الاسباب الواحدة نتائجها واحدة . ولا بد من قوم يعيشون بتعبهم لان ذلك ضروري للهيئة الاجتماعية وهو ترتيب الهي ولكن بقاءهم في الجهل والاحتياج الى الغير ناتج من ضعفهم وطمعهم واعطائهم النفس هواها ولا سيما لان افتقارهم للكدح من الاسباب القوية التي يجب ان تربي فيهم قوة التعويل على النفس التي تكفل بمساواتهم مع مَن هم ارقى منهم شأنًا . قال متانيه "كل انسان حقيق بالجري بموجب قواعد الفلسفة الادبية لانهُ حاوٍ كل شروط الانسانية" وعلى العاقل ان يستعد للقاء ثلاثة . العطلة والمرض والموت اما الاولان ففي طاقتهِ تجنبهما وليس كذلك الثالث ولكنهُ على كل حال يجب ان يعيش عيشة تمكنهُ من مقابلة كل امرٍ من هذه الامور الثلاثة حتى يخلي موازنة ما امكن سواء كانت نتيجتهُ عائدة عليهِ فقط او على عائلتهِ معهُ وبناء على ذلك يكون اكتساب المال بالحق وانفاقهُ بالقصد من اهم الامور لان الاول عنوان الاجتهاد والاستقامة والثاني عنوان سدادة الراي والنظر في العواقب وما المال لسدِّ الحاجات من اكل وكسوة فقط بل هو اساس عزة النفس والاستقلال . والمال المذخور لطوارق الدهر حصن منيع يلتجأُ اليهِ عند الحاجة

فيسد الاحتياج ويزيل الهم الى ان تنقضي ايام الشدّة وتنفتح ابواب الفَرَج وما احسن ما قالهُ احيحة بن الجُلاّح

كلُّ النداء اذا ناديتُ يخذلني

الاَّ ندائي اذا ناديتُ يا مالي

ومن كان غرضهُ ارتقاء المعالي وشمر لهُ ذيل الاجتهاد تعلت همتهُ وتقوت عزيمتهُ فيذلل لهُ الدهر وتمهد امامهُ المصاعب. واما من كان دائمًا على حافة الفاقة فهو عبد وقيدهُ بيد مستخدميهِ يشترطون عليهِ ما شاءوا فيرونهُ اطوع من مطية الركاب. واذا نزلت بهِ طوارق الايام اضطرَّ الى التسول او الموت جوعًا والموت خيرٌ من سوال بخيل. واذا انقطع عملهُ من مكان لا يمكنهُ الرحيل الى مكان آخر لان ليس بيدهِ ما يقوم بنفقة سفرهِ فيتربص في مكانهِ كرهًا متجرعًا غصص الهوان

ومن اراد ان يكون غير مفتقر الى غيرهِ ما عليهِ سوى الاقتصاد والتدبير. وليس الاقتصاد امرًا صعبًا ولا يقتضي قوًى خارقة ولا عقولاً ثاقبة بل هو في طاقة كل انسان(١) وقد اثبت

(١) الاقتصاد لغةً التوسط بين الاسراف والتقتير قال الاصمعي سمعت بعض العرب يقول من اقتصد في الغنى والفقر فقد استعد لنوائب الدهر ويقال اقتصد في انفاق الدراهم فانها لجراح الفاقة مراهم وقال بعضهم

انفق بمقدار ما استفدتَ ولا تسرف وعش عيشَ مقتصدِ

من كانَ فيما استفادَ مقتصدًا لم يفتقر بعدها الى احدِ

السيد المسيح وجوب الاقتصاد بقوله لتلاميذه اجمعوا الكِسَر الفاضلة لكي لا يضيع شيء بعد ان بيّن قدرته على كل شيء ولم يبين اهتمامه بتلك الكسر الطفيفة الا ليعلم الشعب وجوب الاعتناء بكل شيء

ويدخل تحت مفهوم الاقتصاد ترك اللذة الوقتية لاجل احراز الخير المقبل الامر الذي يمتاز به عقل الانسان عن غريزة الحيوان الاعجم. وبين الاقتصاد والتقتير بونٌ شاسع لان المقتصد مستعد دائمًا للكرم ولا يحسب المال معبودًا بل آلةً لقضاء اغراضهِ. ولقد اصاب دين سوفت اذ قال يجب ان نحمل الدراهم في رؤوسنا لا في قلوبنا ويمكننا ان نعدّ الاقتصاد ابنًا للحكمة واخًا للنزاهة وابًا للحرية وحافظًا للصيت والراحة العائلية والنجاح الاهلي وعنوانًا للتعويل على الذات. (قال شبيب بن شبة لبنيهِ ان كنتم تحبون المروّة والفتوة فاصلحوا اموالكم). وقال ابو فرنسيس هونر لابنهِ عند اوّل دخولهِ في العالم انني اود من كل قلبي ان اراك متمتعًا بالراحة والرفاهية ولكن لا يمكني الَّا ان احضك على الاقتصاد وان احتقرهُ بعض سخفاء العقول لانهُ يقود الى الاكتفاء والاكتفاء غاية كل شهم عزيز النفس. والافضل لمن قصد التوفير (جمع الثروة) ان يتوقع نجاحهُ من التقدير لا من الربح الكثير كما قال اللورد باكون لان الفلوس اليسيرة التي نصرفها يوميًا لغير فائدة قد تصير ثروة وافرة تغنينا زمن الاحتياج.

والمسرفون اعداء لماد لنفوسهم ومن لم يكن لنفسهِ صديقًا فكيف ينتظر صداقة الغير. والمقدرون لهم دائمًا ما يساعدون بهِ غيرهم واما المسرفون فلا . على ان التقتير اخو الاسراف والكرم افضل المناقب ومرقاة الفلاح ولا حاجة لتعداد الشواهد على ذلك لانها اكثر من ان تعد

ـــ وعلى كل انسان ان يجتهد لكي يعيش على قدر دخلهِ ولا يمكن ان يكون مستقيمًا الاَّ اذا فعل ذلك لان من لا يقصر نفقته على دخلهِ فهو عائش من دخل غيرهِ ولا يخفى ما بذلك من مخالفة الذمة والدين. ومن كانت هذه الحال حالهُ لا يلبث طويلاً حتى يرى لزوم المال ولكن عند ما يكون قد فات الوقت فياخذ يستدين ويستعير بعد ان يكون قد بذر مالهُ فيغرق في بحر من الدين لاخلاص لهُ منهُ ويفقد صيتهُ وحريتهُ ومروءتهُ . قال المثل "العدل الفارغ لا يستقيم" وهذا حال المديون . ويصعب على المديون ان يتكلم بالصدق لذلك يقال ان الكذب راكب على متن المديون كيف لا ودابةُ تلفيق الاعتذار لدائنهِ لسبب تاخرهِ عن دفع ما لهُ عليهِ فضلاً عن مماطلتهِ اياهُ. وكل احد يستطيع ان يتجنب الدين اوَّل مرَّة ولكن سهولة استدانتهِ في المرَّة الاولى تيسرهُ عليهِ ثانيةً وثالثةً فلا يلبث ان يغرق فيهِ ويمسي عاجزًا عن الوفاء ومن يخطُ الخطوة الاولى في هذا السبيل يتهافت الى هوة لاخلاص لهُ منها كمن يخطو الخطوة الاولى في

الكذب . قال هيدن المصور ان بداية انحطاطي الوقت الذى استعرت فيهِ شيئًا من الدراهم فصدق فيَّ قول المثل العارية عار ووجد في الكتاب الذي كتب فيهِ حوادث حياتهِ الكلام الاتي "هنا ابتدأ ديني الذي لا يمكني ان اتخلص منهُ مدّة الحياة". ومن يطلع على سيرة حياتهِ يرَ مقدار ما يحدثهُ الاحتياج من ضعف العزم وقلق الفكر. قيل طلب منهُ بعض الشبان نصيحة فكتب اليهِ يقول لا تبتع شيئًا لا تستطيع ابتياعهُ بلا اقتراض . ولا تستعر فالعارية عار. وقد ارتأى الدكتور جنصن ان الدين الباكر خراب . وكلامهُ بهذا الشان جدير بالذكر قال لا تعتبر الدين امرًا غير لائق فقط بل مصيبة كبيرة واجتنب الفقر بكل قوتك لان الفقر يمنع عن اعمال البر ويعرض الانسان لشرورٍ كثيرة مادية وادبية وليكن اهتمامك الاول تجنب الدّين والفقر لان الفقر عدو الراحة ومبطل الحرية ومزيل الفضائل ومَن يفتقر الى مساعدة الناس له لا يقدر ان يساعد احدًا

قال بعضهم

عرفتُ صروفَ الدهر كهلاً وناشيًا
وجربتُ حاليهِ على العسر واليسرِ
فلم ارَ بعد الدينِ خيرًا من الغنى
ولم ارَ بعدَ الكفرِ شرًا من الفقرِ

وقال آخر

رزقتُ لبًا ولم أُرزق مروأتهُ وما المروأة الاَّ كثرة المال
اذا اردتُ مساماةً تقيدني عما ينوهُ باسمي رقة الحالِ

وقال آخر

ارى نفسي تتوقُ الى امور يقصر دون مبلغهنَّ مالي

وقال آخر

اذا قلَّ مال المرء قلَّ صديقهُ
ولم يخلُ عن عين الصديق لقاوهُ

وعلى كل احد ان يلتفت الى اعمالهِ بعين التدقيق ويكتب كل ما يربحهُ وكل ما ينفقهُ لان الحكمة تستدعي ان يعرف الانسان مقدار دخلهِ تمامًا ويجعل نفقتهُ اقل منهُ وما من سبيل الى ذلك الاَّ بكتابة الدخل والخرج كما اشار بوحنا لوك. يروى ان ديوك ولنتون الشهير كان يقيد كل دخلهِ ونفقتهِ بالتفصيل. وقال مرَّةً لمستر كليك انني كنت مخولاً وفاء القوائم المطلوبة مني لخادم اركن اليهِ واما الآن فادفعها بيدي واشير على كل واحد ان يقتدي بي. ومن كلامهِ على الدين قولهُ "الدين يستعبد البشر اما انا فلم استدن قط مع انني كنت محتاجًا الى المال مرارًا". ومن الذين كانوا يدققون في هذا الامر مثل ولنتون وشنطون الشهير الذي لم يستصعب ان يتفقد كل شيء في بيتهِ لكي يعيش ضمن دائرة دخلهِ حتى لما كان رئيسًا على الولايات

المتحدة الاميركانية

قال الادميرال جرفس وهو المعروف بأرل سنت فنسنت كان ابي من المتوسطي الحال الاّ ان عائلته كانت كبيرة ولذلك لمّا انطلقت من عنده الى عملي (في البحر) لم يعطني الاّ عشرين ليرة وهذا كل ما اخذته منه من الاول حتى الآخر. الاّ انني بعد برهة من الزمان سحبت عليه سفتجة بمبلغ عشرين ليرة فارجعها اليَّ مقيماً الحجة (برونستو) ولا يخفى كم تكدرت من ذلك الاّ انني حتمت على نفسي ان لا اسحب سفتجة اخرى بدون ان اكون متأكداً انها تقبل حالاً ولما وقت غيرتُ شكل معيشتي وتركتُ رفاقي الذين كنت اتناول الطعام معهم وصرت آكل وحدي واخذت ما سُمح لي به من السفينة فوجدته كافياً وخائضاً وصرت اغسل ثيابي وارفئها بيدي وعملت بعض الاكسية من غشاء فراشي وما زلت على مثل ذلك حتى وفرت قيمة السفتجة المار ذكرها ومن ذلك الوقت حتى الآن لم يزد خرجي على دخلي قط . اه . وقد ارتقى هذا الرجل الى اعلى المراتب باجتهادهِ وتحملهِ ضنك المعيشة بالصبر الجميل

ولقد اصاب مستر هيوم اذ قال ان نسق المعيشة بلندن شائطٌ فلمن المتوسطين ينفقون كل دخلهم او اكثر منه ولا سيما لانهم يرفهون اولادهم ويلبسونهم كالاغنياء حاسبين ذلك شرطاً للكياسة ولكن ما من آفة للكياسة والامانة مثل التظاهر بما ليس في الواقع

فان من لم يكن غنيًّا ولبس ما يوهم الناس انهُ غني لا يفرق عن المزور. أَ ويخجل الانسان ان يظهر بالحال التي وضعهُ الله فيها ارضاءً للزي أَ ولا يرى نتائج التظاهر بالغنى وشرورهُ الطامية على هامة الابرياء فان العالم باسرهِ يئن من اثقالها

لما استعفى السر تشارلس نبير من قيادة الجنود في الهند اقام الحجة على روَساء الجند الشبان على توغلهم في الاسراف والدَّين وقال انهم ليسوا رجالاً لانهم وان كانوا لا يهابون الموت يخافون ان ينكروا على نفوسهم لذاتها ولو تمتعوا بها دَينًا فترى القائد الباسل برافعهُ خاتمهُ لاجل مالٍ استدانهُ منهُ وعجز عن وفائهِ

والشاب الشارع في خوض بحر هذا العالم محاط من كل ناحية بتجارب متنوعة فاذا غلبت عليهِ حطتهُ الى ادنى دركات الهوان واذا جاراها نزعت منهُ قوَّة الدفاع رويدًا رويدًا حتى تجعلهُ غير قادر على تجنبها اصالةً . فعليهِ ان يبتعد عنها اوَّل ما تتصدَّى لهُ غير مبالٍ اذا كانت عواقبها شديدة الضرر ام قليلتهُ بل عليهِ ان لا يقف ويتامل في نتائجها لان التامل في مثل ذلك الحين غير سليم العاقبة ومن سلَّم للتجربة ولو مرةً واحدة ضعف عن مقاومتها . واما من يقاوم التجربة حالما تعرض لهُ يخلص من طائلتها حياتهُ باسرها ثم لا تلبث مقاومتهُ للتجارب ان تصير فيهِ عادة ولا يخفى ان اكثر اعمال الانسان مرجعها الى العادة فمن درَّب نفسهُ على العوائد الحسنة تملكت فيهِ ونجتهُ من مخاطر كثيرة

وسهلت امامهُ سبيل النجاح

اخبر هيوملر انهُ حتم على نفسهِ مرةً بتجنب تجربة واحدة فنجا من اكبر الشرور وذلك انهُ لما كان يعمل في صناعة البنا قُدّمِ لهُ مرةً كاسان من الهوسكي (نوع من المسكرات) فكرعهما وانطلق الى بيتهِ وفتح كتاباً كان يحب المطالعة فيهِ فللحال اخذت الحروف ترقص امام عينيهِ من فعل السكر فشعر بما وصل اليهِ وكيف انهُ لم يعد يملك حواسهُ فختم على نفسهِ من تلك الساعة ان لا يذوق مسكرًا فيما بعد ولا يضحي قواهُ العقلية على مذبح اللذة الوقتية فكان هذا الختم كدفة اداربها سفينتهُ في بحر هذه الحياة نحو المجد والشرف حالما راى الصخر العظيم الذي اصطدمت بهِ سفن كثيرة فتكسرت. وتجربة السكر قائمة في طريق كل شاب وهي من اشد التجارب خطرًا والسعيد من نجا منها . كان من عادة السر ولتر سكوت ان يقول "لا شيء يحط شان الانسان مثل السكر". والسكر آفة الاقتصاد وعدو الاستقامة ومخرب الصحة . والامتناع المطلق عنهُ اسهل من الاعتدال بهِ كما قال الدكتور جنسن

على العاقل ان يتجنب كل خلة ذميمة ولكن لا يليق بهِ ان يقف على هذا الحد بل يجب عليهِ ان يجد في طلب كل منقبة حميدة والوعود والعهود قد تنفع ولو بعض المنفعة ولكن ما من شيء انفع من الاجتهاد على بلوغ اعلى درجات المجد واحراز اسمى المناقب ولا يتم ذلك الاَّ بالسهر ومعرفة الذات والاحتراس من كل زلة

والامتناع عن كل لذة وقتية اذا كانت تمنع خيرًا مقبلاً لان من
لا يقوى على كبح جماح نفسه فالعبد اكثر حرية منه

ولقد أُلِفت كتب كثيرة تدّعي انها تعلم الناس سر اكتساب
الغنى ولكن ليس في ذلك سرٌ لان لغات البشر ملآنة من الامثال
التي تبين ان الاجتهاد باب الغنى مثل من جدَّ وجد ومن سعى
رعى ومن جال نال ومن تأنى نال ما تمنى ومن حرص على الدراهم
اجتمعت عندهُ الدنانير وغير ذلك كثير من الاقوال الحكمية التي
جمعت خلاصة اختبار قرون عديدة وجرت على السنة الناس
قبل تاليف الكتب بزمان مديد . ومع تقادم عهدها لا تزال
توافق اختبارنا وهذا يزيدها ثباتًا. وامثال سليمان مملوة من الحكم
التي تناسب موضوعنا منها المتراخي في عمله اخو المسرف وايضًا
اذهب الى النملة ايها الكسلان تأمل طرقها وكن حكيمًا وايضًا
الكسلان ياتي فقرهُ كساعٍ وعوزهُ كغازٍ وايضًا العامل بيد رخوة
يفتقر اما يد المجتهد بن فتغني وايضًا السكير والمسرف يفتقران
والنوم يكسو الخِرَق وايضًا ارأيت رجلاً مجتهدًا في عمله امام الملوك
يقف . وفوق كل ذلك قنية الحكمة خير من الذهب وقنية الفهم
تختار على الفضة وهي اثمن من اللآلي وكل جواهرك لا تساويها

بالاجتهاد والاقتصاد يقدر كل احدٍ ان يعيش مكتفيًا
ويذخر شيئًا لشيخوخته. وكلٌّ من الصانع والعامل يقدران يدبر
نفقته حتى تمكنه ان يذخر ولو شيئًا يسيرًا. واليسير على توالي الايام

يصير كثيرًا . ومن لم يعد بز اليسير لم ينل الكثير واما من يذخر شيئًا قليلاً كل يوم ويضعهُ في بنك او عند صراف امين فلا تمضي عليهِ سنون كثيرة حتى يرى لهُ سندًا يعتمد عليهِ في طلب الارتقاء وبلتجئ اليهِ وقت الشدة ويصير قادرًا على تعليم اولادهِ والاشتراك بالاعمال النافعة وهذا الامر ممكن لكل واحد ولو كان صانعًا او فاعلًا ودليلهُ ما قيل عن توما ريط المنيشستري الذي كان صانعًا في مسبك وامكنهُ في الوقت نفسهِ اصلاح شان كثيرين من المجرمين المنقضي وقت سجنهم وغيرهم فانهُ حدث امرٌ اقتادهُ الى الاهتمام بهذه القضية التي اشتغلت كلَّ قوى عقلهِ فخصص لها حياتهُ باسرها غير انهُ كان يعمل في مسبك كما تقدم من الصباح حتى المساء فلم يكن لهُ الاَّ دقائق يسيرة من النهار مع ايام الاحاد فخصصها لخدمة هؤلاء المجرمين الذين كان امرهم مهملًا بالكلية في تلك الايام . ومن المؤكد انهُ لم يمضِ عشر سنوات حتى رد اكثر من ثلث مئة منهم الى طريق الاستقامة والراحة وصار يُعَدُّ طبيب السجون الادبي وكان ينجح في الاماكن التي تعجز القسوس وغيرهم وارجع كثيرين من الفتيان والفتيات الضالين الى والديهم وجعلهم يتعاطون اعمالاً مفيدة ولولاهُ لانصلوا الى اقصى دركات الشر . ولم تكن هذه الاعمال سهلة لانها تقتضي مالاً ووقتًا واجتهادًا وحكمةً واستقامةً . ومن العجيب انهُ انقذ كثيرين من الضالين بما كان يذخرهُ من اجرتهِ وكانت اجرتهُ زهيدة لا تزيد على مئة ليرة سنويًّا

ومع ذلك كان يعول عائلتهُ بدرجة معتدلة ويذخر شيئاً من دخلهِ الى زمان الشيخوخة . ويروى انهُ كان يجلس كل اسبوع ويُقسّم دخلهُ على خرجهِ فيعين قسماً للطعام واللباس وقسماً اجرة للبيت الذي كان ساكناً فيهِ وقسماً لمعلم المدرسة وقسماً للفقراء والمحتاجين وبهذه الواسطة امكنهُ ان يعمل ما عملهُ من الخير العظيم. وحياتهُ من اصدق الامثلة لقوة العزم والتدبير ولما يستطيعهُ الانسان باليسير الذي يذخرهُ ولتأثير استقامة الانسان واجتهادهِ في حياة غيرهِ

كل عملٍ محللٍ شريفٌ سواءٌ كان حراثة الارض او عمل الادوات او نسج النسيج او بيع الاثمار ولا عار على الشاب اذا تعاطى هذه الاعمال او ما هو ادنى منها بل اذا حصر افكارهُ ضمن دائرتها الضيقة . قال فلر "لا يخجل من يعمل في حرفة بل من لا يعمل" وقال المطران هُل "حبذا الصنائع ونتائجها" والذين ارتقوا من احتراف الحرف الدنيئة الى مناصب اعلى منها يجب ان لا يستحيوا بل يفتخروا بتغلبهم على المصاعب. قيل سأل بعضهم احد رؤساء اميركا قائلاً ما شعار عائلتكم وكان الرئيس مشقق حطب فقال ردنا قميص (كناية عن صناعة تشقيق الحطب لان المشقق يخلع ثوبهُ فيظهر ردناهُ) وقيل عير بعضهم فلاشيه اسقف نسمس بدناءة اصلهِ لانهُ كان شماعاً فاجابهُ لو ولدتَ في الاحوال التي ولدتُ فيها انا لبقيتَ شماعاً مدى حياتك

وكثيرون يجمعون المال وليس لهم من غاية سوى جمعهِ . فمن كانت هذه غايتهُ وانكبَّ عليها بكليتهِ يندر ان لا ينال مرادهُ والسبيل الى جمع المال سهل جدًّا لانهُ يتم بجعل الخرج اقل من الدخل فان أستر ولد رئيس البنك الباريزي كان في اول امرهِ فقيرًا جدًّا وكان من عادتهِ ان ياتي كل مساء الى بعض الحانات ويشرب شيئًا من البيرا ويلتقط كل ما يجدهُ من الفلين المرمي فجمع في ثماني سنين مقدارًا من الفلين باعهُ بثماني ليرات وهذه الثماني الليرات اساس ثروتهِ الوافرة التي بلغت عند موتهِ ثلاثة ملايين فرنك . ذكر يوحنا فستر مثالاً لتحصيل الغنى بواسطة مثل هذه فقال يروى عن شاب باع ميراثهُ من ابيهِ وصرف ثمنهُ في ارتكاب المعاصي ولما شعر بما داهمهُ من الفاقة الشديدة خرج هائمًا على وجههِ عازمًا ان ينهي حياتهُ التعيسة فوصل وهو سائر الى مكان يشرف على ما حولهُ من الاراضي التي كانت قبلاً ملكًا لهُ فجلس هنيهة يتامل فيها واخيرًا عزم ان يجتهد على استرجاعها فقام ورجع الى المدينة فرأَى عدلاً من الفحم القيت عجلة امام بيت فعرض نفسهُ على اهل البيت لكي ينقلهُ لهم الى داخل فقبلوا واعطوهُ اجرتهُ فطلب منهم شيئًا من الطعام فاعطوهُ فاكلهُ وابقى الاجرة واخذ يعمل في مثل هذا العمل حتى صار معهُ دراهم كثيرة فاشترى بها بعض المواشي وباعها بربح كثير . واستمر يوسع دائرة اعمالهِ حتى صار من الاغنياء فاسترجع املاكهُ وزاد عليها وكان يمكنهُ

ان يعيش مفيدًا لنفسهِ ولغيرهِ ولكنهُ صار شديد البخل فعاش عيشة الذل ومات غير ماسوف عليهِ تطبيقًا لقول من قال

وكل من لا خير منهُ يرتجى ان عاش اومات على حدٍّ سوى

والذخر للبنين وللشيخوخة محمود جدًّا ولكن اذا لم يُقصَد بهِ الاَّ ثراء المال فهو قبيح الى الغاية . ولا يفعل ذلك الاَّ الحمقى او البخلاء . وعلى الحكيم ان يتجنب التطرف في الاقتصاد كل التجنب لان الزائد اخو الناقص ومتى زاد الاقتصاد صار شحًّا بل بخلاً ومن كان مقتصدًا في شبيبتهِ لا يبعد ان يصير بخيلاً في شيخوختهِ فيمسي المحمود مذمومًا . ومحبة المال اصل كل الشرور . محبة المال تعمي البصر وتظلم الفكر وتفسد الاخلاق لذلك قال السر ولتر سكوت ان الفلس يقتل نفوسًا اكثر مما يقتل السيف اجسادًا . ومن الشوائب المعرض لها رجال العمل التي يجب ان يحترسوا منها تضييق افكارهم بل حصرها في موضوع عملهم حتى لا ينظروا الى الغير الاَّ بما يعود الى نفعهم . انزع ورقة من دفاتر هولاء الناس تزهق ارواحهم معها

— والنجاح في ثراء المال يروق لنظر اكثر الناس . والمجتهد الدئب الحاذق العاري من صفات البذخ والاسراف ينال الغنى المادي ولكن قد لا ينال من الغنى الادبي شيئًا بل يبقى جاهلاً خامل الذكر . ومن لا يضع نصب عينيهِ الاَّ الدينار يغتني غالبًا ولكنهُ يبقى من افقر الناس عقلاً وادبًا . لان الانسان

لا يثمن بماله بل كثيرًا ما يكون لمعان الذهب واسطة لاظهار دناءة مالكه كما ان لمعان الحباحب يظهر شكلها الشنيع

واذا التفتنا الى كثيرين من الناس الذين يضحون كل شيء على مذبح المال رأينا ما يذكرنا بجشع طائفة من القرود ذلك ان اهالي المغرب اذا ارادوا مسكها ربطوا يقطينة مجوفة الى شجرة ووضعوا فيها شيئًا من الارز وجعلوا لها ثقبًا يكفي لدخول يد السعدان فارغة فيأتي اليها ليلاً ويدخل يده في ثقبها ويملأ ملئها من الارز فلا يعود قادرًا على اخراجها ولا يترك الارز جهلاً وجشعًا فيتربص في مكانه حتى الصباح فياتون ويقبضون عليه

والناس يعتبرون الغني اكثر مما يحق له لان اكثر الامور العظيمة التي عملت في هذه الدنيا لم يعملها الاغنياء بل الفقراء. ألا ترى ان الديانة المسيحية امتدت في نصف العالم تقريبًا ودعاتها من افقر الناس أولا ترى ان المخترعين والمكتشفين والمصنفين كلهم رجال متوسطو الحال واكثرهم ممن يحصلون خبزهم اليومي بعرق جبينهم نعم هكذا كان وهكذا سيكون. والغنى يصعّب الاعمال اكثر مما يسهلها وكثيرًا ما تكون مضارهُ اكثر من فوائده. فاذا ورث الشاب ثروة وافرة انقاد بها الى حياة الكسل والتراخي اذ ليس ما يدعوهُ الى الاجتهاد فتكرُّ عليه الايام وهو لا يعرف قيمتها ولا يكتسب منها حكمة بل قد يجتهد على التخلص منها باي واسطة كانت. فهو كحيوانٍ حلميّ نامٍ في الهيئة الاجتماعية

يمص من دمها ولا يجد بها نفعًا والتخلص منهُ اسلم . على ان ذوي الثروة المبثوث في قلوبهم روح الانسانية الصحيح يتجنبون الكسل كامرٍ مخل بالمروة وعزة النفس ويشعرون انهم مطالبون بكثير لان وسائطهم كثيرة ويرون انهم مضطرون الى العمل اكثر من غيرهم ولا افضل من الصلاة التي صلاَّها اجور وهي قولهُ لا تعطني فقرًا ولا غنًى اطعمني خبز فريضتي . قيل ان يوسف برذرتُن احد اعضاء البرلمنت امر ان يكتب على ضريحهِ هذه العبارة "لم يقم غنائي بكثرة ثروتي بل بقلة احتياجي" وهذا الرجل ارتقى من ادنى الرتب الى اعلى المناصب فانهُ كان صانعًا في معملٍ فصار من اعضاء البرلمنت المكرمين باستقامتهِ واجتهادهِ ومحافظتهِ على وقتهِ وانكارهِ لنفسهِ . وكان عند ما ينفض البرلمنت يخدم في احدى الكنائس الصغيرة كقس لها والذين يعرفونهُ يشهدون انهُ لم يطلب مدح الناس على ما عملهُ بل قام بكل واجباتهِ اتمامًا لمقتضيات المحبة والذمة والانسانية

لا لوم على من اراد ان يكون غنيًا ليكون مكرمًا بين اقرانهِ الَّا انهُ لا ينال الاكرام حقيقةً الَّا اذا كانت صفاتهُ الادبية تستحقهُ واما اذا جاوز غناهُ قارون ولم يكن ذا اخلاق حميدة فالفقير خير منهُ والفقير العاقل المفيد افضل من الغني الطائف ولو كان مكرمًا بين اقرانهِ . وغاية الانسان العظمى في هذه الحياة القيام بالاعمال التي يطلبها جسدهُ وعقلهُ وضميرهُ وقلبهُ ونفسهُ هذا هو

الغرض العظيم من حياة الانسان وما بقي فوسائط معدة لذلك فليس الناجح من ينال افضل لذة واوفر ثروة واعظم سطوة وابعد شهرة بل من ينال اعظم نصيب من الانسانية ويتمم القدر الاعظم من الاعمال البشرية المفيدة . الغنى قوة ولا يسعنا ان ننكر ذلك ولكن العقل والادب قوتان ايضاً وهما افضل من الغنى بما لا يقدر . كتب اللورد كُلِنْوُد الى صديق له يقول دع الناس يطلبون الارزاق من الدولة فانا لا انحو نحوهم لانني اقدر ان اكون غنياً بتسامي عن الدنايا ولا ارتضي ان اشين خدمتي لوطني بفوائد ذاتية . فاني اعمل في بستاني بيدي واجتزي بالقليل من النفقة عن الكثير . وكتب مرةً اخرى يقول لا ابدل مبادئي بمئة رزق

الثروة تمكن صاحبها من الدخول بين الناس على ما يقال ولكن لا يمكن ان يكون صاحبها معتبرًا منهم ما لم يكن عاقلاً اديباً ذا مناقب حميدة ومن الناس من هم اغنى من قارون في زمانه ولكن لا يلتفت اليهم احد بل الجميع يعتبرونهم كاكياس من الذهب فقط . واما الذين يشار اليهم بالبنان المتقلدون زمام الاحكام وبيدهم الامر والنهي فليسوا من ذوي الثروة ولا يلزم ان يكونوا اغنياء بل ان يكونوا من ذوي الاخلاق الحميدة والآداب والمعارف الوسيعة . والقليل المال المهذب الاخلاق الباذل ما في وسعهِ لنفع البشر يتطلع على الاغنياء الذين ثروتهم في دنانيرهم ولا يحسدهم على شيء منها

الفصل الحادي عشر

في تهذيب الانسان لنفسهِ

وما في ذلك من السهولة والصعوبة

قال كبن . لكل انسان نوعان من التهذيب الواحد ياخذهُ عن غيرهِ والآخر يعطيهِ لنفسهِ والثاني افضلهما

وقال يوحنا هنتر . من توهن المصاعب عزمهُ لا يفلح ومن يتغلب عليها ينجح

وقال رو الشاعر ما معناهُ ان الحكماء واولي العزم يغلبون المصاعب واما الحمقى والبلداء فيعتريهم الرعب حالما ينظرون المشقة والخطر وهم يخلقون المصاعب

قال السر ولترسكت افضل معارف الانسان ما اكتسبهُ بنفسهِ . وكان من عادة السر بنيامين برُودي ان يعجب بهذا الكلام ويفتخر بانهُ لم يدرس على استاذ وذلك يصدق على كل الذين امتازوا في العلوم والفنون لان الانسان لا يتعلم في المدارس الاَّ المبادئ او بالحري علوم المدارس باب يدخلهُ التلميذ ومنهُ

يستطرق باجتهادهِ الى حياض المعارف ومن بلغ هذه الحياض بجدهِ فهو الخليق بورودها ومن اقتيد اليها اقتيادًا كان استقاؤُهُ منها كرهًا . ومن حصل علومهُ بجدهِ فهي ملكهُ وقوى عقلهِ تقوى باستعمالها حتى اذا حل قضية بنفسهِ تأهل لحل قضية اخرى وهلم جرًّا وصار العلم فيهِ ملكة. وافضل ما في الانسان اجتهادهُ لنفسهِ فاذا انتسخ منهُ هذا الاجتهاد لم تنفعهُ الكتب ولا المعلمون ولا الدروس ولا شيء البتة

وافضل المعلمين اقربهم من الاقرار باهمية التهذيب الذاتي واميلهم الى انهاض همة التلميذ لكي يقرع باب جَدّهِ بجدّهِ فتراهم على الدوام يدربون تلاميذهم الى اجتناء ثمار المعرفة بيدهم وبذلك يرفعون شأن التعليم ويحولونهُ من قواعدَ ناشفة ضيقةِ المبحث يراد طبعها في عقول التلامذة الى اصول سامية المطلب تنير عقل التلميذ وتدعوهُ الى البحث والتنقير . وعلى هذا الاسلوب جرى الدكتور ارنلد الذي كان يعلم تلامذتهُ ان يعولوا على نفوسهم ويمارسوا قواهم ولم يكن عملهُ الا تدريبهم وتشجيعهم وانهاض همتهم . ومن قولهِ اذا كان شيء يروق للنظر على وجه هذه الارض فيكون بركة الله على القوى الطبيعية المثقفة بالحق والغيرة . ويروى انهُ لما كان في لَلْهام كان يعلم ولدًا غير نجيب فوبخهُ بصرامة فالتفت الولد اليهِ وقال لهُ على مَ توبخني يا مولاي أؤكد لك انني باذل كل جهدي. فاثر فيهِ هذا الكلام تاثيرًا عميقًا حتى قال بعد زمن

طويل انني لم انسَ ذلك المنظر وتلك الكلمات التي اثرت فيَّ تاثيرًا لا يمحى بكرور الايام

ويظهر من الامثلة المتقدمة في هذا الكتاب عن الناس الذين ارتقوا من الدرجات السفلى وامتازوا في العلوم والفنون ان العمل باليدين لا ينافي تهذيب العقل بل يساعدهُ ويقوي الجسم على احتمالهِ . والعمل للجسد كالعلم للعقل . وافضل الناس من لهُ عمل في اوقات الراحة وراحة في اوقات العمل وكثيرون من الذين هم في غنى عن العمل يعكفون على عملٍ وان لغير الربح او لمجرد التسلية مثل الذين يتولعون بالصيد وركوب الخيل. وقد جرت العادة الآن في مدارس اوربا ان تقام اماكن فسيحة لتمرين الطلبة في انواع مختلفة من اللعب والقصد في ذلك ترويض اعضائهم وتقويتها وتمرينها على الرشاقة وفائدتهُ اعظم من ان توصف. حكي ان ديوك ولنتون نظر مرةً الى ساحة لعب ورأى الاولاد يتمرنون على الالعاب فقال في هذه الساحة فزت بواقعة وطرلو

قال دانيال ملشس لابنهِ وهو في المدرسة العالية اودُّ جدًّا ان اراك مجتهدًا وناجحًا في كل دروسك التي توسع دائرة عقلك ولكنني ارغب ايضًا في ان اراك ناجحًا في اللعب وحركة الاعضاء لان كل معرفة سواءٌ كانت طبيعية او صناعية تلذ العقل وتهذبهُ. ومثل ذلك ما قالهُ جرمي تيلر وهو "تجنب الكسل والبطالة ولا تستعفِ من عملٍ مهما كان شاقًّا لانهُ اذا كان الجسد في راحة

وجدت الشرور اليهِ سبيلاً وما من رجل بطالٍ قوي البنية قدر على مقاومتها . ولا عمل افضل من الاعمال الجسدية لمقاومة الشر" هذا فضلاً عن ان النجاح يتوقف على صحة الجسد اكثر مما يظن لانهُ ما من احد يقدر على مزاولة اعمالهِ اذا كانت صحتهُ منحرفة او ضعيفة. وقد تصيب طلبة العلوم شرور كثيرة من جرى عدم الرياضة الجسدية منها الضجر والياس والخمول واحتقار الحياة والاستنكاف من السير في كل سبيل مطروق وتدعى هذه الصفة في انكلترا بيرُونِز (نسبة الى اللورد بيرُون) وفي جرمانيا ورْتَرِزم (نسبة الى ورتر المشهور في خرافات الغوطيين بكاره الحياة) وقد بيَّن الدكتور كنن ان هذا الداء سارٍ في شبان اميركا بقولهِ ان كثيرين من شباننا يتربون في مدارس الياس . والعلاج الوحيد لهذا المرض العضال الرياضة الجسدية

ثم ان من الناس من يميل طبعًا الى معاطاة الاعمال والحرف وان لم يكن مفتقرًا اليها واذا اخذت هذه القوَّة مفعولها عن صغر ادَّت الى نتائج معتبرة جدًّا. يحكى عن السر اسحق نيوتن المخلد الذكر لما كان في المدرسة لم يكن نجيبًا كغيرهِ من التلامذة وانما كان منكبًّا على استعمال القدوم والمنشار والمطرقة حتى لم يُسمع من مخدعهِ غير صوت هذه الآلات . وكان يقيم كل الفرص يعمل مطاحن هوائية صغيرة ومركبات وآلات مختلفة ولما

تقدَّم في السن صار يتسلى بعمل موائد صغيرة يهديها الى اصدقائهِ .
وسميتُن ووط وستفنسن كان كلٌّ منهم حاذقًا في صغرهِ بعمل
الآلات ولولا ذلك ما ارتقوا الى ما ارتقوا اليهِ بعدئذٍ على ما يظن
وهكذا كان حال كل المخترعين والمكتشفين المتقدم ذكرهم في ما
مضى من هذا الكتاب فانهم كلهم كانوا مشهورين في صباهم
بصناعة اليد . والذين ارتقوا من بين الفعلة وانتظموا في
سلك العلماء وجدوا نتيجة تمرنهم على اعمالهم الاولى في اعمالهم
الاخيرة. قال اليهوبرّت انهُ وجد العمل الجسدي الشاق ضروريًّا
لمداومة اشغالهِ العقلية . وكثيرًا ما كان يترك التدريس في
المدرسة ويرتدي بمئزرهِ الجلدي ويذهب الى مسبك الحديد
ليعمل في حرفتهِ الاولى اي الحدادة لاجل ارجاع صحتهِ الجسدية
والعقلية

واذ تربى الشبان على استعمال الادوات استفادوا صناعة
وتعلموا استعمال ايديهم واعتادوا على الاعمال الصحيَّة وتربَّت
فيهم ملكة محبة العمل وكره البطالة وانغرست فيهم سجية المواظبة .
ونرى هذه الصفات متغلبة على الذين يمارسون اعمال اليد
اكثر مما على غيرهم ولا سبب لذلك الاَّ ما ذكر . وما من ضرر
على الفعلة والصناع سوى انهم يرتبطون باعمالهم الى درجة
تجعلهم يهملون قواهم الادبية . فالموسرون يانفون من الاعمال
ويربون في الجهالة والمعسرون يقتصرون على اعمالهم ولا يتخطونها

الأ ما ندر فيبقون في جهلهم الا انهُ يمكن اجتناب هذين الشرين باتحاد الاعمال الجسدية بالاشغال العقلية او الترويض الجسدي بالتثقيف العقلي وكثيرون في اوربا واميركا قد سلكوا هذا السبيل ونجحوا .

ونجاح طلبة العلم مثل المتفرغين للطب والفقه واللاهوت يتوقف بنوع خاص على صحتهم الجسدية ولقد اجاد بعض الانكليز اذ قال "ان شهرة كثيرين من رجالنا العظام هي عقلية وجسدية معًا" . فان القاضي والحاكم يحتاج كلٌّ منهما الى رئة صحيحة كما الى عقل ثاقب لشدة العلاقة بين الدم والدماغ وما من امرٍ يتعرض لهُ رجال السياسة مثل ضيقة الصدر لانهم يقيمون في المجالس المزدحمة الفاسدة الهواء يتلون الخطب والمباحث المتوقفة على اعضاء الصوت والصدر وقد يتعبون في ذلك اكثر مما باشق الاعمال فعلى رجل السياسة ان يكون ذا قوة جسدية تضاهي قوتهُ العقلية وتزيد عليها وقد تم هذا الشرط في بروَم ولندهرست وكمبل وبيل وكرهم وبلمرستون وغيرهم من واسعي الصدور

يروى ان السر ولتر سكوت لما كان في مدرسة ادنبرج الكلية كان من احذق الناس في الصيد وركوب الخيل ثم لما انكب بعدئذٍ على الانشاء لم يترك هذين الامرين بل استغنم كل فرصة للخروج الى صيد الارانب فتمكن من مداومة اشغالهِ العقلية

كما تقدَّم عنهُ. والاستاذ ولسن كان ماهرًا بالمصارعة كما كان ماهرًا بالنظم والنثر وبرنس الشاعر كان مشهورًا في صغره بالمصارعة وبعض المشهورين بعلم اللاهوت اشتهروا في صغرهم بقوتهم الجسدية مثل اسحق برو واندراوس فُلَّر وادم كلرك وغيرهم

واذا كان ترويض الجسد ضروريًّا لطلبة العلم فكم بالحري ترويض العقل وتقويتهُ على الانصباب على اشغالهِ. وسبيل المعرفة مفتوح لكل من اراد السير فيهِ بشرط ان يبذل جهدهُ واجتهادهُ وليس فيهِ صعوبة لا يمكن للانسان الحازم ان يتغلب عليها. قال تشترتن ان الله خلق الانسان بذراعين تصلان الى كل ما تمدان اليهِ. والاجتهاد اس النجاح في العلم وفي العمل ولا يكفي تطريق الحديد ما دام حاميًا بل يجب تطريقهُ حتى يحمى. واذا التفتنا الى ما يستفيدهُ المجتهدون والمواظبون من تهذيبهم لذواتهم باستغنامهم كل فرصة وكل دقيقة مما يضيعها غيرهم سدًى انذهلنا من ذلك كل الانذهال. فان فرغوسن تعلم علم الهيئة وهو مرتدٍ بجلود الغنم على رؤوس التلال. وستون تعلم الرياضيات وهو يعمل في البستان ودرو درس الفلسفة وهو يعمل السكافة وملر تعلم الجيولوجيا وهو يعمل في المقالع

رأينا في ما مضى ان السر يوشيا رينلدس كان يركن الى فعل الاجتهاد كل الاركان قال ان كل الناس يمكنهم ان يشتهروا في اي امرٍ ارادوهُ بشرط ان يلازموا ذلك الامر بالاجتهاد

والصبر وقال ايضًا ان التعب طريق الموهبة وان لاحدَّ للتقدم فيمكن للانسان ان يتقدَّم الى اي درجة ارادها ولم يعتقد بالمواهب. بل علّق كل شيء على الاجتهاد فمن جملة اقوالهِ الحكمية "الشهرة ثمرة الاجتهاد . واذا كانت القوى عظيمة فالاجتهاد يحسنها وان كانت ضعيفة فالاجتهاد يجبر نقصها . ومن تعب على تحصيل امرٍ بطريقهِ حصلهُ ولا يحصّل شيءٌ بلا تعب" والسر فُوَل بكستن كان يعتقد بفاعلية الاجتهاد ويقول انهُ قادر ان يحصل كل ما حصلهُ غيرهُ بشرط ان يتعب على تحصيلهِ ضعف ما تعب ذاك وكانت كل ثقتهِ بوسائطهِ الاعتيادية واتعابهِ النادرة المثال . قال الدكتور رُس "اعرف كثيرين من معاصريَّ الذين سيعدون في الازمنة المقبلة من اصحاب المواهب وهم الآن يتعبون تعبًا جزيلاً في عمل كل ما يعملونهُ . ولا تُعرَف الموهبة الاَّ بالعمل وهي بدونهِ ميتة . والاعمال العظيمة نتيجة التعب والمزاولة ولا يمكن ان تتم بمجرَّد القصد او الميل . وكل عمل عظيم هو نتيجة استعداد طويل والسهولة في الاعمال تصدر عن التعب الدائم ولا شيء سهل الاَّ كان صعبًا في اول امرهِ حتى المشي . والخطيب المفلق الذي عيناهُ تقدحان شررًا وشفتاهُ تدفقان البلاغة وكلامهُ بحر من الحكمة والفهم قد تعلم سر هذه الصناعة بالدرس والتكرار الدائم بعد ان خاب مرارًا كثيرة"

وعلى كل طالب علم ان يكون مدققًا محققًا في كل شيء

يدرسهُ يروى ان فرنسيس هُرنر لما وضع قواعد لتثقيف عقلهِ اعتنى كثيرًا بالانعكاف على موضوع واحد حتى يتقنهُ جيدًا قبل ان ينتقل الى غيرهِ ولذلك حصر دروسهُ في كتب قليلة وقاوم بشدَّة صفة الانتقال من درس قبل اتقانهِ. ولا تقوم المعرفة بالمقدار الذي يحصلهُ الانسان منها بل بالمنافع التي يجتنيها من المعرفة ولذلك تفضل المعرفة القليلة العميقة على الكثيرة الرقيقة. قال اغناطيوس لويولا "من لا يفعل جيدًا عملًا واحدًا في وقت واحد يفعل كثيرًا". واما من بسط قوتهُ على سطح متسع اضعف تاثيرها وتعذَّر نجاحهُ. اخبر اللورد سنت ليونردس السر فول بكستن بالطريقة التي جرى عليها في دروسهِ فكانت سر نجاحهِ بقولهِ عزمت عند ما شرعت في درس الفقه ان لا اترك مسئلة حتى اتقنها جيدًا. وكثيرون من اقراني كانوا يقرأُون في يوم واحد ما اقرأُهُ انا في اسبوع ولكن عند نهاية السنة كانت دروسي في ذاكرتي مثل يوم درستها واما دروسهم فتذهب من عقولهم ذهاب الايام

ولا يصير الانسان حكيمًا بكثرة الدروس بل بتطبيقها على الغاية التي درست لاجلها وحصر العقل في موضوع الدرس حتى يصير ملكة فيهِ. قال ابرنثي ان في عقلهِ قابلية الى درجة معلومة فاذا ادخل اليهِ اكثر مما يحتمل دفع ما فاض عنهُ الى الخارج وقال مرَّةً اخرى ان من يعلم جيدًا ما يرغب فيهِ قلما يخيب في

تحصيل الوسائط اللازمة لبلوغهِ

وافضل الدروس واكثرها فائدة ما كانت غايتهُ محدودة . ومن اتقن فرعًا من العلوم اتقانًا كاملاً استفاد منهُ في كل حين فلا يكفي الاقتصار على الكتب ومعرفة مواضيعها والرجوع اليها عند الاحتياج لان من كان علمهُ في كتابهِ كان خطاهُ اكثر من صوابهِ. بل على العالم العامل ان يستصحب علمهُ في كل آين وآن والاَّ فلا يعد عالمًا لانهُ ما المنفعة اذا كان للانسان بدرة من المال وليس في يدهِ فلس

وعلى من شاء ان يهذب نفسهُ ان يكون حازمًا ندبًا وهاتان الصفتان تقويان بترك الشبان يعتمدون على نفوسهم واعطائهم كل ما يمكن من الحرية . اما الارشاد والتدريب فالزيادة منها تضر كثيرًا لانها تصرف الشاب عن الاعتماد على نفسهِ . وقلة ثقة الانسان بنفسهِ مانع قوي من موانع التقدم ولا نعني بالثقة الاستبداد بالراي ولا الخيلاء لان كثيرين يثقون بنفوسهم وليس فيهم شيء لا يوثق بهِ ومع ذلك فلا شيء يعيق النجاح ويمنعهُ اكثر من فتور الهمة وضعف العزم وقلة الحزم. وعدم تقدم الاكثرين ناتج من عدم محاولتهم التقدم . وكل احد يرغب في تثقيف عقلهِ ولكن الاكثرين ينفرون من التعب الذي لا بد منهُ للحصول على ذلك. والجميع يرومون ادراك المعالي رخيصةً ناسين ان لا بد دون الشهد من ابر النحلِ . قال الدكتور جنصن ان عدم الجلَد على

الدرس من امراض الجيل الحاضر العقلية وما صدق على جيله يصدق على جيلنا هذا . لا سكة سلطانية لنوال العلم ولكن له سكة مطروقة ومع ذلك ترى الجميع يتوخون اخصر الطرق واقلها تعبًا فيرغبون في ان يتعلموا لغة في برهة قصيرة وعلى غير استاذ او كما يقال عن احدى السيدات انها طلبت من معلم ان يدرسها لغةً ولكنها اشترطت عليهِ ان لا يعلمها شيئًا من الاسماء والافعال. وعلى هذا المنوال يتعلم كثيرون ما لا يستحق ان يسمى رسم العلم. ألا ترى ان كثيرين يدرسون الكيميا باستماعهم بعض الخطب فيها ونظرهم الى بعض الاستحضارات والامتحانات وهذا وان يكن افضل من لا شيء لا يفيد شيئًا. وكثيرون يظنون انهم آخذون في تعلم العلوم وما هم غير متسلين تسليًا لان ما لا يحصل بالدرس والتعب لا يستحق ان يدعى علمًا لانهُ وان اشغل العقل فلا يغنيهِ وان نجحت منهُ نتائج وقتية لا يرتجى منهُ كبير فائدة وما هو الاَّ تأثير وقتي زائل ولذة حسية غير عقلية توقع سباتًا عميقًا على افضل العقول واكثرها اجتهادًا حتى لا تنتبه الاَّ اذا اصابتها مصيبة باغتة

واكثر الشبان يطلبون اللهو تحت رداء طلب العلم فلا يسلمون بعلم يستدعي تعبًا وكدًا وبما انهم يحصلون العلم في ميدان اللعب واللهو يكون علمهم لعبًا ولهوًا ولابد من انهم يجتنون ثمر تهاونهم الذي هو ضعف عقولهم وتعطيل اسمهم . قال روبرتصن البريتوني ان درس دروس مختلفة في وقت واحد يضعف العقل

ويجعله عقيمًا . وهذا الشر عظيم الى الغاية وله درجات مختلفة فاقلها ضررًا عدم التعمق والتضلع واكثرها اذى النفور من كل ما يقتضي تحصيلهِ تعبًا وعناء ثم خمول الذهن . وعلى طالب الحكمة الحقيقية ان ينكب بكليتهِ عليها لان التعب ثمن لكل ثمين فيجب ان يكد ويتعب واضعًا نصب عينيهِ غرض تعبهِ ومتوقعًا نوالهُ بالصبر الجميل . والنجاح بطيء الحصول ولكن من يتعب بامانة وغيرة ينل اجرهُ في الوقت المناسب.ومن كانت حياتهُ حياة الاجتهاد يقوى على مد سلطتهِ الى من حولهُ واحراز المجد لنفسهِ والنفع للبشر. وليس للتهذيب من حد يوقف عليهِ بل على الانسان ان يواظب على تهذيب نفسهِ ما دام حيًا لان ذلك ضروري لكل انسان بل بهِ تقوم سعادة الانسان كما قال الشاعر كراي والراحة وقت طويل بعد الموت كما قال ارنلد

والانسان يستحق الاكرام والاعتبار بمقدار استعمالهِ القوى التي منحهُ اياها الباري . ومن استعمل وزنتهُ حق الاستعمال يعتبر مثل من اعطي عشر وزنات . ولا يعتبر من كانت قواهُ العقلية عظيمة الا كمن كان ميراثهُ من ابيهِ عظيمًا فاذا استعمل هذا قواهُ وذاك املاكهُ حق الاستعمال اعتبرا والاَّ فلا. وقد يتضمن العقل خزائن وافرة من العلم ولكنها تكون بلا منفعة لانهُ اذا لم يرتبط العلم بالفضل والحكمة والاستقامة لم يحسب شيئًا. قال بستالوزي ان العلم العقلي المجرد مضر الى الغاية وارتأى انهُ يلزم ان تنغرس

اصول المعرفة في تربة الارادة المستقيمة وتغتذي منها . وقد يحفظ العلم صاحبهُ من ارتكاب الفواحش والتمرغ في الدنايا ولكن لا يحفظهُ من الافتخار ومحبة الذات ما لم يحصّن بالمبادىء الصحيحة والعوائد الحميدة لذلك نرى كثيرين من اصحاب العقول الكبيرة المملوءة من العلم والمعرفة فاسدي السيرة وعارين من الحكمة الحقيقية وهم مثال للتحذر منهم لا للاقتداء بهم . ومن الاقوال الجارية على السنة الناس في هذه الايام ان العلم قوة ولكن التعصب قوة والظلم قوة والطمع قوة. والعلم اذا لم يصاحب بالحكمة قوّى الاشرار على الشر بل قد يزيد شرهُ حتى تصير محافلهُ مثل محافل الابالسة

ولعلنا حتى يومنا هذا نغالي في اهمية التهذيب العلمي . واكثرنا يخال اننا بلغنا درجة سامية من النجاح لان عندنا مكاتب واسعة ومدارس عديدة ولكن كثيرًا ما تكون التسهيلات موانع تصد كثيرين عن اكتساب العلم لان نسبة العلم الى المكاتب نسبة الكَرَم الى الغنى فان كان الغنى ينتج الكرم ضرورة فالمكاتب تنتج العلم. لا ريب ان التسهيلات الآن عديدة ولكن الحكمة والفهم لا ينالان الّا بعد السير اليهما على سبيل الملاحظة والتمعن والمواظبة والاجتهاد . والمعرفة شيء والحكمة آخر والحكمة لا تنال بقراءة الكتب لان الكتب تقتصر غالبًا على اقتباس افكار الغير وليس لها عظيم تاثير في العقل . وكثير من الدروس مثل شرب المسكر يطرب العقل برهة ولكنهُ لا يفعل شيئًا في تثقيفهِ . ولذلك نرى

كثيرين يخدعون بانهم آخذون في تهذيب عقولهم وهم مشتغلون باضاعة الوقت وجهد ما يقال عنهم انهم ملتهون بذلك عن فعل ما هو اقبح منهُ

ويجب ان لا ننسى ان كل ما يستفاد من الكتب من الاختبار هو من نوع التعلم واما الاختبار الشخصي فهو من نوع الحكمة وقليل من الثاني خير من كثير من الاول . ولقد اجاد اللورد بولنبروك اذ قال ان كل علم لا يرفع شان الانسان هو نوع من الكسل وكل ما يكتسب منهُ انما هو جهل. ومطالعة الكتب وان كانت مفيدة ومهذبة هي دون الاختبار من اوجه كثيرة. فقد كان في البلاد الانكليزية رجال حكماء اشداء العزم سديدو الراي قبل انتشار الكتب. وكان في كل امة رجال حكماء لا نظير لهم في هذا العصر وكلهم حصلوا ما حصلوا باختبارهم. فان البراءة العظمى التي للشعب الانكليزي امضاها قوم لا يعرفون الكتابة فامضوها بالعلامات واسسوا حرية الانكليز وهم يجهلون القراءة والكتابة. ومن المسلم ان التهذيب لا يقوم باملاء العقل من افكار الغير بل بتوسيع المعرفة الشخصية والاقدام في اتمام واجبات الحياة . واكثر مشاهيرنا (اي مشاهير الانكليز) كانوا من قليلي المطالعة فان برندلي وستفنصن لم يتعلما القراءة حتى صارا رجلين ومع ذلك عملا اعمالاً عظيمة تعجز عنها فحول العلماء. وحياتهما انفع من حياة الوف من العلماء. ويوحنا هنتر بلغ العشرين من العمر قبلما تعلم القراءة ولا

والامر المعتبر في العلم هو غايتهُ لا مقدارهُ فيجب ان تكون غاية العلم تحصيل الحكمة واصلاح الصيت لكي يصير الانسان بهِ افضل مما كان واسعد وافيد واكرم وانشط. واذا تقدم الناس ماديًّا واهملوا تقدمهم الادبي ركبوا جادَّة الانحطاط . وعلى كل عاقلٍ ان لا يكتفي بالتامل في ما فعلهُ غيرهُ بل ان يفعلهُ بنفسهِ وان يرفع شان نفسهِ بيدهِ بالوسائط التي خولتهِ اياها العناية الالهية

وتدريب الانسان لنفسهِ وضبطهُ لها اساسان للحكمة العملية ويجب ان يتخللها اعتبار الذات الذي يصدر عنهُ الامل رفيق القوة وابو النجاح لان من كان املهُ وطيدًا قدر على عمل الغرائب. واعتبار الانسان لنفسهِ وتدريبهُ اياها من اعظم واجبات هذه الحياة لان الله سبحانهُ وتعالى يطلب منا ان نعتبر اجسادنا وعقولنا وقوانا . وارتباطنا بالبشر يطلب منا ذلك ايضًا . بل ان قوانا نفسها تستدعي ان نعطيها حقها اللازم من الاهتمام. فعلينا ان ننقض ما فينا من الشر ونبني عوضًا عنهُ الخير. وكما انهُ علينا ان نعتبر نفوسنا كذلك علينا ان نعتبر الآخرين وعليهم ان يعتبرونا ومن ثم ينتج الاعتبار المتبادل والعدل وينتفي كل ما يخل بالراحة العمومية

واعتبار الذات من افضل ما يتجلبب بهِ الانسان ويتحلى بهِ عقلهُ . نصح فيثاغورس لتلميذهِ ان يكرم نفسهُ لان مَن فعل ذلك

نزه جسدهُ عن الخسائس وعقلهُ عن الدنايا

والمنايا ولا الدنايا وخيرٌ   من ركوب الخنا ركوب الجنازه

وهذه الصفة اصل لكل الفضائل فهي اصل للطهارة والعفة والتعقل والتقوى والديانة . قال ملتن ان اكرام الذات الصحيح ينبوع ينبثق منهُ كل عمل صالح محمود . ومن لم يعتبر نفسهُ احتقرها وامسى محتقرًا في عيني الغير . ومن كان دابهُ الذل لا يفلح . واما من كان يعتبر ذاتهُ ترى وجههُ متهللاً ولو كان مكتنفًا بالفقر . ولا يسلم لتجربة ولا يرتكب دنيئة

الاّ ان العلم اذا اعتبر واسطة للتقدم فقط ضاع فيهِ الزمان والتعب . على انّا لا ننكر ان العقل المثقف يعين على التقدم ولا تقدم بدونهِ . وقد لا ينتهي العلم بالشهرة لانهُ على الفريق الاكبر من الناس ان يتعاطوا الاعمال ومهما ازدادوا تثقفًا وتهذبًا لا يتخلصون من الاعمال الشاقة . ولكن لا سبيل لاصلاح ذلك الاّ برفع شأن العمل بتوجيهه الى الاغراض المجيدة التي تشرف العمل الدنيء والسامي . ومهما كان الانسان فقيرًا ووضيعًا اذا فعل ذلك كان خليقًا ان يعاشر اكثر العلماء فضلاً واسماهم عقلاً وابعدهم صيتًا . وهكذا نرى ان الدرس المبني على اسس صحيحة يصير مصدرًا للذة عظيمة ومنشأً لنتائج مجيدة ومصلحًا للسيرة والسريرة . وان كان الناس المهذبون في شك من نوال الغنى فهم على يقين من الحصول على الافكار السامية . قيل سال بعضهم فيلسوفًا ماذا كسبت

بكل فلسفتك فاجابهُ كسبت من نفسي رفيقًا لي

— ولكنّ كثيرين ييأسون وتخور قواهم وهم آخذون في تثقيف عقولهم لانهم لا ينجحون في العالم بسرعة كما يظنون انهم مستحقون . ولعلهم ظنوا المعرفة بضاعة رائجة فخاب املهم . اخبر مستر ترنهير عن معلم مدرسة تركهُ تلامذتهُ وعب الفحص عن السبب وجد ان اكثر الوالدين اخرجوا اولادهم لانهم ظنوا ان التعليم يصلحهم حالاً واذ لم يتم ذلك اخرجوهم واهملوا امر تعليمهم . وكثيرون يحطون قيمة العلم اما بجعلهِ واسطة للسبق في الدنيا كما ذكر او سبيلاً للهو والتسلي لكن اسمع ماذا قال باكون الشهير قال ليس العلم حانوتًا للبيع والكسب بل مخزنًا بضاعتهُ تمجيد الخالق وخير المخلوق ولا ريب في انهُ يليق بالانسان ان يتعب ويجتهد على التقدم في الدنيا ولكن لا يحق لهُ ان يضحي نفسهُ لاجل ذلك . ولا اجهل ممن يجعل عقلهُ عبدًا لجسدهِ او آلةً لهُ ثم ياخذ يندب سوء حظهِ لانهُ لم ينجح النجاح المطلوب هذا فضلاً عن ان النجاح لا يتوقف على العلم بل على القيام الواجب بالاعمال ومن كان هذا الحال حالهُ يناسبهُ ما قالهُ روبرت سوثي لرجل طلب منهُ النصح فكتب اليهِ يقول يحدث كثيرًا ان يغضب الحكيم على العالم ويحزن بهِ ولكنهُ لا يتذمر منهُ قط اذا كان قائمًا بواجباتهِ . فاذا وجد عالم صحتهُ جيدة ولهُ عينان ورجلان ويدان ووقت ومع ذلك يحتاج الى شيء يكون الله سبحانهُ وتعالى قد وهب هذه البركات لرجل لا يستحقها

وهناك سبيل آخر يحط شان العلم وهو استعماله لمجرد اللهو والتسلية العقلية وهذا الامر شائع في عصرنا واتباعه لا يحصون . ألا ترى الكتب والجرائد قد انشحنت من كل سخيف وركيك لكي توافق ذوق الجمهور . حتى متى لا ينتبه الناس من رقادهم بل من جنونهم هذا حتى متى يميلون الى الهزل والسخافة والركاكة وما لا طائل تحته وما لا يصدقه عاقل ولا جاهل ألا يعلمون ان ذلك يفسد الذوق السليم . قد ذكرنا الكتب والجرائد ولكن ما قولكم في الروايات والفكاهات . ورب معترض يقول قد يكون في هذه شيء من الحكم ولكن يا صاح اي منفعة لدرهم من الدسم في رطل من السم . على ان من القصص ما هو فصيح العبارة بليغ المعنى حتى اذا تصفحه الذين اشغالهم شاقة في اوقات الراحة وجدوا فيه لذة عقلية عظيمة . وجميع الناس كبارًا وصغارًا لهم ميل غريزي للتفكه بمثل ذلك ولا يحسن ان يحرموا هذه اللذة اذا استعملوها الى حدٍّ موافق ولكن من جعل ذلك طعامه وشرابه اضاع وقته وافسد ذوقه وقد يفسد آدابه هذا فضلاً عن انه لا يرجى من قراءة هذه القصص كبير فائدة لان التاثير الذي تؤثره وقتي زائل وقد يعتاد الانسان عليه حتى لا يصدق منها شيئًا ولا يتاثر بها قط

واللهو مفيد احيانًا ولكنه كثيرًا ما يفسد الاخلاق فيجب ان يحترس منه غاية الاحتراس . نعم انه يقال في المثل من اشتغل دائمًا ولم يلعب صار بليدًا ولكن من لم يشتغل قط صار شرًّا من البليد

ولا شيء اضر بالشبان من الانهماك في الملاهي لانهُ يفسد عقولهم ويفتح بابًا للتهور في كل نوع من القبائح . ثم اذا دعتهم الاحوال الى معاطاة الاعمال شعروا بكره شديد لها فيعدمون قوى الحياة وتنضب في وجوههم ينابيع السعادة ويخسرون اسمهم وجسمهم وما من حالة اتعس من حالة الشاب الذي اضاع شبابهُ في التنعم والانهماك في اللذات . قال ميرابو عن نفسهِ ان ايام حداثتي قد عطلت كثيرًا من قواي . ولا بد من ان خطايا الشبيبة تضر بالشيخوخة

كان بنيامين كنستان من اعظم رجال فرنسا عقلاً ولكنهُ لم يبلغ العشرين من العمر حتى انفسد ولذلك صارت بقية حياتهِ سلسلة من الشقاء عوضًا عن ان تكون كنزًا من الخير وما ذلك الاّ لانهُ اهمل الاجتهاد وغلبة النفس ولا يخفى ان هذين الامرين كانا بوسعهِ كما انهما بوسع كل واحد . ويقال انهُ عزم على اتمام اعمال كثيرة ولكنهُ كان عديم الحزم فلم يتم شيئًا منها ولذلك دعاهُ الناس كنستان المتقلب . وكان هذا الرجل سريع الخاطر قوي القريحة وكتاباتهُ من الطراز الاوّل ولكنهُ كان يشغل عقلهُ في اسمى المواضيع ويمارس ادنى الاعمال حتى ان سمو تآليفهِ لا يكفر عن دناءة حياتهِ . فانهُ كان يقامر (يلعب بالقمار) عند ما كان يكتب في الديانة بل تعاطى ما هو اقبح من ذلك. وكان مع كل قواهُ العقلية كمن لا قوة لهُ لانهُ لم يعتبر الفضيلة ولا العفة وقال

ذات مرةٍ ما هو الشرف والمجد لانني بمقدار ما اتقدم في السن ارى بطلها وقال مرةً اخرى انما انا تراب ورماد وامرّ على الارض كظل زائل مصحوبًا بالشقاء وانكساف البال . وتمنى لو كان لهُ نشاط فُلْتَر عوضًا عن كل مواهبهِ الطبيعية . وبما انهُ كان كثير التمني عديم الحزم انقضت حياتهُ بغير نفع . وقد شبه نفسهُ مرة برجل ذي رجلٍ واحدة واقرّ بانهُ خالٍ من الآداب . وبعد ان عاش سنين عديدة بالتعاسة والشقاء مات ميتة الذل والهوان

اما حياة اغسطينوس ثيري مؤلف تاريخ الغلبة النرمندية فمعاكسة لحياة كنسثان على خط مستقيم لانها كانت مؤلفة من المواظبة والاجتهاد وتثقيف الذات والحرص على طلب الحكمة ومن شدة انصبابهِ على الدرس فقد بصرهُ وصحتهُ ولكنهُ لم يفقد محبتهُ للعلم وهاك ما قالهُ في آخر حياتهِ "اذا عدّت فوائد العلم من الفوائد الوطنية اكون قد صنعت لبلادي ما صنعهُ الجندي الدامي في حومة القتال . وآمل ان ابقى مثالاً لغيري في هذا الامر مهما كانت نتيجة اتعابي مثالاً يعين على مقاومة الضعف الادبي الذي هو داء الجيل الحاضر ويرد الى جادة الحياة كثيرين من خائري القوى الذين يتشكون من عدم الثقة ولا يعلمون ما يفعلون بل يلتمسون في كل مكان امرًا يحترمونهُ ويعبدونهُ ولا يجدون . وعلامَ يقال ان بلاد الله ضيقة بسكانها وانهُ لا هواء بها يكفي لتنفس الجميع ولا اعمال تكفي للجميع أفليس فيها مدرسة هادئة

للدرس والتامل أَ وليس ذلك ملجأً ميسورًا لكل انسان . هناك تنقضي ايام الشر ولا يشعر بها وهناك يمكن لكل انسان ان ينال غايتهُ ويصرف حياتهُ . وهذا قد عملتهُ ولو أُبدئتُ ثانيةً لعملتهُ ايضًا ولااختار الاَّ ما اوصلني الى ما انا عليهِ الآن . ومع انني اعمي وآلامي لاتنقطع اشهد ان في العالم شيئًا الذ من كل اللذات الحسية واشرف من الغنى وافضل من الصحة وهو اتباع الحكمة"

ومن الذين يشبهون كنستان كُلرِدْج الذي كان ذا مواهب سامية الاَّ انهُ ضعيف العزم . ومع كل مواهبهِ العقلية كان فاقدًا موهبة الاجتهاد بل عدوًّا للعمل . وفضلاً عن ذلك كان فاقدًا محبة الاستقلال فلم يستكنف ان يترك امرأتهُ واولادهُ على سَوْذِي الذي كان يشتغل بكل جهدهِ لكي يعولهم واما هو فاعتزل مع تلامذتهِ الى غابة هاي كات وكان يتطلع على الدخان الخارج من معامل لندن بكرهٍ واحتقار للاعمال الجارية فيها . ثم تعاطى اعمالاً رفعت اثقالهُ عن غيرهِ ولكنهُ تواطى الى امور كثيرة يانف منها احقر الناس مع ما كان عليهِ من سمو الحكمة . ولكن كان سوذي مخالفًا له لانهُ صرف حياتهُ في العمل والاجتهاد حتى في اعمالٍ لاتوافق ذوقهُ مالئًا عقلهُ بكنوز الحكمة الثمينة وعاش بالسعة من شق قلمهِ الضيق

كتب روبرت نيكول لاحد اصحابهِ بعد ان قرأ امالي كُلرِدْج يقول يا لهُ من عقل ثاقب ضاع في هذا الانسان لاجل

احتياجهِ الى قليل من الاجتهاد والحزم . اما نيكول هذا فمات يافعًا ولكنهُ كان ممن تعقد لهم الخناصر ويشار اليهم بالبنان ولم يمت حتى تغلب على كثير من مشاق الحياة . ولما كان يتعاطى بيع الكتب وجد مرةً نفسهُ مديونًا بعشرين ليرا فكان يشعر كأن عنقهُ مطوق بحجر رحى كما شهد من فيهِ وعزم انهُ بعد ان يفيها لا يستدين قط من مخلوق ونحو ذلك الوقت كتب الى امهِ يقول لا ينشغل بالك من نحوي ايتها الام الحنونة لان همتي تزيد يومًا فيومًا واملي يقوى وكلما افتكر وأتامل ارى انني متقدم في الحكمة فلذلك لا يهمني صرتُ غنيًّا ام بقيت فقيرًا . والتعب والفقر وغيرهما من بلايا الحياة التي لا يستطاع عليها صبرًا اقابلها بالصبر الجميل والاتكال على العناية . وهذه خطة تقتضي تعبًا جزيلاً للحصول عليها ولكن من نالها يمكنهُ ان يلتفت الى ما وراءهُ كسائح يتطلع على تيارات البحر الخضم وهو ماشٍ على الارض اليابسة. ولا اقول اني بلغت هذه الدرجة ولكني اشعر في نفسي اني آخذ في الاقتراب منها

فالمتاعب والمشاق تصيّر الناس رجالاً او كما قال ارسطو بالصبر على مضض السياسة ينال شرف الرياسة . ولا منصب في هذه الحياة الاَّ وهو محفوف بالمتاعب حتى لا يرتقي اليهِ الاَّ من تغلَّب عليها والمتاعب تربي فوق تربية الاب كما ان الخطا يقود الى الصواب . كان من عادة تشرلس جمس فكس ان يقول

ان رجائي في من لم ينجح في بادىء امرهِ اقوى منهُ في من نجح . فالشاب الذي ينجح في اول خطاب يلقيهِ تقتادهُ حلاوة الظفر غالبًا الى التهامل فلا يفلح واما من رجع بالخيبة في خطابهِ الاول ثم استمر على ممارسة الخطابة ينجح نجاحًا ثابتًا اكيدًا —

والناس يتعلمون الحكمة من الخيبة اكثر مما يتعلمونها من النجاح لانهم كثيرًا ما يعرفون المفيد اذا عرفوا غير المفيد . ومن لا يغلط لا يتعلم . قيل ان الذي دعا غاليلو وطورشلي وبويل الى درس الهوائيات هو خيبة البعض في اصعاد الماء بالطلمبا فوق ثلاث وثلاثين قدمًا . وقال يوحنا هنتران صناعة الجراحة لا تتقدم حتى يشهر الجراحون الحوادث التي لم يصيبوا فيها كما يشهرون الحوادث التي اصابوا فيها . وقال وط ان اهم ما تمس اليهِ الحاجة في علم الهندسة العملية تاريخ اغلاط المهندسين . قيل أُطلع السر همفري دافي مرة على امتحان فلسفي في عملهِ حذاقة شديدة فقال احمد الله لاني لست حاذقًا في عمل الامتحانات ولاني توصلت الى اكثر اكتشافاتي بعدم نجاحي . وقال آخر ممن لهم في العلوم الطبيعة اطول باع انهُ كان يكتشف اكتشافًا جديدًا كلما عرضت امامهُ صعوبة في امتحاناتهِ واعظم الاختراعات والاكتشافات كان محفوفًا بالاحزان والمشقات

قال بتوفن ان في روسيني ما يكفي لجعلهِ من افضل الموسيقيين لو ضُرِب في صغرهِ ولكنهُ لم ينجح لانهُ لم يصادف شيئًا

من المصاعب . ولا يخف اولو العزم من مناقضة الغير لهم وتنديده بهم كما يجب ان يخافوا من المدح في غير موقعهِ . يُروى ان مندلسن عند ما باشر تشخيص رواية ايليا قال لبعض اصحابهِ المنتقدين لاتشفق عليَّ في الانتقاد ولاتخبرني بشيء استحسنتهُ فيَّ بل بكل ما لم تستحسنهُ . ويقال ان الانغلاب يفيد قواد الجيش اكثر من الغلب . فوَشنطون مثلاً كانت الوقائع التي كُسر فيها اكثر من التي ظفر بها ولكنهُ نال الظفر التام اخيرًا . وكل الحروب التي نجح فيها الرومانيون كانت بدايتها انغلابًا وقد شبَّه بعضهم القائد مورو بطبل لا يسمع صوتهُ ما لم يُضرَب . والصعوبات الكثيرة الشديدة ربَّت القائد العظيم ولنتون الذي لاقى منها اكثر مما لاقاهُ من اعدائهِ فقوَّت عزمهُ وعودتهُ الثبات فصار من افضل القواد . وكل ربان ماهر في سفر البحر بلغ ما بلغ اليهِ في وسط الزوابع والعواصف التي علمتهُ الشجاعة والاقدام . ولعل تقدم الملاحين الانكليز في سالك البحار حدث مما صادفوهُ فيها من المخاطر . قال الشاعر

تعطي التجارب حكمةً لمجرّبٍ حتى تربي فوقَ تربية الاب

والحاجة قاسية صارمة ولكنها مفيدة جدًّا والمصائب والمحن بلايا شديدة تقشعر منها الابدان خوفًا ولكن اذا اصابت الندب قابلها بالصبر الجميل

والحزم والتدبيرُ روح العزم لاخير في عزمٍ بغيرِ حزم

والحزم كل الحزم في المطاوله والصبرِ لا في سرعة المزاوله
وفي الخطوب تظهر الجواهرُ ما غلبَ الايامَ الاّ الصابرُ
ليس الفتى الاّ الذي ان طرقَهْ خطبٌ تلقّاهُ بصبرٍ وثقهْ

وخطوب الدهر وعناد الزمان مرّة المذاق ولكن نتيجتها احلى من الضرَب لانها تنبه المرء وتحرك همته ومن كان فيهِ ذكاء ظهر بالفرك كالنبات العطري. قال المثل الخطوب سلالم السماء وقال الشاعر

تريدين ادراك المعالي رخيصةً
ولا بد دونَ الشهد من ابر النحل

وقال بعضهم الفقر اشبه شيء بالالم الحاصل من ثقب اذن فتاة لتعليق حلقة من الجوهر الثمين . وكثيرون قاوموا المشقات بشجاعة واحتملوا البلايا بالصبر الجميل ومع ذلك لما نجحوا لم يقتدروا ان يقاوموا الشرور الكثيرة التي صحبت نجاحهم . ومن تنزع الريح رداءهُ عنهُ فهو فاقد العزيمة واما اذا كان ذا عزم معتدل وانبهرت عيناهُ من لمعان اشعة الشمس فهو في خطر من فقدهِ ايضاً . وعلى هذا نقول ان الغنى يستدعي حكمة وافرة للتحفظ من الشرور التي يؤدي اليها. نعم ان البعض تُحمد افعالهم عند ما يحصلون على سعة المعيشة ولكن الجانب الاكبر لا تنفعهم السعة قدر ما تضرهم لان كثيرين يقلبهم الغنى من البلاد الى الطيش ومن الذل الى الكبرياء بخلاف الضيق فانه يربي اصحاب الحزم على الصبر والجلد.

قال بُرك "المصاعب معلم صارم اقامتهُ لنا العناية الالهية بمحبة ابوية وهي تعرفنا اكثر مما نعرف نفوسنا وتحبنا ايضًا اكثر مما نحب نفوسنا" وفعل البلايا فعل المصارع في تقوية اعضاء خصمهِ . ورخاء المعيشة اسهل من ضنكها ولكنهُ لا يربي رجالاً. قيل انهُ لما وشي بهدصن زورًا ففصل عن وظيفتهِ في الهند قال لصديق لهُ انني بالغ جهدي في مقابلة كل شرٍ يصيبني بجسارة تضاهي جسارتي على مقاباتي العدو وفي اتمام واجباتي على احسن ما يمكني معتقدًا انهُ لابد من سبب لكل ما اصابني وان الواجبات الصعبة تنال جزاء حسنًا اذا عملت حق العمل والاَّ فلا تزال واجبات

وحرب الحياة كثيرًا تشب في نجود صعبة المسالك لا يغلب فيها الاَّ البطل الذي لا يبالي باقتحام المصاعب . واذا لم تكن صعوبات فلا نجاح لانهُ ان لم يكن شيءٌ يُقاوم فلا شيء يحصل . المصاعب توهن عزم الجبان ولكنها تزيد همة الشجاع . والاختبار يعلمنا ان كل الموانع التي تحول دون تقدم البشر لا تقدران تثبت امام الاستقامة والنشاط والهمة والمواظبة وخصوصًا امام من يعزم ويجزم على مقاومة كل مصيبة تنزل بهِ

ومدرسة المصاعب احسن المدارس لتربية المبادىء الادبية . وتاريخ المصاعب عبارة عن تاريخ كل الامور العظيمة التي فعلها البشر. من ينكر كم استفادت القبائل الساكنة شمالي اوربا من محاربتها عناصر الطبيعة ومحل الاراضي الامر الذي

لا يعرفهُ سكان البلدان الحارة فلا يستفيدون منهُ. ومع ان افضل غلّات بلادنا (البلاد الانكليزية) مما لا ينمو فيها اصلاً فالاجتهاد الذي بُذِل في انمائها في هذه البلاد ربّى منّا رجالاً لا يفوقهم احد من اهل العالم

وحيثما وجدت المصاعب قوّت مقاومها وزادت حذاقته ونشطت همتهُ على مقاومة ما ينزل بهِ من خطوب الدهر. وجبل الحياة صعب المرتقى ولكن من مرن على ارتقائهِ ازدادت همتهُ فلا يالو جهدًا حتى يبلغ قمتهُ . والاختبار يعلمنا انهُ ما من طريق للتغلب على المصاعب الاّ مصارعتها ألا ترى ان من خطف القرّاص بيدهِ وقبض عليهِ شديدًا شعر ان ملمسهُ كالحرير . ولا يقوى على امرٍ الاّ من اقتنع في داخلهِ انهُ قادر على اتمامهِ وعازم عليهِ وكثيرًا ما تتلاشى المصاعب من مجرّد هذا العزم قبل الشروع في مقاومتها

وكثيرون يتوهمون الصعوبة في هذا الامر او ذاك قبل ان يباشروهُ ولكنهم لو باشروهُ لوجدوهُ اسهل مما ظنوا كثيرًا . واما التمني والترجي فلا ينفعان شيئًا ومباشرة امرٍ واحد خير من الف لو وليت ولعل بل ان هذه الحروف مصدر اليأس واصل المستحيل وسبب الاهمال . قال اللورد لندهرست "الصعوبة امرٌ يجب التغلب عليهِ" فيجب ان تصارعها حالما تظهر لك والسهولة نتيجة المزاولة والقوّة نتيجة الممارسة وبهما يبلغ العقل والادب درجة من

الكمال لا يقدران يتصورها من لم يختبرها بنفسهِ

وتعلم العلم نوع من التغلب على المصاعب . والتغلب على صعوبة واحدة يقوي الانسان على غلبة غيرها وما لا تظهر منهُ فائدة في بادىء الراي كدرس اللغات القديمة والرياضيات هو كبير الفائدة بسبب فعلهِ في العقل لا بسبب فائدتهِ العمليّة . لان درس هذه العلوم يوسع العقل ويزيد قوّة الانصباب وبقية القوى التي لولا الدرس لبقيت خاملة وكل امرٍ يقود الى آخر ولا تنقضي مقاومة المصاعب ما لم تنقضِ الحياة . ولكن الخوض في بالوعة اليأس لم يَعِن احدًا على المصاعب ولن يعين . وما افضل النصيحة التي نصح بها دلمبر طالب علم متشكيًا من عدم نجاحهِ في مبادىء الرياضيات بقولهِ . اجتهد تجد الثقة والقوة مقبلتين عليك

والذين يلعبون على آلات الطرب لم يبرعوا الاّ بعد تعب يفوق التصديق . قيل مدح بعضهم كريسيي على اتقانهِ فن الغناء وجريهِ فيهِ بسهولة فقال لهُ انك لا تعلم بكم من الصعوبة حصلت هذه السهولة . وقيل سئل السر يشوع رينلدس كم من الوقت صرفت على تصوير هذه الصورة فقال حياتي كلها . قال هنري كلاي الخطيب الاميركاني لبعض الشبان يصف سر براعتهِ في فن الخطابة انني انسب كل نجاحي الى الحادثة الآتية وهي انني لما بلغت السابعة والعشرين شرعت أقرأُ بعض الكتب التاريخية .

والعلمية واتلو مضمونها بصوت عالٍ في الحظائر والحقول والغابات وليس لي من سامع سوى البهائم والطيور والحشرات هذا هو سبب نجاحي الوحيد الذي له انا مديون لاجل براعتي في هذا الفن ولاجل الدرجة التي بلغتها

كان كرّان الخطيب الارلندي اولاً قليل الافصاح حتى لقب وهو في المدرسة بالالكن . ولما كان يدرس الفقه ويجتهد على اصلاح منطقهِ حدثت حادثة اصلحتهُ تماماً وذلك انهُ دخل بعض المجامع العلمية وجاء دورهُ للمناظرة فقام ولكن لم يمكنهُ التكلم فقام خصمهُ ودعاهُ باسم الخطيب الاخرس فأثّر فيهِ هذا التهكم فقام ودافع عن نفسهِ بكلام فصيح الى الغاية حتى اذهل الجمهور الحاضر . ولما رأى من نفسهِ ذلك تقوّى عزمهُ واستمر على درس الفقه باكثر رغبة وكان يقرأُ ابلغ الكتابات بصوت عالٍ ساعات عديدة وكل ذلك لتصليح منطقهِ دارساً حركاتهِ على مرآة وكان يفرض بعض المسائل ويناظر فيها وحدهُ امام المرآة وما زال على مثل ذلك الى ان جاء خطيباً مصقعاً . ثم دخل المحاكم محامياً عن الدعاوي . وفي احد الايام قال للقاضي روبنصن اني لم ارَ الفتوى التي افتيتَ فيها في كتاب من كتب الفقه فقال القاضي بتهكم لعل ذلك صحيح لان الكتب التي اطلعت عليها قليلة جدًّا . وكان القاضي المذكور من رجال السياسة المتعصبين وقد الّف رسائل مشحونة بالقذف والتشنيع ولم يضع عليها اسمهُ فنهض كرّان والغيظ

آخذ منهُ كلَّ ماأخذ وقال لهُ حقيق ايها المولى انني فقير الحال ولذالك كتبي قليلة ولكن كلها نخب وقد تصفحتها مليًّا وتاملت لهذا المنصب السامي بدرس كتب قليلة معتبرة لا بتاليف كتب كثيرة قبيحة ولا اخجل من فقري بل اخجل من غناي اذا كنت احصلهُ بالظلم والبطل . واذا لم ارتقِ الى مرتبة امراء الارض فسارتقي الى مرتبة اشرافها وانني ارى الغنى المكتسب بطرق محرمة يشهر الانسان ولكن شهرة رديئة "

ومهما كان الفقر شديدًا لا يعيق الانسان عن التقدُّم في تثقيف عقلهِ فان الاستاذ اسكندر مري اللغوي تعلم الكتابة بالفحم . ولم يكن في بيت ابيهِ من الكتب سوى كتاب واحد ثمنهُ عشر بارات وهو مختصر اصول الايمان وكان اهلهُ يحفظونهُ بكل حرص ولا يمسكونهُ الا من أحدٍ الى أحدٍ . والاستاذ مور لما كان فتًى لم يكن معهُ دراهم لابتياع كتاب الاصول لنيوتن فنسخهُ كلهُ بيدهِ . وكثيرون من طلبة العلم المساكين المضطرين ان يعملوا كل النهار لكي يحصلوا قوتهم كانوا يستغنمون كل دقيقة يمكنهم استغنامها لاجل الدرس ولم يكن لهم من مشجع ولا معزٍ سوى الامل والثقة . قصَّ وليم تشمبرس الايدنبرجي سيرة تقدمهِ على فيئة من الشبان في تلك المدينة فقال " انني اقف امامكم الآن كرجلٍ علَّم نفسهُ لانني اتيت ايدنبرج وانا صغير وفي غاية المسكنة وكنت اعمل كل النهار وجزءًا من الليل عند بائع كتب لتحصيل قوتي الضروري

وامضي الساعات الاخيرة من الليل التي كنت اسرقها من النوم في تهذيب العقل الذي منحتني اياهُ العناية الالهية . وانصببت بالاكثر على درس العلوم الطبيعية . وفي غضون ذلك درست اللغة الفرنساوية وحدي . والان التفتُ الى تلك الايام بلذة لا توصف واود لو كانت احوالي الآن متعسرة كما كانت حينئذٍ لانني وجدتُ لذةً في حياتي لما كنت ادرس في تكنة ولم يكن معي شيءٌ من الدراهم اكثر مما اجد الآن وانا في افخر القاعات

وهاك قصة مفيدة جدًّا لطلبة العلم الحاطين بالمصاعب وهي قصة تعلم وليم كوبت النحو الانكليزي قال انني تعلمت النحو وانا جندي ومقعدي سريري ومائدتي قطعة لوح واتممتهُ في اقل من سنة.ولم يكن لي من المال شيءٌ لابتاع سراجًا او شمعًا ادرس في نورهِ ليلاً فكنت ادرس على نور النار عند ما تاتي نوبتي للقيام امامها . فاذا كنت قد بلغت مرامي وانا فقير ولا اب لي ولا صديق ولا منشط فما عذر غيري مهما كان فقيرًا متعبًا متضايقًا . وكنت التزم ان ابقى بلا اكل لكي اشتري قلمًا او قرطاسًا ولم يكن دقيقة من الوقت يمكنني ان اقول انها لي وكنت اكتب بين قهقهة عشرات من الرجال الطائشين وصفيرهم وخصامهم . ولا تحتقر الفلس الذي كنت ادفعهُ ثمن الحبر او الورق او القلم لان ذلك الفلس كان عندي بمثابة بدرة من المال عند غيري اذ لم يفضل معي في الاسبوع غير غرش واحد . واذكر الآن انهُ فاض

معي مرّة قطعة بعشر بارات لا غير فحفظتها لكي اشتري بها طعاماً اليوم التالي ولكن لما نزعت ثيابي في المساء وكنت اكاد اموت جوعاً نظرت فاذا القطعة ضائعة فغطيت راسي بردائي واخذت ابكي كالطفل . فان كنت انا قد تغلبت على ذلك الضنك الشديد ونجحت فهل بقي عذر لاحد من الشبان مهما كانت احوال حياته

وهناك حادثة تشبه هذه اصابت احد المهاجرين الفرنساويين. كانت حرفة هذا الرجل البناء وقد وجد عملاً يعمل به حالما اتى البلاد الانكليزية ولكن بعد قليل انتهى عمله ولم يجد عملاً آخر فامسى في حالة يرثى لها من العوز. وفي غضون ذلك زار احد اصحابه المهاجرين وكان يعلم اللغة الفرنساوية واستشاره في الطريقة الممكنة لتحصيل معيشته فقال له رايي لك ان تصير معلماً . فقال أصير معلماً وانا بنّاء ولا اعرف غير الباتوا (الفرنساوية الركيكة) فحقاً انك تمزح فقال كلاّ بل انكلم معك كلام الجد ولا ارى لك سوى ان تصير معلماً فهلمّ اليّ وانا اعلمك كيف تعلم الغير فقال البناء ان ذلك ضرب من المحال لانني كبير السن وخامل الذهن قال هذا ومضى في طريقه واخذ يفتش عن عمل ليعمل به فطاف اماكن عديدة ولم يجد عملاً فرجع الى لندن وانطلق الى صاحبه وقال له قد بذلت جهدي في التفتيش عن عمل فلم اجد والآن ساجتهد ان اصير معلماً . ثم انعكف على الدرس وكان شديد

المواظبة سريع الادراك كثير الجلد فتعلم مبادىء الصرف والنحو والبيان في برهة قصيرة واصلح لفظهُ حسب الاقتضاء وعند ما تعلم ما يكفيهِ ليكون معلمًا للغة الفرنساوية صار استاذًا لهذه اللغة في احدى المدارس وكانت المدرسة التي صار فيها استاذًا في ضواحي لندن حيثما كان يعمل سابقًا في صناعة البناء وكانت كوة غرفتهِ تطل على كوخ بناهُ بيدهِ فكان حالما يفتح عينيهِ صباحًا يقع نظرهُ على هذا الكوخ فخاف ان يشتهر امرهُ فيلقي اللوم على المدرسة وهي ذات اعتبار في تلك الانحاء ولكن خوفهُ لم يكن في محلهِ لانهُ كان من افضل المعلمين وكثيرًا ما اثني على تلامذتهِ لاجل معرفتهم باللغة الفرنساوية . وقد اعتبرهُ الجمهور وباقي الاساتيذ كثيرًا ولاسيما حينما اخبرهم بقصتهِ

والسر صموئيل روملي بن جوهري من المهاجرين الفرنساويين ايضًا . وقد تعلَّم قليلاً في حداثتهِ ولكنهُ بلغ ما بلغ اليهِ باجتهادهِ وانصبابهِ . قال في سيرة حياتهِ عزمت وانا بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ان اتعلم اللغة اللاتينية ولم اكن اعرف منها شيئًا تقريبًا الاَّ انهُ لم يمضِ ثلاث سنوات او اربع حتى قرأْت اكثر المؤلفات الفصيحة النثرية والشعرية مثل ليفي وسلُست وتاشيتس وشيشرون واوميروس وتيرنس وفرجيل وهوراس واوفيد ويوفنال وقد تصفحت اكثرها مرارًا عديدة". ودرس علا ذلك الجغرافيا والتاريخ الطبيعي والفلسفة الطبيعية . ولما بلغ السادسة

عشرة عُين كاتبًا فاظهر نشاطًا عظيمًا حتى انهُ ادخل الى المجلس ثم صار مدعيًا عموميًّا في مدة وزارة فكس سنة ١٨٠٦ . وقام باعباء منصبهِ بكل نجاح . الاَّ انهُ كان دائمًا يتوهم انهُ غير اهل لشيءِ وقد تعب من هذا الوهم تعبًا عظيمًا . وتاريخ حياتهِ الذي كتبهُ بيدهِ يستحق ان يقراهُ كل انسان بتمعن —

كان من عادة السر ولتر سكت ان يقول ان في حياة صديقي يوحنا ليدن مثالاً من اتم الامثلة على قوة المواظبة الشديدة . اما يوحنا هذا فهو كغيرهِ من الاسكتلنديين الذين ارتقوا من رعاية الغنم الى اعلى المناصب باجتهادهم كهوغ الذي تعلم الكتابة بتمثيل حروف كتاب مطبوع وهو يرعى القطعان في البراري اوككرنس الذي ارتقى من رعاية الغنم الى منصب استاذ في مدرسة كلية اوكمري وفرغوسن وغيرهما ممن يضيق بنا المقام عن استيفاء اسمائهم . ولنرجع الى يوحنا ليدن فنقول انهُ اظهر تعطشًا شديدًا للمعرفة وهو صغير فكان يمشي ثمانية اميال كل يوم حافيًا الى مدرسة صغيرة لكي يتعلم القراءة ثم توجه الى ادنبرج وصار يتردد على مدرستها الكلية مع ما هو عليهِ من الفاقة الشديدة . وكان يتردد على مبيع كتب لارخيبلد كنستابل فيقيم فيهِ ساعات عديدة واقفًا على سلم عالٍ وبيدهِ كتاب ضخم يطالع فيهِ . وما زال يقاوم الصعوبات بهمة تفوق التصديق حتى تغلب عليها وازاحها من وجههِ فانفتحت امامهُ ابواب المعرفة . وقبلما بلغ

التاسعة عشر حيّر اساتيذ ادنبرج بمعرفتهِ في اليونانية واللاتينية وفي كثير من العلوم . ثم وجّه افكارهُ نحو الهند وطلب منصبًا سياسيًّا فلم يجد الّا انه اخبر بامكان صيرورتهِ معاونًا لجراح ولم يكن يعرف شيئًا من علم الجراحة على الاطلاق غير انهُ كان قادرًا ان يتعلم وكان عليهِ ان يتقلد المنصب المذكور بعد ستة اشهر فاخذ في درس هذا العلم الذي يقتضي ثلاث سنوات فتعلمهُ في ستة اشهر وامتُحن ونال الشهادة بالاكرام ثم توجه الى الهند بعد ان طبع قصيدتهُ المشهورة المعروفة بمناظر الطفولية . فاظهر في الهند ما يدل على صيرورتهِ من البارعين في اللغات الشرقية ولكن وافتهُ المنية يافعًا . ولا دافع من قضاء الله

وحياة الدكتور لي استاذ العبرانية في مدرسة كمبردج من اعجب ما حدث في هذا العصر واقوى الامثلة على فعل الصبر والمواظبة والعزم . فانهُ تعلم مبادئ القراءة في مدرسة مجانية ولم يكن نجيبًا على الاطلاق حتى قال معلمهُ انهُ ابلد ولد رآهُ في حياتهِ . فوُضع صانعًا عند نجار وعمل في النجارة حتى بلغ اشدَّهُ . وعكف على القراءة ساعات الفراغ وكان يعثر على بعض الاقتباسات اللاتينية فعزم ان يعرف معناها فاشترى غراماطيقًا لاتينيًّا وشرع يدرس اللاتينية . واذا تعلم الانسان اربعة وعشرين حرفًا امكنهُ ان يتعلم لغة كما قال ستون بسماني دبوك ارجل . وكان لي يقوم باكرًا وينام متاخرًا فاتقن اللغة اللاتينية

في مدة قصيرة . وبينما هو يعمل في بعض المعابد عثر على نسخة
من الانجيل باليونانية فتحركت فيه رغبة شديدة لتعلم هذه اللغة فباع
بعض كتبهِ اللاتينية واشترى غراماطيقًا يونانيًا وكتابًا في متن
اللغة ولم يلبث طويلاً حتى اتقن اليونانية فباع كتبها واشترى
كتبًا عبرانية وتعلم تلك اللغة على غير استاذ غير طامع بالشهرة
بل تابعًا ميل طبيعتهِ ثم اخذ يتعلم الكلدانية والسريانية والسامرية
وحينئذٍ أثرت دروسه في صحتهِ فاصابهُ مرض في عينيهِ من درس
الليل حتى اضطرّ ان يترك الدرس ريثما يملك صحتهُ . وفي كل هذا
الوقت كان آخذًا في حرفتهِ ونجح فيها نجاحًا مكنهُ من ان يتزوج
وهو في الثامنة والعشرين وحينئذٍ تفرغ لتحصيل ما يقوم بنفقة
عائلتهِ فترك الدرس وباع كل كتبهِ . ولو لم يحترق صندوق ادواتهِ
لبقي نجارًا كل حياتهِ الا انهُ احترق ولم يكن قادرًا على ابتياع
ادوات اخرى فعزم ان يفتح مدرسة صغيرة لتعليم الصغار . ومع
انهُ تعلم كثيرًا من اللغات كان قاصرًا في ابسط فروع العلم فلم
يقدر ان يعلم في هذه المدرسة ولكن علو همتهِ وشدة حزمهِ هونا عليهِ
كل عسير فتعلم من الحساب والكتابة ما يكفي لتعليم الاولاد
وكان واطئ الجانب لين العريكة فجذب اليهِ قلوب كثيرين
من الذين بهتوا من معرفتهِ باللغات . وكان لهُ جار صديق
يدعى الدكتور سكت فساعدهُ على ايجاد مركز في مدرسة
شروبري المجانية وعرّفهُ برجل عالم باللغات الشرقية فقدما لهُ

كتبًا فرجع الى الدرس وتعلم العربية والفارسية والهندية . ثم
دخل مدرسة الملكة من كمبردج بمساعدة الدكتور سكت وبعد
ان درس مدة واشتهر فيها بالرياضيات اخلي منصب استاذ العربية
والعبرانية في تلك المدرسة فقلدوهُ اياهُ فقام بعبئهِ وكان يعلم
اللغات الشرقية للمبشرين المزمعين على الانطلاق الى الشرق
وترجم التوراة الى كثير من لغات اسيا ثم تعلم لغة زيلندا الجديدة
وصنّف لها غراماطيقًا وكتاب لغة وهما المعوّل عليهما الآن في
مدارس زيلاندا الجديدة . هذه هي خلاصة ترجمة هذا الفاضل
الذي هو واحد من كثيرين من المشاهير الذين تعلموا بالاجتهاد
والمواظبة

ومهما تقدم الانسان في السن لا يفوت وقت علمهِ ولنا على
ذلك شواهد كثيرة فان السر هنري سبلمن لم يباشر درس
العلوم الأَّ بين السنة الخمسين والستين من عمرهِ . وفرنكلين
الاميركاني كان ابن خمسين سنة لما شرع في درس الفلسفة
الطبيعية ودريدن وسكت لم يظهرا كمولفين حتى بلغ كل منهما
الاربعين وبكاتشو كان ابن خمس وثلاثين سنة لما شرع في
دروسهِ العلمية والفيري كان ابن ست واربعين سنة لما اخذ في
درس اليونانية والدكتور ارنلد تعلم الجرمانية بعد ان طعن في
السن لكي يقرأ نيبهر في لغتهِ الاصلية . وجمس وط تعلم الفرنساوية
والجرمانية والايطالية وهو ابن اربعين سنة لكي يقرأ الكتب المؤلفة

فيها في الفلسفة الميكانيكية . وتوما سكت كان في السادسة والخمسين عند ما شرع يتعلم العبرانية . وربرت هُل تعلم الايطالية وهو شيخ طاعن في السن ومكتنف بالاوجاع لكي يرى صحة المقابلة التي عملها الشهير ماكولي بين ملتن الشاعر الانكليزي ودنتي الشاعر الايطالي . وهندل كان في الثامنة والاربعين قبلما اشهر شيئاً من كتبهِ الشهيرة . ويمكننا ان نذكر الوفاً من الرجال الذين فتحوا لنفوسهم سبيلاً جديداً بعد ان تقدموا في السن . وما من احد يقول انني كبرت عن العلم الاَّ الجبان او الكسلان

والآن نعيد ما ذكرناهُ قبلاً وهو ان الرجال الذين غيروا هيئة العالم واحرزوا قصب السبق لم يكونوا من ذوي المواهب الفائقة بل من ذوي الحزم والاجتهاد وكثيرون من اذكياء العقول اشتهروا في صغرهم ولكن الاشتهار في الصغر لا يلزم عنهُ الاشتهار في الكبر بل النمو الباكر علامة على المرض لانهُ اين التلامذة النجباء الذين نالوا الجوائز واكتسبوا المديح فتش عنهم في العالم ترَ ان الذين كانوا دونهم بدرجات عديدة قد سبقوهم بمراحل . اما هم فكانوا اذكياء العقول سريعي الخاطر فنالوا الجوائز الحسنة مجازاة لنجاحهم ولكن كان يجب ان تعطى هذه الجوائز للمجتهدين الباذلين جهدهم وان لم تكن قواهم العقلية في درجة عالية . ويمكننا ان نكتب فصلاً كبيراً عن الاولاد البلداء الذين صاروا رجالاً افاضل الاَّ ان المقام لا يسمح لنا الاَّ بذكر بعضهم

فنقول ان بترودي كرتونا المصور كان معدودًا من ابلد الاولاد
حتى لقب براس الحمار . وتوما سو كويدي لقب توما الثقيل ولكنه
ارتقى باجتهادهِ في ما بعد الى اسمى المراتب . ونيوتن لما كان في
المدرسة كان آخر اولاد صفهِ ما عدا واحدًا وحدث يومًا ان الصبي
الذي فوقهُ في الصف رفسهُ برجلهِ فخاصمهُ نيوتن ثم عزم ان يغلبهُ
بالدرس فانصب بكليتهِ على دروسهِ ولم تمضِ عليهِ مدة طويلة
حتى ارتقى الى راس الصف . واكثر لاهوتيينا لم يكونوا اذكياء في
صغرهم فان اسحق برُو كان مشهورًا بشراسة الاخلاق ومحبة النزاع
وكان يُضرَب المثل بكسلهِ حتى ان اباهُ قال مرارًا كثيرة اذا
شاءت العناية الالهية ان تاخذ ولدًا من اولادي فاحب ان تاخذ
اسحق الذي لا يرجى منهُ نفع . وآدم كلرك نعتهُ ابوهُ ابلهَ . ودين
سوفت طرد من مدرسة دبلن الكلية والدكتور تشلمرس الشهير
والدكتور كك طردهما معلمهما زاعمًا انهما ابلهان لا يقبلان الاصلاح
قط . وشريدن الشهير لم يكن نجيبًا في صغرهِ حتى ان امهُ لما
اخذتهُ الى المكتب قالت لمعلمهِ ما قد اتيتك بهذا الابله الاعفك .
والسر ولتر سكت كان ابله احمق محبًا للخصام حتى ان الاستاذ
دلزل قال انهُ ابله وسيبقى ابله كل حياتهِ . ونتشرتن طرد من المدرسة
كاحمق لا يرجى منهُ نفع . وبرنس كان بليدًا لا ينفع الاَّ للعب .
قال كُلدسمث عن نفسهِ انهُ نبتة ازهرت متاخرًا . والفيري خرج
من المدرسة جاهلاً كما كان عند ما دخلها ولم يبتدئ في دروسهِ

التي اشتهر بها الاّ بعد ان طاف نصف اوربا هاربًا . وروبرت كليف كان مشهورًا بالشقاوة والكسل . فارسلهُ والداهُ الى الهند لكي يتخلصا منهُ ولكن هو الذي وضع اساس السلطنة الانكليزية في الهند . ونبوليون وولنتن كان كل منهما بليدًا في صغره واولهما لم يشتهر بشيء في المدرسة سوى بجودة صحتهِ . والجنرال كرنت رئيس الولايات المتحدة الاميركانية لقبتهُ امهُ يوزلس اي عديم النفع لبلادتهِ وبلههِ . وستُنول جكسن القائد الشهير اشتهر ببلادتهِ وهو صغير وكان آخر ولد في صفهِ وهو سبعون تلميذًا ولكن لما انهى دروسهُ في المدرسة لم يكن فوقهُ سوى ستة عشر منهم والبقية دونهُ. وقيل انهُ ولو طال وقت المدرسة ست سنوات اخرى لخرج وهو راس صفهِ . ويوحنا هورد الشهير كان ابله ايضًا ومع انهُ اقام سبع سنوات في المدرسة لم يتعلم شيئًا . وستفنصن لم يشتهر وهو في المدرسة الاّ بالمصارعة . والسر همفري داڤي لم يكن انجب من غيرهِ من التلامذة . ووط كان بليدًا الاّ انهُ كثير الانصباب وذلك قدرهُ على اتمام الآلة البخارية . ويمكننا ان نقول عن الصغار كما قال الدكتور ارنلد عن الكبار ان الفرق المعتبر بينهم ليس في جودة العقل بل في الاجتهاد لان البليد المجتهد خير من الذكي الكسلان . ومن العجيب ان بعض النجباء الاذكياء العقول لا ينجحون في العالم بخلاف البلداء فانهم اذا كانوا شديدي الاجتهاد والانصباب نجحوا دائمًا . وانا (المولف) لما كنت حدثًا كان معي في صفي تلميذ

بليد خامل الذهن حتى ان كل المعلمين اعيوا ولم يقدروا ان يجعلوهُ يستفيد شيئًا فيئسوا منهُ وتركوهُ بعد ان استخدموا كل واسطة لتحريك ذهنهِ الخامل. ولكن مع بلادتهِ كان فيهِ شيءٌ من العزم الذي نما بنموهِ. فلما دخل في مهام العالم فاق كثيرين من ابناء صفهِ وآخر مرة سمعتُ عنهُ كان راس حكام بلادهِ

السلحفاة المشهورة ببطء الحركة اذا سارت في طريق قويم سبقت الفارس السائر في طريق معوج. فلا خوف على ولد بطيء الفهم اذا كان مجتهدًا على ان الذكاء قد يكون مضرًّا لان من تعلم سريعًا نسي سريعًا . هذا فضلًا عن ان الذكي لا يرى لزومًا للاجتهاد والمواظبة اللذين يرى البليد لزومهما له ويمارسهما ولا يخفى انهما اصل لكل نجاح

والخلاصة ان التهذيب لا يتوقف على المدارس والمعلمين كما يتوقف على الاجتهاد بعد الدخول في العالم لذلك لا يليق بالآباء ان يخافوا من تاخر بنيهم وهم في المدارس ولا يجب ان ينتظروا منهم نجاحًا سريعًا بل عليهم ان يكونوا صبورين منتظرين فعل القدوة الحسنة والتربية الصحيحة فيهم وتاركين ما بقي الى العناية الالهية ويحرصوا على صحة اولادهم وتدريبهم في جادَّة التهذيب الذاتي مربين فيهم روح الانصباب والمواظبة فينجحون اذا كانوا اهلًا للنجاح ولو بعد ان يتقدموا في السن

الفصل الثاني عشر

في القدوة

قال جون سترلن ما يوافقهُ

نرانا وطيف الاقربين يزورنا وان بللتهم في الرموس المدامعُ

جيوشاً الى كسب الفخار تسابقوا واملاكهم ترتادهم ان يسارعوا

وقال جورج اليوت. اولادنا يموتون وافعالنا تحيا وحياتهم خالدة في نفوسنا وفي كل العالم

وقال توما الملمسبري . لا عمل من اعمال الانسان الّا وهو بداية سلسلة من النتائج تقصر عن ادراك نهايتها الحكمة الانسانية

القدوة معلم من اقدر المعلمين مع انها تعلم بلا لسان . وهي مدرسة البشر العملية . وعلم العمل افعل من علم القول والارشاد يري الطريق ولكن القدوة البكماء تسيّر فيهِ . النصيحة ثمينة ولكنها لا تفيد كثيرًا ما لم توافقها سيرة الناصح وخير النصح ما كان افعَلْ كما أَفْعَلُ لا كما اقول!. وكل الناس مائلون طبعًا الى ان يتعلموا

بعيونهم اكثر مما باذانهم . والمرئي يوثر اكثر من المقروء والمسموع.
ويصدق هذا القول بنوع خاص على الاحداث لان عيونهم
الباب الوحيد لدخول المعرفة . فما يرونه يقتدون به وان عن
غير قصد لذلك تراهم يتمثلون بالذين حولهم كما ان الحشرات
الصغيرة تتلون بلون النباتات التي تقتات منها.واذا كان الامر
كما ذكرنا فلا شيء افعل من التربية البيتية لانه مهما كان تاثير
المدارس قويًا يبقى تاثير البيوت اقوى وعليه تتوقف صفات
رجالنا ونسائنا. البيت جرثومة الهيئة الاجتماعية واصل الصفات
الاهلية ومن هذا الينبوع تنبثق الآداب والاخلاق المتسلطة على
الخاصة والعامة.وصفاء الدنيا وكدرها يتوقفان على صفاء البيت
وكدره . والمحبة العائلية مصدر المحبة الوطنية ومن هذه الدائرة
الصغيرة تتشعب دوائر كبيرة تعم العالم اجمع . وبما ان القدوة
توثر في حياة الناس تاثيرًا بليغًا بهذا المقدار وتعطفهم على الصلاح
او الطلاح لذلك هي مهمة جدًّا حتى في الامور الطفيفة . فان
صفات الوالدين تظهر في اولادهم.وافعالهم المختلفة التي يمارسونها
يوميًا كالمحبة والاجتهاد وانكار الذات وحسن السياسة تحيا في
اولادهم بعد ان يكونوا قد نسوا تعاليمهم التي سمعوها منهم باذانهم
من زمان طويل.ونظرة واحدة من الاب قد تبقى موثرة في الولد
مدى الحياة . وكثيرون قد تجنبوا شرورًا كثيرة لئلا يهينوا اسم
والديهم . وكل امر مهما كان طفيفًا يوثر تاثيرًا بليغًا في اخلاق

البشر . قال وست المصوران قبلة واحدة من امي جعلتني مصورًا. وعلى هذه الامور الطفيفة تتوقف سعادة الصغار عند ما يصيرون رجالاً . كتب فول بكستن لامهِ بعد ان ارتقى منصبًا عاليًا يقول " انني اشعر على الدوام بنتائج المبادئ التي غرستها في عقلي" . وكان بكستن هذا يقر بفضل رجل امي يسمى ابرهيم بلاستو وكان هذا الرجل من الحكمة والاستقامة على جانب عظيم حتى شبه بكستن كلامهُ بخطب سنيكا وشيشرون . لما التفت اللورد لنديل الى قدوة امهِ الصالحة قال اذا وضع العالم باسرهِ في كفة الميزان الواحدة وامي في الكفة الاخرى رجحت عليهِ رجوحًا بليغًا . كانت احدى السيدات تذكر في شيخوختها ما كان لامها من الهيبة في قلوب معارفها قالت انها لم تدخل بيتًا الاَّ طهرت هواءَهُ وجعلت حديث اهلهِ جليلاً قويمًا وما ذلك الاَّ لاستقامتها التي جعلت لها هذا التاثير في قلوب الجميع

ومن الامور المهمة بل المرعبة جدًّا ان كل عمل يعملهُ الانسان وكل كلمة ينفوه بها هي اساس نتائج عديدة لا يعرف نهايتها الاَّ الله وحدهُ ولكلٍّ منها تاثير في حياتنا وحياة غيرنا . فكل عمل صالحًا كان او طالحًا يحيا ويثمر وان لم نرَ ثمرهُ بعيوننا . وارواح البشر لا تموت ولكنها تبقى حية وتجول بين الاحياء . ولقد اصاب مستر دزرائيلي الذي قال في مجلس العامة عند وفاة رتشرد كبدن ان هذا الرجل من الرجال الذين وان غابوا عنا لا يزالون بيننا

اعضاء في هذا المجلس

وفي حياة الانسان شيء من الخلود حتى في هذا العالم لانهُ ليس فرد من افراد البشر الاَّ وهو عضوٌ من اعضاء جسد العائلة البشرية يعمل لزيادة خيرها او ضيرها . وكما ان الحاضر متصل بالماضي وحياة آبائنا لا تزال تفعل بنا فكذلك نحن سنفعل بالاجيال الآتية بسيرتنا وافعالنا اليومية . وما الانسان سوى ثمرة انضجتها القرون السالفة واوصلتها الى حالتها الحاضرة وللجيل الحاضر ذات هذا الفعل في الاجيال التالية وهكذا سيرتبط الماضي الدابر بالمستقبل البعيد . وافعال البشر لا تموت وان ماتت اجسادهم وصارت هباء منثورًا بل تحيا الى الابد وتفعل بحياة الاجيال العتيدة وتثمر اثمارًا من نوعها ان خيرًا فخير وان شرًّا فشر . وقد اظهر ذلك مستر بيادج بعبارات بليغة لا باس من ايرادها هنا قال "ان كل ذرة تتحرك بالحركة التي حركها بها الحكماء الفلاسفة حتى ان الهواء نفسهُ يشبه كتابًا كبيرًا كتب على صفحاتهِ كل ما تفوه بهِ بنو البشر كل ما قالوهُ ولم يفعلوهُ ووعدوا بهِ ولم يفوهُ فهو شاهد ازلي على تقلب ارادة الانسان. ولكن اذا كان الهواء شاهدًا على اقوالنا فالارض والبحار والهواء شهود ابدية على افعالنا . وكما وضع الله القدير على جبهة القاتل الاول علامةً ظاهرةً لجرمهِ سنَّ شرائع تلزم كل مذنب ان يقر بذنبهِ لان كل ذرة من جسدهِ المائت مهما تغير نوعها ووضعها لا تزال تتحرك

بالحركة الاولى التي ارتكب بها ذلك الذنب". لذلك كل فعل نفعلهُ وكل كلمة نقولها بل كل عمل نراهُ وكل قول نسمعهُ يفعل بحياتنا فعلاً مستمرًّا ويمتد فعلهُ الى الجنس البشري اجماعًا. ولا نقدر ان نتتبع هذا الفعل بتفرعاتهِ المختلفة بين اولادنا واصحابنا ورفاقنا لكن لا بد من انهُ يتصل اليهم ويدوم امتدادهُ مدى الايام. من هنا نرى اهمية القدوة الحسنة التي هي مهذب اخرس كما قلنا سابقًا ويقدر عليها افقر الناس واحقرهم. ومهما كان الانسان حقيرًا لا يزال مديونًا لغيرهِ بهذا النوع من التعليم ولا يستغني عن تعليمهِ مهما كان حالهُ دنيئًا لان المنارة الموضوعة على راس جبل نير مثل الموضوعة على سطحهِ. والرجل الحقيقي يُرى في كل اين وآن في اكواخ المزارع وقصور المدائن. ومن يحرث قطعة ارض تقاس بالشبر يمكنهُ ان يكون قدوةً لغيرهِ في الامانة والاجتهاد كمن يملك الالوف. واحقر الحوانيت يمكن ان يكون مدرسة للاجتهاد والادب او وهدةً للشر والجهل. وكل شيء يتعلق على الانسان واستعمالهِ الفرص التي يوجدها لنفسهِ

ومن ترك لاولادهِ ولاهل العالم سيرة حسنة وقدوة صالحة فقد ترك لهم ارثًا فاضلاً يردعهم عن الشر ويحرضهم على الخير ويغنيهم ادبيًا وماديًا. وحبذا من يقدر ان يقول كما قال بوب للورد هرفي حسبي فخرًا انني لا اخجل بوالديَّ ولم يخجلا بي. ولا يكفينا ان نقول للناس اعملوا كذا وكذا بل علينا ان نعمل امامهم. وما

احسن ما قالتهُ احدى السيدات وهو اذا اردنا فعل شيء فعلينا
ان نشرع فيهِ بيدنا . والكلام وحدهُ لا يكفي فان كثيرين يحثون
غيرهم على فعل هذا العمل وذاك ولكن كلامهم لا ينفع شيئاً ما لم
يعززوهُ بفعلهم ولو كانوا من ذوي البلاغة والحجة
لا ان قلتَ ويحك فافعل ايها الرجلُ فكم رجال لنا قالوا وما فعلوا
واصحاب الهمة والمروَّة وان كانوا من احقر المراتب يقدرون
اذا كانوا فعالين ان يحركوا الناس للفعل . فلو قام توما رَبط
وتبوأ كل منبر وخطب في اصلاح شان المجرمين ولو قام يوحنا
بوندس وملأ جرائد البلاد من الحث على انشاء المدارس
للمنقطعين ولم يفعلا شيئاً ما استفادا شيئاً ولكنهما لم يتكلما بشيء بل
شرعا في عمليهما بايديهما فنجحا وحركا غيرة الناس للاقتداء بهما .
وهاك ما قالهُ الدكتور كثري الواعظ المفلق الذي يدعى رسول
مدارس المنقطعين قال "ان رغبتي الشديدة في هذا العمل العظيم
تُري كيف ان العناية الالهية تجعل الامور الطفيفة تؤثر في حياة
البشر ومقاصدهم لانني انتبهت الى وجوب انشاء المدارس
للمنقطعين من نظري الى صورة في برج قديم . فانني دخلت هذا
المكان فوجدت فيهِ غرفة فيها كثير من الصور وبينها صورة
تشخص حانوت اسكاف والاسكاف جالس وعويناتهُ على انفهِ
وبين ركبتيهِ حذاء عتيق . وعلى وجههِ امارات الهيبة والوقار وعلو
الهمة وعيناهُ شاخصتان الى جم من الصبيان والبنات جالسين

امامهُ بشباب اخلاق وكتبهم في ايديهم ثم التفت واذا بجانب الصورة كتابة يقول فيها هذا هو يوحنا بوندس الاسكاف من بورتسموث وقد اخذته الشفقة على الاولاد المنقطعين المتروكين من القسوس والحكام والاسياد والسيدات لكي يطوفوا الازقة في حالة يرثى لها فجمعهم مثل راعٍ صالح وعلّمهم وهذّبهم لاجل خيرهم ومجد الله فانتشل من وهدة الهلاك ما ينيف عن خمس مئة ولد وهو يحصل خبزهُ بعرق جبينهِ. فعند ما قرات هذا الكلام خجلت من نفسي والتفت الى رفيقي وقلت لهُ حقًّا ان هذا الرجل فخر للبلاد ويجب ان يقام لهُ نصب من ارفع الانصاب التي اقيمت في البلاد الانكليزية . ثم راجعت تاريخ حياتهِ فرأيت ان قلبهُ كان مملوءًا من روح ذلك الذي تحنن على الجموع. وكان حكيمًا بارعًا في اجتذاب الناس يطوف في الشوارع يستدعي الاولاد المنبوذين ليأتوا الى مدرستهِ ولم يكن يغتصبهم الى ذلك بقوة الحكومة بل باطعامهم قليلاً من الطعام. واني لا اخال عظماء الارض واشرافها الذين اطنب الشعراء بمدحهم واقيمت لهم الانصاب وقد وقفوا في ساعة الحساب الرهيبة وانقسموا الى شطرين لكي يجتاز بينهم هذا الرجل الخامل الذكر وينال ثوابهُ من ذاك الذي قال بما انكم فعلتموهُ باحد هؤلاء الاصاغر فبي فعلتم"

لا شيء يؤثر في الاخلاق مثل القدوة لان البشر مائلون طبعًا لكي يقتدوا بمن حولهم في العوائد والاخلاق والاراء وان لم يقصدوا

ذلك . نعم ان الانذارات الحسنة تفعل كثيرًا ولكن القدوة الحسنة تفعل اكثر لانها مهذب عامل . ومن ينذر بكلامهِ وهو فاسد السيرة كمن يبني بيد ويهدم باخرى . لذلك كان اختيار الرفاق من الناس الافاضل في سن الصبوة خصوصًا امرًا ضروريًّا لان في الشبان قوة خفية تجعلهم يتخلقون باخلاق رفقائهم ولله در القائل

عن المرء لا تسأَل وسل عن قرينهِ فكل قرين بالمقارن يقتدي

وهذا الامر قد اوجب مستر ادجورث ان يقول اما رفقة حسنة واما الانفراد . وما احسن ما قالهُ المثل اسأَل عن جارك قبل دارك وعن رفيقك قبل طريقك . قبل كتب اللورد كُلِنْوُد الى صديق لهُ من الشبان يقول الانفراد خير من مرافقة ادنياء القوم فلا تصاحب الا من كان مثلك او اعلى منك لان الانسان يعرف باصحابهِ . وقد آلى السر بطرس لِلي المصور على نفسهِ ان لا ينظر الى صورة فاسدة بارادتهِ خوفًا من ان يكتسب قلمهُ منها شيئًا يفسد ذوقهُ . وهكذا نقول ان من نظر الى شخص فاسد لا يلبث ان يكتسب منهُ شيئًا يضر بهِ . قال الحكيم المسائر الحكماء يصير حكيمًا ورفيق الجهال يضر فعلى الشبان ان يعاشروا افاضل القوم فيقتدون بهم. قال فرنسيس هرنر عما استفادهُ من معاشرتهِ رجالًا من العقلاء لا يسعني ان انكر انني استفدت منهم افادةً عقلية اكثر مما استفدت من كل الكتب التي تصفحتها في حياتي . قيل ان اللورد شلبرن زار وهو فتى الفاضل ملشرب واستفاد

من هذه الزيارة فائدة عظيمة حتى انهُ قال فيما بعد انني قد جلت في بلدان كثيرة ولم استفد من مخلوق بمقدار ما استفدتهُ من تذكري بمسيو ده ملشرب . وفول بكستون كان من اسرع الناس اقرارًا بفضل عائلة كرني عليهِ لانها ربت فيهِ كل صفاتهِ الحميدة حتى ان نجاحهُ في حياتهِ توقف بنوع خاص على الاخلاق التي اكتسبها مدة اقامتهِ بين تلك العائلة

الالتصاق بالافاضل يورث الفضل كما ان السيَّاح تتعطر ثيابهم من ارج النباتات التي يمرُّون بينها. فان الذين يعرفون يوحنا سترلن مثلاً يقولون انهُ لم يجالسهُ احد الاَّ استفاد منهُ . وكثيرون مديونون لهُ لانهم بواسطتهِ انتبهوا الى رفع شانهم. قال فيهِ مستر ترنتش انهُ لمن المحال ان نقترب منهُ الاَّ وتشعر ان افكارك قد ارتقت ارتقاء عجيبًا وهذا هو فعل العقول العجيب بعضها ببعض . وبين الموسيقيين والمصورين فعل وانفعال مثل هذا قيل ان هيدن سمع هندل يغني فاضطرمت في فوادهِ رغبة شديدة في الغنا. ولما كان نرثكوت فتًى رأى المصور رينلدس في محفل فاخترق الجمع المزدحم الى ان وصل اليهِ ولمس هدب ثوبهِ . قال انهُ لما فعل ذلك ارتاح قلبهُ

ومن ينكر ان قدوة الابطال تلقي في قلوب الجبناء شجاعة حتى ان الرجال المتوسطي القوة قد فعلوا العجائب لان فوادهم كانوا ابطالاً بسلاً. قيل ان زسكا اوصى بجلدهِ ان يصنع طبلاً لكي

يحرك شجاعة البوهيميين . ولما مات اسكندر بك امير ابيروس
طلب الاتراك عظامهُ لكي يحمل كلٌّ منهم جزءًا منها حفاظ قلبهِ
حتى يكون لهُ شيءٌ من شجاعتهِ المشهورة. ولما كان البطل دكلس
في اسبانيا رأى واحدًا من فرسانهِ محاطًا بالمسلمين وقد سدوا عليهِ
طرائقهُ فنزع ذخيرة قلب بروس من عنقهِ وطرح بها في وسط
العدو صارخًا حارب وانتصر حسب عادتك فسانبعك او اموت
قال هذا وهجم الى حيث سقطت الذخرة ولم يرتد حتى قُتل .

وفائدة ترجمات البشر ذكر الرجال الذين يحق ان يقتدى
بهم فانا نرى فيها اباءنا احياء في سير حياتهم وفي الاعمال التي
عملوها نعم ولم يزالوا امامنا يحثوننا على المعروف وينهوننا عن المنكر.
ومن مات وترك مثالاً حسنًا فقد ترك لنسلهِ وغيرهم افضل تركة
وستبقى اثمارها مدى الايام. فانفع الكتب كتاب يتضمن حياة رجل
فاضل . وهناك كتاب اسمى من كل كتاب يتضمن حياة شخص
افضل من كل شخص دخل هذا العالم وقدوتهُ افضل من كل
قدوة وهي تناسب جميع الناس على اختلاف درجاتهم وبها يجب
ان نقتدي واثرها يجب ان نقتفي وان لم نرَ صاحبها ولم نساكنهُ

كنبتةٍ لم ترَ شمس الضحى ابدًا تستقبل النور ثم نقتفي الاثرا

وقلَّ من يقرأ سيرة بعض الرجال الافاضل مثل بكستن وارنلد
الَّا ويشعر كانَّ حياة جديدة قد دخلت عقلهُ وقلبهُ وكثيرًا ما
يحدث ان سيرًا كهذه تنبه القوى الخاملة فينتبه الانسان الى ذاتهِ

ويرى ان فيهِ موهبة لبعض الامور وهو غير شاعر بها كما حدث لكرجيو لما قرأ موافات ميخائيل انجلو . وقد شهد السر صموئيل رومِلي في تاريخ حياتهِ انهُ تاثر كثيرًا بقراءة سيرة الفاضل داكسُّو الفرنساوي . وقد نسب فرنكلين شهرتهُ ومنفعتهُ الى قراءتهِ مقالات كتن ماثر . وصموئيل درو يقول انهُ درب حياتهُ على انموذج فرنكلين . فانظر كيف يتصل فعل القدوة الحسنة بالتسلسل ولا يمكننا ان نحكم اين تكون نهايتهُ اذا كانت لهُ نهاية لذلك علينا ان نختار الكتب الفضلى ونقتدي بالشيء الاحسن فيها كما انهُ علينا ان نختار العشراء الافضلين . قال اللورد ددلي اني مغرم بالاقتصار على الكتب المفيدة التي طالعتها وعرفت فائدتها واشهد ان قراءة كتاب عتيق ثانيةً افضل من قراءة كتاب جديد اولاً وان لم تكن الذ

ويحدث احيانًا ان ياخذ انسان كتابًا ما لمجرد التسلية فيرى فيهِ سيرة تؤثر فيهِ تاثيرًا بليغًا وتنبه فيهِ قوة كانت خاملة لان الفياري مال الى الانشاء بقراءة سير بلوتارخ . ولويلا لما كان في الجند انجرح في حصار بمبلونا جرحًا بليغًا في رجلهِ ونقل الى المستشفى فطلب كتابًا يتسلى بهِ فدفع اليهِ كتاب حياة القديسين فتأثر تاثيرًا بليغًا من مطالعتهِ حتى انهُ عزم من ذالك الوقت ان ينشيء طغمة دينية جديدة . ولوثر تحرك الى الاصلاح بقراءة سيرة يوحنا هس . والدكتور ولف تحرك الى التبشير بقراءة حياة فرنسيس زفير .

وليم كاري انبعث الى فوائده اول ميل الى التبشير بقراءة اسفار القبطان كوك. وكان من عادة فرنسيس هُرنران يذكر في مفكرته ومكاتيبهِ اسماء الكتب التي استفاد منها اكثر ما يكون ومن جملة ما ذكرهُ ترجمة هلر لكندُرْسَت ومحاورات السر يوشيا رينلدس ومولفات باكون وسيرة السر متى هال لبرنت فهذه الكتب ولا سيما الاخير حركت نشاطهُ بل اضرمتهُ غيرةً واجتهادًا ولقد قال عن ترجمة هلر انني لا اقرأُ سيرة اناس مثل هذا الّا واشعر بنوع من خفقان القلب ولا اعلم الى اي شيء انسبهُ أ الى الاندهال ام الى الطمع ام الى الياس. وقال عن محاورات السر يشوع رينلدس ما من كتاب بعد كتب باكون اقتاد ني الى تهذيب ذاتي مثل هذه المحاورات . واني اعدُّ الرجل الذي يظهر للعالم كيفية البلوغ الى العظمة من احكم الناس . وهذا شان هذا المولف وهو يثبت ان البشر قادرون على عمل كل شيء يجتهدون فيهِ اثباتًا يضطر القارئَ الى الاعتقاد بان الموهبة الفائقة ليست هبة خاصة ببعض الناس بل ملكة مكتسبة والجميع قادرون على نوالها . ومن الغريب ان السر يوشيا نفسهُ تحركت فيهِ محبة التصوير بقراءتهِ سيرة واحد من مشاهير المصورين لرتشردصن وكذلك تحركت محبة التصوير في هيدن بقراءتهِ سيرة رينلدس هذا. فكانت سيرة الواحد شعلة لاضرام قوى الآخر وبعثها في سبيل المجد. واذا دققنا النظر رأَينا في العالم سلسلة غير منقطعة من الناس الذين تمثلوا

بمن قبلهم وكانوا مثالاً لمن بعدهم ،

ومن الامثلة التي يمكنا ان نعرضها على الشبان ليقتدوا بها مثال العامل المسرور بعملهِ لان السرور زيت النفس يسهل حركتها ويزيد لدونتها وبهِ تحلل المصاعب ويزداد الرجاء وتستغنم الفرص . والروح الحارة دائمًا مسرورة ونشيطة وتعمل اعمالها بسرور وتحرك الغير الى الاقتداء بها وترفع شان احقر المصالح . وافضل الاعمال وافعلها العمل الذي يعملهُ الانسان من قلبهِ ويعملهُ بسرور . كان من عادة هيوم ان يقول انهُ يفضل الطبع المائل الى السرور على عقار دخلهُ عشرة الاف ليرة مع طبع مائل الى الغم . وگرنفيل شرب كان يسلي نفسهُ في وسط اتعابهِ الشاقة في امر تحرير العبيد باللعب على آلات الطرب والرسم . وفول بكستن كان دائمًا جزلاً وكان يشترك مع اولادهِ في اللعب وركوب الخيل . والدكتور ارلند كان يفرح بكل اعمالهِ وكل ما عملهُ عملهُ بكل قلبهِ . قيل في ترجمتهِ " ان اغرب ما كان في للهام حيث كان يعلم نشاط من فيها وهمتهم حتى ان كل من دخلها رأى ان اهلها عاملون عملاً عظيمًا وكل تلميذ مشترك بهِ وسعادتهُ وراحتهُ موقوفتان على اتمامهِ نصيبهُ منهُ . وكلٌّ منهم مسرور سرورًا لا يوصف لكونهِ عاملاً عملاً نافعًا وقلبهُ مشغوف بعملهِ الذي علمهُ ان يعتبر الحياة والعمل المعيَّن لها . واساس كل ذلك استقامة ارنلد وحسن ارشادهِ واعتبارهُ للعمل . ولم يصدر ذلك عن

هوى ولا عن ميل لعمل دون آخر بل عن شعور عميق ثابت ان العمل من واجبات الانسان وهو الغاية من قواه المختلفة والميدان الذي نروض فيه طبيعتنا ونترقى فيه نحو السماء"

لم يقم في هذه الدنيا على ما نظن رجل افاد اهله وجيرانه بسيرته واجتهاده الممزوج بالسرور اكثر من السر يوحنا سنكلر كان لهذا الرجل املاك متسعة في شمالي سكتلندا اتصلت اليه بالارث من ابيه الذي توفي قبلما بلغ يوحنا اشده . ولما بلغ الثامنة عشرة اخذ يصلح املاكه بنشاط لم يسبقه اليه احد فامتدت اصلاحاته حالاً في كل سكتلندا . وكانت الزراعة حينئذٍ في حالة يرثى لها لان الحقول كانت تغمر بالمياه مدة طويلة . وكان الفلاحون في غاية المسكنة ولم يمكنهم ان يشتروا شيئاً من الدواب بل كانت نساؤهم تحمل كل الاحمال حتى ان من احتاج دابة كان يتزوج بامرأة . وكانت البلاد بدون طرق والانهار بدون قناطر والطريق الفضلى لكثنس في لحف جبل قائم يشرف على البحر والسلوك عليها حولاً الى الغاية فعزم على فتح طريق اخرى من فوق اكمة بن شلت فازدرى به اصحاب الاملاك وهسوا ذلك محالاً ولكنه جمع نحو الف ومئتي رجل واقتادهم الى هذا العمل العظيم بنفسه وقبل ان خيم الليل فتح طريقاً طولها ستة اميال تسير فيه المركبات بسهولة مع انه كان يتعسر سلوكه على المعزى من قبل فاندهل منه الجميع وانقادوا الى رايه ثم تقدم في

فتح الطرق واقامة المطاحن وبناء القناطر على الانهر وحسن حال الزراعة بزرع الارض انواعًا عديدة بالتعاقب واعطاه الجوائز تشجيعًا للمجتهدين فاحيا الهيئة الاجتماعية في كل البلاد المجاورة له حتى صارت جنة يضرب بها المثل في الخصب وحسن الطرق . ولما كان سنكلر حدثًا كان البريد يحمل مرةً في كل اسبوع ولكنهُ عزم على جعلهِ يحمل كل يوم وفي اول الامر لم يصدق احد بامكان ذلك حتى صار قولهم لما يرى السرجون البريد في ثرسو يوميًّا مثلاً يضربونهُ للمستحيل او البعيد الوقوع ولكنهُ لم يمت حتى رأى البريد في ثرسو يوميًّا

ثم اتسع نطاق اعمالهِ المفيدة لانهُ لما رأى انحطاط الصوف الانكليزي الذي هو فرع معتبر من تجارة البلاد عزم ان ياخذ على نفسهِ اصلاح ذلك ولم يمضِ عليهِ الاَّ مدَّة قصيرة حتى انشأَ مجمع الصوف البريطاني وجلب ثماني مئة راس غنم على نفقتهِ من البلدان البعيدة وكانت النتيجة ادخال الجنس الشفيوتي الى سكتلندا واول ما عرض هذا الامر استهزأَ بهِ مربو المواشي زاعمين انهُ لا يمكن لمواشي البلدان الجنوبية ان تنمو في الشمال ولكنهُ لم يبالِ بهم بل اصرَّ على اتمام ما قصدهُ ولم يمضِ الاَّ سنون قليلة حتى صار في البلاد ما ينيف على ثلث مئة الف راس من الغنم الشفيوتية فارتفعت اسعار الاراضي الجيدة للرعاية ارتفاعًا بليغًا . واماكن كثيرة لم تكن تنفع شيئًا صارت ذات دخلٍ وافر

ثم انتُخب عضوًا للبرلمنت لمقاطعة كتنس وبقي في هذه العضوية ثلاثين سنة فصارت لهُ فرص كثيرة لاظهار فوائدهِ . ولما رأى مستر بت الوزير مواظبة السر يوحنا واجتهادهُ في كل امر مفيد للجمهور دعاهُ وعرض عليهِ مساعدتهُ في كل امر ارادهُ فلو كان رجل غير السر يوحنا اطلب شيئًا لهُ فيهِ نفع ولكنهُ اجابهُ على الفور انني اطلب مساعدتك في انشاء مجمع وطني للزراعة . ويروى ان ارثر يَن تراهن مع السر يوحنا على ان هذا الامر لا يتم ابدًا وهذا كلامهُ حرفيًا "ان مجمع الزراعة الذي تحلم بهِ سيكون في القمر" ولكن السر يوحنا اخذ في هذا الامر بهمتهِ المعتادة فحرك ميل الجمهور واكثر اعضاء البرلمنت ولم ينفك عن عزمهِ حتى انشأ هذا المجمع وانتخب لهُ رئيسًا ونتائج هذا المجمع وفوائدهُ اوضح من ان تبين واكثر من ان تعد . ثم وجه اهتمامهُ ايضًا الى امر صيد الاسماك . ولما سمع ان فرنسا عازمة على الحملة على انكلترا عرض على مستر بت تجهيز كتيبة من الجند على نفقتهِ ثم مضى الى الشمال وجرد نحو الف محارب تطوعًا وكانت هذه الكتيبة من افضل الجنود واستلم قيادتها وكان حينئذٍ مديرًا لبنك اسكوتلاندا ورئيس لمجمع الصوف البريطاني وحاكمًا لوك ومديرًا لمجمع صيد السمك البريطاني وعضوًا في مجلس القوائم الدولية وفي البرلمنت لمقاطعة كتنس ورئيسًا لمجمع الزراعة وفيما كان يشتغل في هذه الاشغال الكثيرة التي لا يقوم بها رجلان ولا ثلاثة وجد وقتًا لتأليف

كتب تكفي وحدها لتخليد اسمهِ . قال مستر رش سفير اميركا في لندن انهُ سأل مستر كك الملكهامي ما افضل كتاب في الزراعة فاجابهُ كتاب السر يوحنا سنكلر ثم سال مستر فنسترت ما افضل كتاب في مالية الدولة الانكليزية فهداهُ الى كتاب للسر يوحنا في هذا الموضوع . ولكن الكتاب الذي خلّد ذكرهُ اكثر من غيرهِ هو كتابهُ في حالة سكوتلاندا السياسية والمالية في واحد وعشرين مجلدًا وهو من افضل ما سمحت بهِ قريحة انسان في كل ابن وآن وقد قضى في تاليفهِ ثماني سنوات قرأ في غضونها اكثر من عشرين الف مكتوب تخص موضوع هذا الكتاب . ولم يكن لهُ منهُ فائدة شخصية قط سوى شرف الاسم لانهُ وهب دخلهُ لتهذيب اولاد القسس الاسكتلنديين . ولقد نتج من طبع هذا الكتاب نتائج كثيرة حميدة منها الغاء بعض الامتيازات المضرة بصالح الجمهور ورفع اجرة القسوس والمعلمين وترقية شان الزراعة . ثم قصد ان يباشر في عمل اعظم من هذا وهو جمع كتاب شبه الاول في احوال انكلترا السياسية والمالية فلم يوافقهُ رئيس اساقفة كنتربري مخافةً ان يتعرض لاعشار القسوس

ومن الامور الكثيرة التي تظهر علو همتهِ ومضاء عزيمتهِ الحادثة الآتية . وهي انهُ في سنة ١٧٩٣ توقف دولاب الاعمال بواسطة الحرب فافلس كثير من تجار منشستر وكلاسكو واضحت بيوت كثيرة عظيمة على حافة الافلاس لقلة مقتنياتها بل لانغلاق باب

التجارة والامانة فارتأى السر يوحنا في البرلمنت ان تخرج اوراق دولية بقيمة خمسة ملايين ليرة وتدان للتجار الذين يقدرون ان يقدموا كفالة فقُبِل هذا الراي وخوّل مع بعض الاعضاء الذين انتخبهم بنفسهِ اتمام هذا العمل وكان الوقت حينئذٍ ليلاً وبما انهُ خاف من تاجيل الامر قام صباحًا ومضى الى الصيارفة واستقرض منهم بكفالتهِ سبعين الف ليرة وارسلها في ذلك اليوم الى التجار الذين هم في اكثر احتياج . ثم التقى مستر بت الوزير بالسر يوحنا في المجلس واخذ يلومه لانهُ لا يمكن ان تفرج منشستر وكلاسكو في وقت قصير كما كان يظن زاعمًا انهُ يلزم عدة ايام لجمع الدراهم اللازمة فاجابهُ السر يوحنا ان الدراهم قد مضت من يومين ثم قصّ عليهِ واقعة الحال فانذهل بت كل الانذهال او كما قال السر يوحنا انهُ ارتعد كمن طعن في صدرهِ . وما زال هذا الفاضل آخذًا في اعمالهِ باجتهاد وسرور الى آخر حياتهِ صائرًا مثالاً حسنًا لعائلتهِ ولاهل بلادهِ بل شامةً في وجنة بريطانيا . وقد احرز خير نفسهِ وهو يطلب خير غيرهِ لا في الثروة بل بما نالهُ من الفرح وراحة الضمير والسلام الذي يفوق كل عقل وتمم واجباتهِ لوطنهِ ولم ينسَ واجباتهِ لاهل بيتهِ . وبنوهُ وبناتهُ ارتقوا في درجات المجد . واعظم ما كان يفتخر بهِ عند ما ناهز الثمانين انهُ ربى سبعة بنين وما منهم من استدان مالاً لا يقدر على ايفائهِ او احزن اباهُ بعمل شيءٍ وكان يمكنهُ تجنبهُ

الفصل الثالث عشر

في الادب

قالت جريدة التمس ان ما يرفع البلاد و يقويها و يعظمها ويمد سطوتها المادية والادبية ويجعلها معتبرة مطاعة ويخضع تحتها امماً وممالك هو الادب مبدأ الطاعة واساس العظمة وتاج الرياسة وعرش السلطنة وصولجان القوة.

الادب تاج الحياة ومجدها وافضل ما يملكهُ الانسان وهو الشرف بالذات والمال بالاعتبار . هو الذي يرقي الامة ويرفع شان جميع المناصب ويفعل اكثر من الثروة ويشرف اكثر من الشهرة وليس تحت الخطر مثل الاولى ولا عرضة للحسد مثل الثانية. وتاثيرهُ فعّال لانهُ نتيجة الصدق والاستقامة والثبات والصفات التي يعتبرها الجميع اكثر من اي صفة كانت . والادب هو الطبيعة الانسانية في افضل معانيها واحسن مبانيها واهلهُ روح الهيئة

الاجتماعية ومصدر قوّة الدولة الحسنة السياسة لان الصفات الادبية هي الحاكمة على الكون . قال نبوليون ان نسبة فائدة القوى الادبية في الحرب الى القوى الجسدية كنسبة عشرة الى واحد . وقوّة الامم واجتهادهم وتمدنهم تتوقف على ادب افرادهم . وما الشرائع والاحكام سوى ظواهر الادب . وميزان الطبيعة العادل لا يعطي للافراد والامم والشعوب الاّ ما يستحقونهُ فالحسن الادب يجازى بالحسن والعكس بالعكس وتلك نتيجة ضرورية لا مفر منها. الادب صفة تعصم من قامت بهِ عمّا يشينهُ فان كان الانسان قليل العلم والثروة ولكن اديبًا كان لهُ نفوذ في كل مكان في المعمل وفي المخزن وفي المكتب وفي الديوان . كتب كَنِن سنة ١٨٣٠ يقول سبيلي الى القوّة انما هو في الادب ولست بسالك سبيلاً آخر واقر انهُ ليس السبيل الاقرب وانما هو الاثبت . اننا نفتخر بذوي العقول الحاذقة ولكنّا لا نتكل عليهم ما لم نرَهم ادباء ولقد اصاب اللورد يوحنا رسّل اذ قال ان من طبيعة الاحزاب في لندن ان يستعينوا بذوي العقول الحاذقة ويتبعوا ارشاد ذوي الآداب الحسنة ولقد ظهر ذلك ظهورًا جليًّا في حياة فرنسيس هُرنَر الذي قال فيهِ سدني سمث ان الوصايا العشر كانت مطبوعة على جبينهِ . وتوفي هرنر يافعًا في الثامنة والثلاثين ولكن كان محبوبًا وموءتمنًا من الجميع وما من احد الاّ وقد تاسف عليهِ ما عدا الانذال ولم يقم البرلمنت اكرامًا لعضوٍ وقت وفاتهِ كما اقام لهذا

الرجل ما هو سبب ذلك أشرفهُ . كلاّ . لان اباهُ كان تاجرًا متوسط الحال . أغناهُ . كلاّ . لانهُ لم يُعرَف عنهُ ولا عن واحد من اقاربهِ انهُ فاض معهُ درهم واحد . أمناصبهُ . كلاّ . لانهُ لم يكن لهُ الاّ منصب واحد واقام فيهِ مدة قصيرة وكانت اجرتهُ طفيفة . أذكاؤهُ . كلاّ . لانهُ لم يكن ذكيًا بل حذورًا بطيئًا ولم يطمع الاّ بالاستقامة . أفصاحتهُ . كلاّ . لانهُ كان يتكلم بهدوّ وسكينة ولم يكن في كلامهِ شيءٌ من الفصاحة التي تذهل السامعين . أسحر معانيهِ . كلاّ . لانهُ كان كغيرهِ من الناس . فبماذا اذًا . بعقلهِ واجتهادهِ وحسن مبادئهِ وصفاء قلبهِ الصفات التي يقدر على كسبها كل انسان سليم العقل . فلم يرتقِ الاّ بحسن آدابهِ ولم تكن آدابهُ وضيعة فيهِ بل مكتسبة وهو الذي اكسبها لنفسهِ . وكان في مجلس العامة اناس كثيرون اجود منهُ عقلاً واكثر فصاحةً ولكن ما من احد منهم فاقهُ في الجمع بين مقدار كافٍ من جودة العقل والفصاحة مع الآداب وقد ولد هذا الرجل لكي يظهر مقدار ما تفعلهُ القوى المعتدلة وهي غير معززة الاّ بالتهذيب والاستقامة

وفرنكلين الاميركاني نسب نجاحهُ الى حسن آدابهِ لا الى قوى عقلهِ ولا الى فصاحة لسانهِ وقال عن نفسهِ انني ركيك العبارة متردد في اختيار الكلمات كثير الغلط اللغوي . ولكن الادب يجعل مَن في المناصب العالية اهلاً لان يوثق بهم فانهُ

يقال عن اسكندر الاول امبراطور روسيا ان آدابهُ كانت بمثابة نظام من الشرائع . وفي ايام حروب الفرند لم يبقَ احد من اشراف فرنسا فاتحًا ابوابهُ الاَّ منتاني ويقال ان آدابهُ الشخصية كانت افضل لحمايتهِ من كتيبة من الفرسان

والادب قوَّة ويصدق عليهِ هذا الوصف اكثر مما يصدق على المعرفة . والذهن بلا قلب والعقل بلا سلوك والاجتهاد بلا صلاح جميعها قوات ولكن كثيرًا ما تكون قوات للشر وقد نستفيد منها ولكنَّ من يمدحها اذا كانت كذلك كمن يمدح اللص على حذاقتهِ وقاطع الطريق على فروسته

والصدق والاستقامة والصلاح هي جوهر الادب ومن اجتمعت فيهِ هذه المناقب واحتوى ايضًا على قوة العزم كان ذا قوة لا تقاوم وقوي فيهِ فعل الخير ومقاومة الشر واحتمال البلايا المختلفة والمصاعب المتنوعة بالصبر الجميل . يروى انهُ لما وقع استفانوس الكولوني في يد اخصامهِ سالوهُ على سبيل التهكم اين حصنك المنيع فوضع يدهُ على قلبهِ وقال "هنا" وافضل فرصة لظهور الآداب ازمنة الضيق والشدائد فانها تظهر حينئذٍ بكل بهائها وتثبّت الانسان على كمالهِ واستقامتهِ حينما يخذلهُ كل صاحب وتفرغ يدهُ من كل حيلة . وفي الخطوب تظهر الجواهرُ

ومما يستحق ان ينقش على قلب كل شاب قواعد السلوك التي جرى بموجبها اللورد ارسكن المشهور باستقامة السيرة وعلو

الكلي لمناقبك الحميدة سميت ولدًا من اولادي باسم عائلتك .
فاجابهُ شرب يقول "اطلب اليك ان تعلم ابنك قاعدةً تجري
بموجبها العائلة التي سميتهُ باسمها وهي اجتهد لكي تكون كما تريد ان
تظهر . فقد اخبرني ابي ان اباهُ جرى بموجب هذه القاعدة فكان
اساس اخلاقهِ الاخلاص والبساطة والاستقامة" وكل من يعتبر
نفسهُ ويعتبر غيرهُ يجري بموجب هذا القانون واضعًا شرف نفسهِ
نصب عينيهِ غير مفتخر بشيءٍ الاَّ باستقامتهِ ومروَّتهِ لان مَن خالف
عملهُ قولَهُ خسر اعتبار الناس لهُ والغي كلامهُ ولو كان حقًّا محضًا
ولله درّ القائل

لا تنهَ عن خلقٍ وتاتي مثلهُ   عارٌ عليكَ اذا فعلتَ عظيمُ

ومن طابت سيرتهُ وحسنت سريرتهُ لم يحد عن سبيل الاستقامة
لا سرًا ولا علنًا . قيل سُئِل ولد لِمَ لم تاخذ شيئًا من ذلك الاجاص
ولم يكن هناك احد ليراك فقال بلى كان . فقيل لهُ ومن قال
كنت انا هناك ولا ارغب في ان اراني ارتكب القبيح . هنا ما
يدعى ضميرًا او ذمةً وهو يحكم على آداب الانسان في الحض على
الخير والنهي عن الشر وبهِ تتدرب الاخلاق يومًا فيومًا واذا خلا
الانسان منهُ لم يكن لاخلاقهِ من مدرّب ولا حافظ بل استولى
عليها الضعف وكانت تحت خطر الخضوع للتجارب . واذا خضعت
لها ولو مرةً واحدةً صارت عرضة للخضوع لها دائمًا وآل الامر الى
انحطاط شأن صاحبها . ولا فرق اشهر امرهُ ام لم يشهر لانهُ لا بد

من ان يشعر بنفسهِ بالذل واضطراب البال من تلقاء ما تدعوهُ بالضمير الذي هو اشد معذّب للمذنبين

ثم ان الآداب متوقفة كثيرًا على العوائد حتى قيل ان الانسان حزمة من العوائد والعادة طبيعة ثانية. قال ميتستاسيو كل ما في الانسان ناتج من العادة حتى الفضيلة نفسها . وقال بتلر كما ان عوائد الجسد تكتسب بالاعمال الخارجية كذلك عوائد العقل تكتسب بالمقاصد الداخلية كالطاعة والصدق والعدل والمحبة اي باخراجها الى حيز الفعل. وقال اللورد بروّم كل شيء موكولٌ الى العادة بعد الله تعالى . العادة تسهل كل امرٍ عسير وتدك الصعوبات ولو كانت جبالاً . فمن تعوّد الصحاء كره السكر ومن تعوّد الحكمة والرصانة كره الجهل والطيش . فعلى كل احدٍ ان يسهر كل السهر لكيلا يدع عادة رديئة تغلب عليهِ لانهُ ان انغلب ولو مرةً واحدة صار عرضة للانغلاب دائمًا . ومن اعتاد امرًا صار فيهِ ملكة وصار يفعلهُ بدون روية وعن غير قصد ولم يعرف قوة العادة التي فيهِ حتى يضادها. وما فعل مرةً وثُنّي صار فعلهُ سهلاً والانقطاع عنهُ صعبًا . والعادة في اولها ضعيفة اوهن من خيط العنكبوت ولكن متى تملكت في الانسان قيدتهُ بسلاسل حديدية

واعتبار الذات والتعويل عليها والانصباب والاجتهاد والاستقامة جميعها عادات . وما يدعوهُ البعض مبادئ ليس الاَّ

عوائد. وكلما تقدم الانسان في السن تملكته العوائد ونزعت قسمًا كبيرًا من حرّيتهِ بل قيدتهُ بسلاسل صنعها لنفسهِ. فمهما اطنبنا في وجوب تربية الاولاد على العوائد الحسنة لا نفي الموضوع حقهُ لان الصبوة افضل سن لتربية العوائد فان العوائد الراسخة في الصغر كالحروف المنقوشة على جذع شجرة صغيرة تكبر وتتسع بنموها. قال الحكيم ربِّ الولد في طريقهِ فمتى شاخ لا يحيد عنها. ومن البداية تعرف النهاية. قال اللورد كُلنُود لشاب يحبهُ لا تنسَ انك قبل ان تبلغ الخامسة والعشرين يجب ان تربي فيك آدابًا تعتمد عليها كل حياتك. وبما ان العوائد تتمكن بالتقدم في السن يصعب تركها شيئًا فشيئًا. لذلك يقال ان البناء اعسر من الهدم. يروى ان مغنيًا يونانيًا كان اذا اتاهُ تلميذ تعلم شيئًا من الغناء على استاذ غير بارع طلب منهُ اجرة مضاعفة. ونزعُ العوائد المتمكنة اصعب من نزع الاسنة. فمن اعتاد السكر مثلاً او الكسل او الاسراف لا يرجى اصلاحهُ لان العادة تكون قد تمكنت منهُ وامتزجت فيهِ كل الامتزاج حتى لا يرجى استئصالها لذلك قال مستر لنتش ان افضل العوائد عادة التطبع على العوائد الحسنة

والسرور نفسهُ قد يصير عادة لان لكل امرٍ طرفين مسر ومكدر ومن الناس مَن يعتاد النظر الى هذا ومنهم النظر الى ذاك. قال الدكتور جنصن ان من اعتاد النظر الى الطرف المسرّ كان ذلك خيرًا لهُ من كسب الف ليرة سنويًا. وما من شيء الزم

من التطبع على الآداب فانهُ الزم من التثقيف في العلوم والفنون . ومهما كانت افعال الانسان طفيفة فلا بد من انها تظهر آدابهُ كما ان الثقوب الصغيرة تكفي لاظهار شروق الشمس . وما الآداب سوى الاعمال المستقيمة ولو مهما كانت طفيفة في حد ذاتها . وافضل طريق لاظهار كونها محمودة او مذمومة هو السلوك لان مَن احسن سلوكهُ مع المساوين له والاعلى والادنى تمتع بسرور دائم وسرَّ غيرهُ معهُ . وكل انسان قادر على تحسين سلوكهِ واظهار اللطف ورقة الجانب وان لم يملك فلسًا. واللطف في المعاشرة فاعل خفي كالنور وهو واسطة لاظهار بهجة الطبيعة واسرار الابصار مثلهُ ومن اقوى المؤثرات فلا يقوى شيءٌ على مقاومتهِ . وكم من القلوب المنكسرة قد انتعشت بنظرة واحدة من وجهٍ بشوش

الآداب والاخلاق اهم من الشرائع لان الشرائع لا تتبعنا دائمًا واما الآداب والاخلاق فمعنا في كل حين . والاخلاق الحميدة هي ذات السلوك الحسن لان السلوك لغةً تطهير العبد نفسهُ عن الاخلاق الذميمة مثل حب الدنيا والجاه الى غير ذلك واتصافهُ بالاخلاق الحميدة مثل العلم والحلم واللطف والكرم وما اشبه. قالت السيدة منتاكي رقة الجانب لا تكلف شيئًا وتربح كل شيء وقال برلي للملكة اليصابات امتلكي قلوب رعاياكِ فتمتلكيهم هم واكياسهم . ولكن يشترط ان لا يكون في ذلك شيءٌ من التصنع والاَّ فسد كلهُ . ومن الناس من يفتخر بشراسة اخلاقهِ وقد يكون

من ذوي العلم والفضل ولكنهُ لا يطاق لان الانسان لا يحب من لا يعتبرهُ ولا من يتكلم كلاماً لا يسرهُ. ومنهم من يتنازل كل التنازل ولكن بتصنع كليّ وتراهُ لا يدع فرصة تظهر عظمتهُ الاَّ ويستغنمها . من ذلك ما يروى عن ابرنثي الجراح انهُ كان مرةً يكتتب اسماء الذين يرغبون في ان يكون طبيباً لمستشفى مار برتلماوس فاتى رجلاً غنياً لكي يكتتب اسمهُ وحالما وصل الى حانوتهِ لاقاهُ ذلك الغني بعجب وافتخار وقال لهُ اظنك آتياً لتكتتب اسمي لكي يمكنك ان ترتقي الى هذا المنصب السامي . وكان برنثي يكره التمليق والتمنين فقال لهُ كلاَّ بل مرادي ان ابتاع كذا وكذا هلمَّ اعطني مطلوبي ودعني اذهب في سبيلي

وحسن السلوك ضروري جدًّا للذين عليهم المعاطاة مع غيرهم على انهُ اذا بولغ فيهِ صار تصنعاً قبيحاً .والبشاشة والاقتراب من الناس ضروريان للنجاح ايضاً لان من كان فاقدًا هاتين الصفتين لا يؤمَّل نجاحهُ كثيرًا ولو كان مجتهدًا اميناً لان اكثر الناس يحكمون على الظواهر اكثر مما يحكمون على البواطن . ومن اوجه اللطف اعتبار اراء الغير وعدم التنديد بها فانهُ ما من خلة اقبح من التصلف والاستبداد بالراي والادعاء والتنديد بعيوب الناس ولولا هذه الصفات ما وقع شي من الجدال والخصام وطعن اللسان وما اجهل مَن استعمل لسانهُ آلةً للطعن والتنديد

فان لسان المرءِ ما لم تكن لهُ حصاة على عوراتهِ لدليل

والادب لا ينحصر بفيئة من البشر بل يمكن ان يتصف به العامل الفقير والامير الخطير. قيل ان روبرت برنس التقى بفلاح اديب فسلم عليه وكان برفقة برنس شريف اسكتلندي فلامهُ على ذلك فالتفت اليه برنس وقال اني لم اعتبر اللباس بل الرجل الذي فيه فان هذا الرجل اثمن مني ومنك ومن عشرة مثلنا

كان وليم وتشارلس كرنت ابني فلاح فطاف الماء على املاكهما وسحا كل شيء حتى تراب الارض التي كانا يعيشان منها فقاما مع ابيهما واتجها نحو الجنوب في طلب الرزق وما زالوا في سيرهم حتى وصلوا الى تلة بالقرب من بري في لنكشير تشرف على ما حولها من البلاد الفسيحة ولم يكونوا يعرفون الى اي جهة يتجهون لانهم كانوا يجهلون تلك الارض فاطبق رايهم على ان يوقفوا عصًا ويتركوها لتسقط من نفسها فياخذوا الجهة التي تسقط نحوها ففعلوا واخذوا الجهة التي دلتهم عليها العصا فوصلوا الى قرية رمسبوتام ووجدوا عملًا في دار طباعة المنسوجات واشتهر ذانك الاخوان بالاجتهاد والنزاهة والاستقامة وسارا خطوةً بعد اخرى في سلم النجاح الى ان صار لهما معامل كبيرة واستاجرا عملة كثيرين يعملون تحت يدهما. وبعد سنين عديدة صارا باجتهادهما وتدبيرهما وشهامتهما غنيين مكرمين من كل من يعرفهما وصار لهما معامل في القطن والطباعة فيها عدد وافر من الفعلة حتى اصبحت النواحي

التي نزلا فيها غاية في الخصب وازدادت ثروة الاهالي وتحسنت صحتهم . ولم تكن ثروتها سببًا لتربية البخل فيهما كما يحدث مرارًا كثيرة ولكنها ازداد سخاء وكرمًا فاقاما كنائس واسسا مدارس وفعلا امورًا كثيرة خيرية لرفع شأن الرتبة الدنيا من الناس لانهما لم ينسيا اصلهما. ثم اقاما على راس التلة التي تشرف على ولسلي حيثما وقفا العصا برجًا شاهقًا تذكارًا لتلك الحادثة وما زالا يزدادان شهرة وكرمًا حتى صار يضرب بهما المثل . ويروى ان تاجرًا منشستريًا كتب رسالة طعنٍ وقذف في حقهما فأُخبر احدهما وليم بذلك فقال ان الرجل سيندم على ما فعل فأُخبر الكاتب بما قاله وليم فقال له لعله يظن انني ساستدين منهُ ولكنني ما كنت لافعل ذلك . ثم دار دولاب الزمان وافلس ذلك الرجل وساءت حالهُ ولما اراد ان يشرع في العمل ثانيةً كان عليهِ ان ياخذ كفالة فيها ختم بيت كرنت فظهر له ان ذلك ضرب من المحال ولكن ضيق الحال الجأَهُ الى ذلك فمضى الى محل وليم كرنت الذي هجاهُ بتلك الرسالة وعرض له واقعة الحال واعطاهُ ورقة الكفالة لكي يضع ختمهُ عليها فاخذها وليم وقال له انك كتبت مرة رسالةً في هجائنا ثم ختم الكفالة وقال ان من قوانيننا ان لا نابى وضع ختمنا على كفالة لتاجر امين ولا نعرفك الَّا امينًا فعندها اغرورقت عينا الرجل بالدموع فقال له مستر كرنت ألا ترى ان قولي انك ستندم على ما فعلت كان صحيحًا ولم اقل ذلك على

سبيل التهديد بل عنيت انك ستعرفنا يومًا ما كما نحن وحينئذٍ تندم على قصدك الاضرار بنا فقال نعم نعم قد ندمت فقال كرنت ان ذلك لانك عرفتنا ولكن كيف انت الآن فقال ان لي اصحابًا وعدوني بالمساعدة عند ما احصل على الكفالة فقال كرنت كيف اهلك في الوقت الحاضر فقال الرجل اني بعد ان اعطيت جميع اموالي لاصحاب الديون التزمت ان احرم اهل بيتي بعض الامور الضرورية لكي انال هذه الكفالة فقال كرنت يا صاح لم تصب لانهُ لا يجب على امرأتك واولادك ان يتضايقوا بسببك فالتمس اليك ان تاخذ هذه العشر الليرات مني الى امرأتك فكفكف عبراتك واتكل على الله فستفلح فاجتهد ذلك المسكين لكي يظهر شكرهُ ولكن انقطع صوتهُ وخنقتهُ العبرات فغطى وجههُ بيديهِ وخرج وهو يبكي كالطفل الصغير

والانسان الحقيقي منطبع على المحامد والآداب الحقيقية او كما وصفهُ صاحب الزبور بانهُ يمشي بالاستقامة ويفعل البر ويتكلم الحق في قلبهِ . ويعتبر نفسهُ ويعتبر الآخرين ايضًا ويكون وضيعًا رؤوفًا حليمًا . يحكى عن اللورد ادورد فتزجرلد انهُ بينما كان مسافرًا في كندا مع قوم من هنود اميركا رأى امرأة هندية حاملة حملًا ثقيلًا من الحطب وزوجها ماشٍ فارغًا فاخذ الحمل عنها وحملهُ على ظهرهِ . فهذه هي الانسانية في افضل معانيها .

والانسان الحقيقي يقول المنايا ولا الدنايا وخيرٌ من ركوب

الخنا ركوب الجنازة فلا يختال ولا يحاول ولا يروغ ولا يواري ولا
يكابر ولا يماري ولكنهُ يسير دائمًا بالاخلاص والاستقامة ان قال
نعم او قال لا كان قولهُ حجة بل سنة . الانسان الحقيقي لا يرشى
ولا يبيع نفسهُ بالمال كما يفعل الجهلة الادنياء . يحكى عن ديوك
ولنتون انهُ اتاهُ يومًا وزير بلاد حيدراباد بعد واقعة اسّاي لكي
يستعلم منهُ عن المعاهدة التي جرت بين امراء مهرتّا والنزام وقدم
لهُ مبلغًا من المال يفوق المئة الف ليرا . فالتفت اليهِ الديوك
(وكان لم يزل سارًا) وقال اظنك تكتم السر فقال نعم فقال
وانا كذلك وصرفهُ ولم يقبل منهُ بارة ولم يخبرهُ حرفًا. هنا الشهامة
وعزة النفس ومع ان ولنتون حارب حروبًا كثيرة في الهند وظفر
فيها كلها رجع الى انكلترا وليس معهُ شيء من المال . ومن قبيل
ذلك ما يحكى عن نسيبهِ مركيز ولسلي الذي رفض مئة الف ليرا
قدمها لهُ مدير وشركة الهند الشرقية عند غلبة ميزور وقال لهم
لا يقتضي ان اخبركم عن شيمتي وشهامتي وشرف منصبي الامور
التي تضطرني الى رفض ما تعرضونهُ عليَّ . وممن فعل كذلك
السر تشرلس نبير لانهُ رفض كل الهدايا التي قدمتها لهُ امراء
السند وكانت تنيف على الثلاثين الف ليرا

ولا علاقة للغنى والشرف بالانسانية لانها في الفقراء كما في
الاغنياء او لا يمكن ان يكون الفقير امينًا صادقًا مستقيمًا انيسًا نزهًا
شجاعًا معتبرًا لنفسهِ ومعتمدًا عليها بلى وهذه هي الانسانية بعينها .

وما الفقير فقير المال ولا الغني من يملك الالوف لانهُ قد يكون الانسان فقيرًا ويملك كل شيء وقد يملك كل شيء وليس لهُ شيء والاول يرجو كل شيء ولا يخاف شيئًا والثاني يخاف كل شيء ولا يرجو شيئًا . ومن خسر كل مالهِ وبقيت فيهِ مروَّتهُ وانسهُ وفضلهُ واملهُ وشهامتهُ لم يزل غنيًا وكم من رجل فاضل وثيابهُ اخلاق واسمهُ بين الناس مجهول . حكي انهُ طغى نهر عظيم في ايطاليا فهدم قنطرتهُ ما عدا جزءا منها عليهِ بيت صغير يسكنهُ رجل واولادهُ وكان لا بد من ان ينهدم هذا ايضًا فيهلك ذلك المسكين مع اولادهِ فوقف الكنت سبالڤريني وقال انني اعطي مئة ليرا لمن يخاطر بنفسهِ وينقذ هذه العائلة التعيسة فتقدم فلاَّح من الجمهور الحاضر وانزل قاربًا الى النهر واقتحم الخطر العظيم وبعد برهة يسيرة رجع ومعهُ العائلة باسرها . فقال الكنت هلمَّ ايها الشاب الشجاع وخذ الدراهم فقال الشاب كلاَّ ما كنتُ لابيع حياتي بدراهم اعطِ مالك لهذه العائلة المسكينة لانها في احتياج اليهِ . هنا المروَّة وعزة النفس هنا الانسانية وان تحت ثوب الفلاح

اثبت مستر ترنبل في كتابهِ عن النمسا حادثة عن الامبراطور فرنسيس السابق قال فيها انهُ لما فشا الهواء الاصفر في ڤينا كان الامبراطور يجول في الاسواق والشوارع وليس معهُ سوى رجل واحد فرأى مرةً ميتًا محمولاً الى القبر ولم يكن معهُ احد من النائحين فسال عن سبب ذلك فوجد ان الميت من الفقراء

وقد مات بالوباء فخاف اهلهُ ان يرافقوهُ الى القبر فقال لنسر معهُ عوضًا عنهم لانني اكره ان ارى واحدًا من رعيتي المحبوبة يدفن بدون ان يصادف العلامة الاخيرة من الاعتبار فذهب معهُ الى المدفن وكان المدفن بعيدًا ووقف فوق قبرهِ مكشوف الراس الى ان تمَّ جنازهُ ودفنهُ حسب شعائر كنيستهِ. ومما يقارب ذلك ما حكي عن اثنين من الفعلة الانكليز كانا في باريز فرأيا ذات يوم جنازةً تحمل ولم يكن معها احد غير الحاملين وكان اليوم ممطرًا فانذهلا من ذلك وقال احدهما للآخر هلمَّ نذهب وراء هذا المسكين فنزعا برنيطتيهما ورافقا الميت الى المدفن ووقفا هناك الى ان ووري التراب

ومن صفات الانسانية ايضًا الصدق الذي هو اساس نجاح البشر. كتب ديوك ولنتون الى كلرمن عن الاسرى الانكليز يقول اذا كان شيءٌ يفتخر بهِ القواد الانكليز غير الشجاعة يكون الصدق فثق بكلامهم لانهم لا يكذبون ولا يخلفون الوعد

ومن مقتضيات الانسانية ايضًا الحلم عند المقدرة. قيل ان جنديًا فرنساويًا اخترط سيفهُ في واقعة البودن في اسبانيا وهمَّ بضرب السر فلاتن هرقي ولكن لما رآهُ اقطع شفق عليهِ واحنى لهُ سيفهُ حسبما يفعل الجند عند التسليم وسار في طريقهِ. ومن قبيل ذلك ما حدث لتشرلس نبير في مدة تلك الحرب وهو انهُ أُخذ اسيرًا في كرونا بعد ان جُرح جرحًا بليغًا. وكان اصحابهُ في

انكلترا لا يعلمون أمات ام بقي حيًّا فارسلوا رسولاً خاصًّا في سفينة حربية ليبحث عنهُ فوصل الرسول الى البارون كلوت فاخبر القائد ناي بذلك فقال لهُ دع الاسير يرى اصحابهُ واخبرهم اننا نعاملهُ بالحسنى فتاخر كلوت فقال ناي ما لك فقال يقولون ان للاسير امًّا ارملةً عمياء فقال ناي اذا كان الامر كذلك فليذهب ويخبرها بسلامتهِ. ولم تكن مبادلة الاسرى جاريةً في ذلك الوقت. وكان ناي يخاف ان يتكدر نبوليون عند ما يسمع ذلك لكن نبوليون مدحهُ على شهامتهِ ٠

وفي هذه الازمنة امثلة كثيرة للمروَّة وعزة النفس وكرم الاخلاق كما في الازمنة القديمة كما تشهد انجاد سبستوبول وسهول الهند فان مسير نيل الى كندبور وهفلوك الى لكنو لانقاذ النساء والاولاد من اعجب ما جاء التاريخ بذكرهِ. وموت هنري لورنس البطل وقولهُ حال وفاتهِ لا تحتفلوا بموتي. وما عاناهُ السر كولن كمبل وهو جالب النساء من لكنو الى كونبور ومن ثمَّ الى الله اباد امور تضيق الصحف بذكرها ويحق للامة الانكليزية ان تباهي بها ام العالم. ولم يكن آحاد الجند اقل شهامة من قوادهم كما تشهد الوقائع التي حدثت في تلك البلاد ومعاملة الجرحى للنساء الممرّضات لهم. ومن ذلك ايضًا ما حدث في السابع والعشرين من شباط سنة ١٨٥٢ على شطوط افريقية عند انكسار السفينة المدعوة بركنهد فانهُ كان في تلك السفينة ٤٧٢ رجلاً و١٦٦ من النساء والاولاد وكان

اكثر الرجال من الجنود الانكليزية الخادمة في راس الرجاء الصالح . فبعد نصف الليل بساعتين اذ كان الجميع نياماً لطمت السفينة بصخر مخفي فانثغر جوفها وكان لا بد من غرقها فنبهت الجنود بصوت الطبول واصطفوا على ظهر السفينة وأُمروا بان يخلصوا النساء والاولاد فانزلوا القوارب وانزلوا اليها النساء والاولاد واكثرهم بثياب النوم ثم بعد ان سارت القوارب قليلاً امر مدبر السفينة ان كل القادرين على السباحة يرمون بنفوسهم الى البحر ويصعدون الى القوارب فاعترضهُ رَبط قائلاً ان فعلوا هلكوا هم والقوارب فوقف الرجال في مكانهم ولم يبدوا حركة ولم يتذمروا قط بل ثبتوا في اماكنهم الى ان غرقت بهم السفينة وقبل ان غرقوا اطلقوا سلاحهم طلق الفرح . يا للشجاعة وكرم الاخلاق فانهُ وان مات هولاء الابطال لا يزال ذكرهم مخلداً الى الابد

وتوجد ادلة كثيرة يستدل بها على الانسان الحقيقي ولكن الدليل الاقوى كيفية استعمالهِ سلطتهُ على الذين هم دونهُ او على المتعلقين عليهِ مثل معاملتهِ للنساء والاولاد ومعاملة القائد لجندهِ والرئيس لخدمهِ والمعلم لتلامذتهِ والمتسلط للمتسلط عليهم . فالحلم والحنو ورقة الجانب في احوال مثل هذه من الشروط اللازمة للانسانية واما من طغى وبغى على الذين هم دونهُ فهو نذل جبان ولله در من قال

واسعد العالم عند الله من ساعد الناس بفضل الجاهِ
ومن اغاث البائس الملهوفا اغاثهُ الله اذا اخيفا
وان من شرائط العلوِّ العطف في البئس على العدوِّ
قد قضت العقول ان الشفقه على الصديق والعدوِّ صدقه
وقد علمت واللبيب يُعلمُ بالطبع لا يُرحم مَن لا يَرحم
والبغي داءٌ ما له دواءُ ليس لملك معهُ بقاءُ
والبغي فاحذرهُ وخيم المرتع والعجب فاتركهُ شديد المصرع

رُوي انهُ لما جرح السر رلف ابركرمبي في حرب ابي قير وحمل الى سفينة الغدريانت وضعت وسادة تحت راسهِ لاراحتهِ فقال ما تحت راسي فقيل لهُ وسادة فقال وسادة مَن فقيل لهُ وسادة واحد من الرجال فقال اخبروني باسمهِ فقيل لهُ وسادة دنكن روي من رجال السر رلف فقال لهم اعطوهُ اياها هذه الليلة. فانظر كيف ان هذا الجنرال وهو على حافة القبر شفق على واحد من رجالهِ ولم يرد ان يحرمهُ وسادتهُ ليلة واحدة . ومن قبيل ذلك ما حكي عن سدني وهو محتضر انهُ اعطى كاس الماء لواحد من جندهِ. وقد جمع فلر صفات الانسانية في كلامهِ عن السر فرنسيس دراك بقولهِ انهُ كان عفيفًا عادلاً صادقًا شفوقًا على الذين دونهُ مبغضًا للكسل لا يعتمد على غيرهِ ولا يجزع من خطر ولا يستعفي من عمل يستدعي بسالة وحذاقة واجتهادًا.

انتهى